شخصيات غيرت مجري التاريخ

الإسكندر الأكبر

د . سمير إمام أبوشرف



تقديم

بين يديك عزيزى القارئ سيرة وتاريخ شخصية تاريخية خالدة استطاعت أن تغير مجرى التاريخ بأعمالها التى لا تزال إلى يومنا هذا تشهد بعظمته وأمجاده.

إنه الإسكندرى الأكبر أو الإسكندر المقدونى الذى اختلطت سيرته بالأساطير التى تتداولها الأجيال جيلاً بعد جيل..

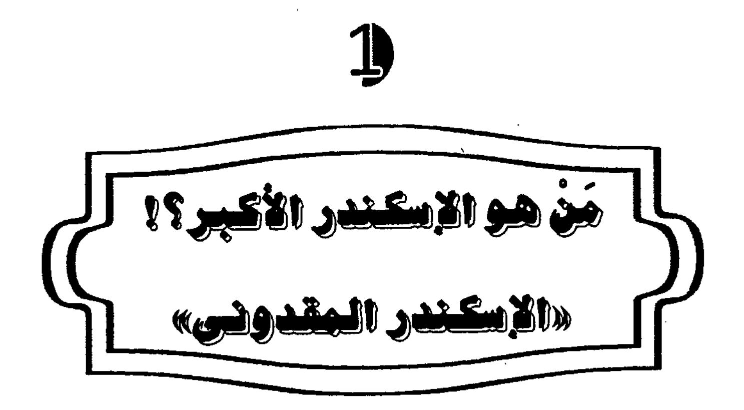
لم يكن محارباً فذّاً ولا شخصية غير عادية فقط بل كان إنساناً يعشق العمران ويكفى أن عدد المدن الذى لا زالت تحمل اسمه إلى يومنا هذا تعدت العشر مدن كبرى فى شتى أنحاء العالم، والحديث عن الإسكندر الأكبر يحتاج لمجدات وليس مجرد إصدار لا يتعدى مئات الصفحات!!

ومع ذلك حاولنا من خلال رحلتنا القصيرة جدّاً أن نحيطك عزيزى القارئ بأهم ما يمكن معرفته عن الإسكندر الأكبر سواء ما كتبه المؤرخون أو ما دون فى مخطوطات مثل مخطوطة بابل أو ما كتبه معاصروه.

إنها رحلة شيقة مع شخصية جذابة خالدة.

والله الموفق والمستعان..

المؤلف



فى هذا الفصل نتعرف على سيرة الأسكنصر الأكبر

كما دونها معظم المؤرخين دون الخوض فى

النقاط الخلافية حول سيرته



الإسكندر الثالث المقدوني، المعروف بأسماء عديدة أخرى أبرزها: الإسكندر الأكبر، والإسكندر الكبير، والإسكندر المقدوني، والإسكندر ذو القرنين «باليونانية: ألكاسندروس أوميكاس»، هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ. وُلد الإسكندر فى مدينة بيلا قرابة سنة 356 ق. م، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ ربيعه السادس عشر، وبحلول عامه الثلاثين، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم، والتى امتدت من سواحل البحر الأيونى غرباً وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقاً. يُعد أحد أنجح القادة العسكريين فى مسيرتهم، إذ لم يحصل أن هُزم فى أية معركة خاضها على الإطلاق.

خلف الإسكندر والده، فيليب الثانى المقدونى «الأعور»، على عرش البلاد سنة 336 ق. م، وبعد أن اغتيل الأخير. ورث الإسكندر عن أبيه مملكة متينة الأساس وجيشاً عرمرماً قويّاً ذا جنود مخضرمة. وقد مُنح حق قيادة جيوش بلاد اليونان كلها، فاستغل ذلك ليُحقق أهداف أبيه التوسعيّة، وانطلق فى عام 334 ق. م فى حملة على بلاد فارس، فتمكن من دحر الفرس وطردهم خارج آسيا الصغري، ثم شرع فى انتزاع ممتلكاتهم الواحدة تلو الأخرى فى سلسلة من الحملات العسكرية التى دامت عشر سنوات. تمكن الإسكندر خلالها من كسر الجيش الفارسى وتحطيم القوة العسكرية للإمبراطورية الفارسية الأخمينية فى عدة

وقعات حاسمة، أبرزها معركتا إسوس وكوكميلا. وتمكن الإسكندر فى نهاية المطاف من الإطاحة بالشاه الفارسى داريوش الثالث، وفتح كامل أراضى إمبراطوريته، وعند هذه النقطة، كانت الأراضى الخاضعة له قد امتدت من البحر الأدرياتيكى غرباً إلى نهر السند شرقاً.

كان الإسكندر يسعى إلى الوصول إلى «نهاية العالم والبحر الخارجى الكبير»، فأقدم على غزو الهند سنة 326 ق. م فى محاولة لاكتشاف الطريق إلى ذاك البحر، لكنه اضطرّ إلى أن يعود أدراجه بناءً على إلحاح قادة الجند وبسبب تمرّد الجيش. توفى الإسكندر فى مدينة بابل سنة 323 ق. م، قبل أن يشرع فى مباشرة عدة حملات عسكرية جديدة خطط لها، وكان أولها فتح شبه الجزيرة العربية. بعد بضعة سنوات من وفاته، نشبت حروب أهلية طاحنة بين أتباعه كان من شأنها أن مزّقت أوصال إمبراطوريته، وولدت عدة دول يحكم كل منها «خليفة» وقد عرفت بملوك الطوائف، وكان كل ملك من هؤلاء الملوك مستقلا لا يدين بالولاء إلا لنفسه، وكان هؤلاء هم من بقى حيّاً من قادة جيش الإسكندر وشاركه حملاته فى الماضي.

يشمل إرث الإسكندر التمازج الثقافى الذى خلقته فتوحاته، فقد تمكن من خلط الثقافة الإغريقية الهلينية بالثقافات الشرقية المختلفة للشعوب الخاضعة له، كما أسس أكثر من عشرين مدينة تحمل اسمه فى أنحاء مختلفة من إمبراطوريته، أبرزها وأشهرها هى مدينة الإسكندرية فى مصر. كما أدى إنشاء الإسكندر للمستعمرات الإغريقية الكثيرة

فى طول البلاد وعرضها، إلى خلق حضارة هلينية جديدة استمرت مظاهرها بارزة فى تقاليد الإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الخامس عشر. استحال الإسكندر شخصيةً بارزة فى الأساطير والقصص والتاريخ اليونانى والعالمى تقريباً، حتى قام مقام آخيل، وأصبح المقياس الذى يُحدد القادة العسكريين بناءً عليه نجاح أو فشل مسيرتهم، وما زالت المدارس العسكرية حول العالم تُدرّس أساليبه وتكتيكاته الحربية حتى الوقت الحالي.

شجرة النسب لإسكندر الأكبر

وُلِدَ الإسكندر فى اليوم السادس من شهر «هيكاتومبايون» بحسب التقويم الإغريقى القديم، الموافق ليوم 20 يوليو من سنة 356 ق. م على الأرجح فى مدينة بيلا عاصمة مملكة مقدونيا والده هو الملك فيليب الثانى المُلقب بالأعور، ووالدته هى أوليمبياس ابنة نيوبطليموس الأول ملك إقليم إيبيروس، وهى الزوجة الرابعة لفيليب. وعلى الرغم من أن الأخير كان متزوجاً بسبع أو ثمانى نساء، إلا أن أوليمبياس كانت المفضلة لديه وأقربهنّ إليه لفترة من الزمن على الأقل، ويُرجح أن سبب ذلك هو إنجابها لوريث ذكر له، هو الإسكندر.

تحيط عدة أساطير بولادة الإسكندر وبنشأته فوفقاً للكاتب الإغريقى القديم بلوتارخ، رأت أوليمبياس فى نومها فى ليلة زواجها من فيليب أن صاعقةً أصابت رحمها، فتولدت عنها ناراً انتشرت «فى كل مكان» قبل أن تنطفئ. وبعد مرور فترة على الزواج، قيل أن فيليب رأى نفسه فى المنام

وهو يختم رحم زوجته بخاتم عليه صورة أسد. قدّم بلوتارخ فى كتاباته عدة تفسيرات لتلك المنامات، منها: أن أوليمبياس كانت حاملاً من قبل الزواج، وما يدل على ذلك هو رحمها المختوم، أو أن والد الإسكندر الحقيقى هو زيوس إله الإغريق. انقسم الإخباريون القدماء حول ما إذا كانت أوليمبياس قد نشرت قصة أصول الإسكندر الإلهية، وأكدتها للإسكندر نفسه، أو أنها رفضت هذا التفسير أساساً واعتبرته كفراً.

كان فيليب الثانى يُحضر لحصار مستعمرة «بوتيدايا» الواقعة على شبه جزيرة خالكيذيكي، فى يوم ولادة ابنه. وفى ذات اليوم تلقى خبراً مفاده أن أحد أبرز قادة جيشه، وهو بارمنيون، انتصر على جيش مكون من حلف من الأليريين والبايونيانيين وردهم على أعقابهم، وأن خيوله فازت فى السباق المنظم كجزء من الألعاب الأولمبية. يُقال أيضاً، إنه فى هذا اليوم احترق هيكل أرتميس، أحد عجائب الدنيا السبعة، فى أفسس، وقد جعلت هذه الواقعة المؤرخ «إيكيسياس المكنيزي» يقول إن الهيكل احترق لأن أرتميش كانت غائبة عنه لتشهد ولادة الإسكندر وتعين والدته على تحمّل آلام المخاض. يُحتمل أن تكون هذه الأساطير قد برزت إلى حيّز الوجود عندما اعتلى الإسكندر عرش المملكة ونمت مع كل فتح جديد، بل قد يكون هو من أشاعها عمداً، ليؤكد أنه فوق مستوى البشر العاديين، وأنه قد قُدّر له أن يكون عظيماً منذ أن حملت به امه.

تربّى الإسكندر خلال السنوات الأولى من حياته على يد مرضعة وخادمة تُدعى «لانيك»، وهى شقيقة كليتوس الأسود، أحد القادة

المستقبليين فى جيش الإسكندر. وفى وقت لاحق، تتلمذ الإسكندر على يديْ ليونيدوس الإيبروسي، وهو أحد أقارب أمه، وليسيماخوس، أحد قادة الجيش العاملين فى خدمة والده. نشأ الإسكندر نشأة الشباب المقدونيين النبلاء، فتعلم القراءة والكتابة، وعزف القيثارة، وركوب الخيل، والمصارعة، والصيد.

عندما بلغ الإسكندر عامه العاشر، أحضر أحد التجار الثيساليين حصاناً مطهماً إلى الملك فيليب، وعرض أن يبيعه إياه مقابل ثلاثين طالن. وعندما حاول الملك ركوب الحصان قاومه الأخير ورفض أن يسمح له أو أى شخص آخر بامتطائه، فأمر الملك بذبحه كونه جامحًا لا يُروّض. غير أن الإسكندر طلب من والده أن يسمح له بمحاولة تهدئة روعه وركوبه، قائلاً إن الفرس خائف من ظله، فقبل فيليب وسمح لولده أن يحاول ترويض الحيوان، فنجح وانصاع له الحصان انصياعاً تامّاً.

يقول بلوتارخ إ فيليب من شدّة ابتهاجه بالشجاعة والتصميم الذى أظهره ابنه، قبّله وأذرف الدمع قائلاً: «يا بنيّ عليك أن تجد مملكة تسع طموحك. إن مقدونيا لصغيرة جدّاً عليك»، ثم اشترى الحصان ومنحه لولده. أطلق الإسكندر على حصانه اسم «بوسيفالوس» (باليونانية بمعنى «رأس الثور»). لازم هذا الحصان الإسكندر طيلة أيام حياته وحمله فى أغلب غزواته، وعندما نفق فى نهاية المطاف بسبب تقدمه بالسن، أطلق الإسكندر اسمه على إحدى المدائن التى أسسها، ألا وهى مدينة «بوسيفلا»، التى كانت واقعة شرق نهر السند.

مراهقته وتعليمه

عندما بلغ الإسكندر الثالثة عشرة من عمره، أخذ والده يبحث له عن معلم يلقنه الفلسفة والمعارف البشرية المختلفة، فعُرض عليه حشد كبير من العلماء اختار منهم أرسطو، وجعل له معبد الحوريات، بنات إله البحار بوسيدون، مكاناً يتخذه كمدرسة. ومقابل تعليمه الإسكندر، وافق فيليب على إعادة بناء بلدة ستاكيرا، مسقط رأس أرسطو، والتى كان الملك قد سوّاها بالأرض سابقاً، كما وافق على إعادة توطين أهلها بها، وعلى شراء وتحرير كل من استُبعد منهم، والعفو عن أولئك المنفيين ودعوتهم للرجوع إلى ديارهم.

كان هذا المعبد بمثابة مدرسة الصعود للإسكندر وغيره من أبناء النبلاء المقدونيين، مثل بطليموس، وهفستيون، وكاسندر، الذين استحالوا أصدقاء الإسكندر المقربين، وقادة جيشه المستقبليين، وغالباً ما يُشار إليهم بأصحاب الإسكندر ورفاق دربه. تلقن هؤلاء الشباب مبادئ الطب، والفلسفة، والأخلاق، والدين، والمنطق، والفن، على يد أرسطو، وظهر لدى الإسكندر ولع كبير بأعمال هوميروس، وبخاصة ملحمة الإلياذة، فقدم له أرسطو نسخة مشروحة منها، حملها الإسكندر معه فى كل حملاته العسكرية.

الوصاية على العرش وصعود مقدونيا

أنهى الإسكندر تعليمه فى سن السادسة عشرة، وفى ذلك الحين غادر والده فيليب ليشن حرباً على بيزنطة، فترك شؤون الحكم فى بلاده إلى ابنه الشاب، فحكم الإسكندر بالنيابة عن والده بصفته وليّاً

للعهد. بعد مغادرة فيليب، ثارت القبائل الميدية التراقية على الحكم المقدونى مستغلة حداثة سن الإسكندر وعدم درايته بالشؤون السياسية والحربية، لكن الأخير فاجأهم، ورد عليهم رداً قاسياً، فأجلاهم عن مناطقهم ووطن فيها أغريقاً، وأسس مدينة أسماها «ألكساندروبولس» أى «مدينة الإسكندر».

بعد عودة فيليب، أُرسل الإسكندر على رأس قوة عسكرية صغيرة إلى جنوب تراقيا لإخضاع الثورات القائمة فيها. بدأت هذه الحملة بالهجوم على مدينة «بيرينثوس»، حيث يُقال إن الإسكندر أنقذ حياة والده عند تعرضه لهجوم، وفى ذلك الحين كانت مدينة أمفيسا قد شرعت بالتوسع فى أراض وقف بالقرب من دلفي، تعتبر أراضيَ مقدسة ومكرسة لخدمة الإله أبولو، فاستغل فيليب هذه القضية للتدخل فى الشؤون اليونانية، معتبراً أنه يُدافع عن الدين ويحمى المقدسات من التدنيس، ولما كان فيليب لا يزال مشغولاً بالصراع فى تراقيا، أمر الإسكندر بأن يحشد جيشاً ويتحضر لحملة على اليونان. لجأ الإسكندر إلى الخديعة وتظاهر بأنه يعزم مهاجمة أليريا عوض أمفيسا، خوفاً من أن تثور مدن يونانية أخرى وتهب لمجابهته ومساعدة شقيقتها. وفى خضم هذه الفوضي، هاجم الأليريون مقدونيا فعلاً، فأسرع الإسكندر وردهم على أعقابهم.

انضم فيليب وجيشه إلى الإسكندر فى سنة 338 ق. م، وسارا جنوباً عبر ممر «البوابات الحارقة»، بعد مقاومة شرسة وعنيدة من الحامية الطيبية المعسكرة فى المنطقة، وتابعا طريقهما ليفتحا مدينة إلاتيا، التى تبعد مسافة بضعة أيام فقط عن كل من طيبة وأثينا. صوّت

الأثينيون، بزعامة الخطيب ديموستيني، على التحالف مع طيبة لدرء الخطر المقدوني، فأرسلوا سفراء إلى المدينة المذكورة يخبرونهم بالمقترح، وكان فيليب فى الوقت نفسه قد أرسل سفراءً بدوره لجذب الطيبيين إلى صفه، لكن أبناء المدينة رفضوا عرض مقدونيا، وفضلوا التحالف مع إخوانهم الأثينيين. سار فيليب وجنوده حتى وصلوا أمفيسا، واعتقلوا جميع المرتزقة الذين أرسلهم ديموستينى إلى هناك ليناوشوا الجيش المقدوني، وأمام هذا الأمر استسلمت المدنية للمقدونيين، ثم عاد هؤلاء إلى إلاتيا حيث أرسل فيليب عرض السلام الأخير إلى كل من أثينا وطيبة، لكنهم رفضوه مجدداً.

معركة خايرونيا

تعرّض الأثينيون والطيبيون للجيش المقدونى أثناء توجهه جنوباً، وقطعوا عليه الطريق بالقرب من بلدة خايرونيا فى منطقة بيوتيا، ليحتكوا معه فى معركة هائلة عرفت باسم معركة خايرونيا.

خلال هذه المعركة، تولّى فيليب قيادة الجناح الأيمن من الجيش، فيما تولى الإسكندر قيادة الجناح الأيسر، برفقة جماعة من القادة الموثوق بهم. تنص المصادر القديمة أن تلك المعركة كانت مريرة، وأنها طالت كثيراً حتى فكر فيليب بخداع خصومه حتى يتمكن من هزيمتهم وحسم الأمر لصالحه، فأمر جنوده بالتراجع آملاً أن تتبعه العساكر الأثينية غير الخبيرة بشؤون الحرب، فيتمكن من خرق صفوف الجيش. كان الإسكندر أول من تمكن من خرق صفوف الطيبيين، تلاه

قادة فيليب، ولمّا رأى الأخير أن تماسك الجيش قد اختل بعد أن تبعه الأثينيين، أمر جنوده بالتقدم وتطويقهم. استسلم الطيبيون سريعاً بعد أن رأوا هزيمة حلفائهم الأثينيين ومحاصرة المقدونيين لهم، فكان النصر حليف الإسكندر ووالده.

بعد هذا النصر الكبير، سار الإسكندر وفيليب إلى شبه جزيرة المورة دون أن يتعرض لهما أحد، بل رحبت بهما كل المدن اليونانية وفتحت أبوابها للجيش المقدوني. إلا أن الوضع تغير حينما وصلا إلى إسبرطة، إذ رفضت المدينة فتح أبوابها ولكنها فى الوقت نفسه لم تتبن خيار الحرب. أنشأ فيليب فى مدية كورنث «الرابطة الهيلينية». وقد استمد فكرته من «الحلف المقاوم للفرس» الذى قام إبّان الحروب الميدية قديماً، وضم هذا الحلف الجديد جميع المدن الإغريقية عدا إسبرطة. نودى بفليب بعد ذلك قائداً أعلى للرابطة الهيلينية، وسرعان ما أعلن عن رغبته فى غزو الإمبراطورية الفارسية، بعد أن وحّد صفوف بلاد اليونان.

بعد عودة فيليب إلى بيلا عاصمة ملكه، أُغرم بامرأة تُدعى «كليوبترا يوريديس»، ابنة أخ أحد قادة جيشه وهو «أتالوس»، وتزوج بها. وبهذا الزواج استحال منصب الإسكندر كوريث للعرش مهتزّاً، فأى ولد ذكر يولد لفيليب من هذه المرأة سيكون ولى العهد شرعاً، بما أنه مولود لأبوين مقدونيين، فى حين كان الإسكندر نصف مقدوني، من ناحية أبيه فقط.

يذكر المؤرخون أنه خلال وليمة العرس، تضرّع أتالوس المخمور إلى الآلهة كى تمنح فيليب وريثاً شرعيّاً:

خلال حفل زفاف فيليب وكليوبترا التى أغرم بها وتزوجها، على الرغم من أنها كانت تصغره بكثير من السنين، قام عمّها أتالوس، وقد ثمل من كثرة الخمر، ورغب إلى المقدونيين أن يناشدوا الآلهة كى تهب لهم وريثاً شرعيّاً من ابنة أخيه يرث المملكة بعد حين. وقد أثار هذا غضب الإسكندر لدرجة دفعته أن يقذف رأس الخطيب بإحدى الكؤوس، قائلاً له: «أيها الشرير، وما أنا؟ هل أنا بلقيط؟» ثم قام فيليب وقد مال إلى جانب أتالوس، وكاد أن يقتل ابنه، لولا أن تدخلت عناية القدر، فزلّت قدمه، إما لشدة غضبه الذى أعماه، أو لكثرة ما شرب من النبيذ، فوقع أرضاً، وهنا وبّخ الإسكندر الحاضرين مستهزءاً، فقال: «إليكم الرجل الذى يُحضّر لغزو آسيا، سقط وهو ينتقل من مقعد لآخر».

وبعد هذه الحادثة، غادر الإسكندر مقدونيا بصحبة والدته، وتركها مع أخيها، خاله إسكندر الإيبروسى فى مدينة دودونا، عاصمة قبيلة المولوسيين. ثم تابع طريقه متجهاً إلى أليريا، حيث احتمى بملك الأليريين، الذى استقبله بكل حفاوة وأكرمه، على الرغم من أنه كان قد هزم جيشه قبل بضع سنين، أمضى الإسكندر زهاء 6 شهور فى أليريا، كان خلالها أحد أصدقاء العائلة، وهو «ديمراتوس الكورنثي»، قد توسّط لدى فيليب أن يعفو عن ابنه ويسامحه عمّا بدر منه، والظاهر أن فيليب لم يكن ينوى معاقبة ولده أصلاً أو أن يتبرأ منه خصوصاً وأنه كان محنّكاً سياسيّاً وخبيراً عسكريّاً، لكنه تركه فى المنفى لفترة كى يحفظ ماء الوجه.

عاد الإسكندر إلى مقدونيا بعد أن بلغه عفو والده عنه، وفى السنة التالية عرض الحاكم الفارسى لإقليم كاريا أن يزوج ابنته بالأخ غير

الشقيق للإسكندر، المدعو فيليب آرهيدايوس، فقالت أوليمبياس وعدد من أصحاب الإسكندر، إن مشروع الزواج هذا يؤكد عزم فيليب جعل آرهيدايوس وريثاً له. فقام الإسكندر بإرسال مبعوث يُدعى ثيساليوس الكورنثى إلى الحاكم الفارسى يُخبره فيها أنه من غير اللائق لمنصبه أن يعرض تزويج ابنته بولد غير شرعي، وأنه ينبغى أن يزوجها للإسكندر عوض ذلك. ولما علم فيليب بالقصة، أوقف مفاوضاته مع الحاكم الفارسى فوراً، ووبخ الإسكندر توبيخاً شديداً، قائلاً له إن ما لا يليق هو اتخاذه لزوجة فارسية كاريّة، وإنه كان يعتزم تزويجه بامرأة أفضل. أقدم فيليب على نفى أربعة من أصدقاء الإسكندر الذين دفعوه إلى هذا العمل، وهم: هاريالوس، ونيارخوس، وبطليموس، وإيكايوس، وجعل أبناء مدينة كورنث يُحضرون مواطنهم ثيساليوس أمامه مكبلاً بالأغلال.

بوسانياس يطعن فيليب المقدونى حتى الموت

عام 336 ق. م، كان فيليب قد توجه إلى إيجة لحضور حفل زفاف ابنته كليوبترا على إسكندر الأول ملك إيبروس، أخ زوجته أوليمبياس، فاغتاله قائد حرسه الشخصي، المدعو «بوسانياس الأورستيادي»، ثم جرى ناحية بوابة المدينة محاولاً الفرار، لكنه تعثّر بحبل كرمة، فأمسك به ملاحقوه وقتلوه فوراً، وكان من بينهم اثنان من أصحاب الإسكندر، وهما: بيرديكاس وليونّاتوس. بعد مقتل فيليب بايع النبلاء الإسكندر ملكاً على عرش مقدونيا وقائداً عامّاً لجيشها، وهو لم يتخط العشرين من عمره.

الإسكندر ملِكاً على عرش مقدونيا

بدأ الإسكندر عهده بإبادة خصومه الذين يُحتمل أن يبرز منهم شخص يُنازعه على عرش المملكة، فأمر بإعدام ابن عمه أمينتاس الرابع، المنافس الأبرز والمدعى بالحق فى عرش مقدونيا، وأميرين مقدونيين آخرين من إقليم «لينخستس»، لكنه عفى عن ثالث هو «إسكندر اللينخستي». كذلك أمرت أوليمبياس بإعدام كليوبترا يوريديس، الزوجة الأخيرة لفيليب، وابنتها يوروبا، التى أنجبتها منه، فأحرقتا حيتين. ويظهر أن الإسكندر لم يكن موافقاً أو راغباً بإعدام تلك المرأة وابنتها البريئة، إذ تنص المصادر على أنه استشاط غضباً لما عرف بموتهما. ومن الأشخاص الآخرين الذين طالهم سيف الإسكندر أيضاً: أتالوس، الذى كان قائداً لحرس الحدود فى الجيش المرابط فى آسيا الصغري، وعمّاً لكليوبترا يوريديس، إذ تواصل حينها مع الزعيم الأثينى ديموستينى بخصوص إمكانية انشقاقه عن الجيش المقدونى والتحاقه بجيش أثينا. كما كان الإسكندر لا يزال حاقداً على أتالوس بعد أن أهانه علناً فى حفل زفاف ابنة أخيه على فيليب، وبعد وفاة الاثنين وإثبات اتصاله مع الأثينيين، أقدم الإسكندر على إعدامه والتخلص من شروره. وعفا الإسكدنر عن أخيه غير الشقيق فيليب آرهيدايوس لإصابته بإعاقة عقلية، ولعلّ ذلك مردّه السم الذى وضعته له أوليمبياس خفيةً.

بعد أن انتشر خبر وفاة فيليب، ثارت عدّة مدن خاضعة لمقدونيا وانتفضت على حكامها، وكان من ضمنها: طيبة، وأثينا، وثيساليا، بالإضافة للقبائل التراقية قاطنة الأراضى شمال المملكة.

وما أن وصلت أخبار الثورة مسامع الإسكندر حتى قام وجهّز جيشاً قوامه 3000 فارس، على الرغم من أن مستشاريه نصحوه باعتماد الحلول الدبلوماسية، وسار به جنوباً ناحية ثيساليا، وما أن وصل المعبر الفاصل بين جبل الأولمب وجبل أوسا، حتى فوجئ بالثيساليين وقد احتلوه وتمركزت قواتهم فيه، فأمر رجاله بتسلق جبل أوسا والالتفاف حول الثيساليين ومباغتتهم. صُدم الثيساليون حين استفاقوا صباح اليوم التالى ليجدوا المقدونيين قد أصبحوا خلف مؤخرة جيشهم، فاستسلموا على الفور، وانضم فرسانهم طواعيةً إلى جيش الإسكندر، الذى أكمل المسير جنوباً إلى شبه جزيرة المورة.

تابع الإسكندر مسيرته حتى وصل ممر البوابات الحارقة، وتابع جنوباً حتى وصل كورنث، وحينها طلب منه الأثينيون الأمان، وعاهدوه بالخضوع لمقدونيا، فعفا عنهم وأمّنهم على أرواحهم وممتلكاتهم. التقى الإسكندر خلال فترة مكوثه فى كورنث بالفيلسوف الزاهد الشهير «ديوجين السينوبي»، وكان من أشد المعجبين به، فسأله إن كان له طلب يقدر أن يحققه له، فردّ الفيلسوف بازدراء: «تنح قليلاً، أنت تحجب الشمس عني». يظهر بأن هذا الرد أبهج الإسكندر، حيث ينص بعض المؤرخين قوله: «حقّاً أقول لكم، لو لم أكن الإسكندر، لوددت أن أكون ديوجين». وخُلع على الإسكندر لقب القائد الأعلى للرابطة الهلينية خلال إقامته فى كورنث وعُين خلفاً لوالده فى قيادة جيوش بلاد اليونان كلها فى الحرب القادمة مع الإمبراطورية الفارسية، كما تلقى أنباءً تفيد بانتفاض التراقيين على حكمه.

الإسكندر وجشيه يفتحون طيبة عقاباً لها على العصيان

رغب الإسكندر أن يؤمن حدود مملكته الشمالية، قبل أن يعبر مضيق الدردنيل متجهاً إلى آسيا، فأقدم فى ربيع سنة 335 ق.م على الشروع بحملة لتطهير بلاده من الثورات والانتفاضات القائمة. انطلق الإسكندر من مدينة «آمفيبلوليس» متجهاً شرقاً إلى بلاد «التراقيين المستقلين»، وعلى سفوح جبال البلقان هزم قواتهم هزيمة منكرة، ثم تابع طريقه إلى مناطق قبائل التريباليين، وتغلب عليهم بالقرب من نهر لايكينوس، وهو أحد فروع الدانوب، اتجه الجيش بعد ذلك إلى الفرع الرئيسى للنهر حيث لقى قبيلة الغيتيون على حين غِرّة وأجبرهم على التراجع بعد أوّل مناوشة بين الفرسان. بعد ذلك وصله أن كليتوس ملك أليريا، وكلوكياس ملك التولنتيين قد أشهرا العصيان عليه، فحوّل الإسكندر سير جيشه غرباً ناحية أليريا، حيث هزم الملكان تباعاً وفرق جيوشهما، وبتمام هذا النصر كان الإسكندر قد أمّن الحدود الشمالية لمملكته.

ثار الطيبيون والأثينيون على الحكم المقدونى مجدداً، أثناء حملة الإسكندر الشمالية، ولمّا علم الأخير بذلك، اتجه جنوباً بأقصى سرعة لإخماد نار الثورة قبل امتدادها. كما فى الثورات السابقة، ترددت جميع المدن اليونانية فى مقارعة الإسكندر لمّا علمت بقدومه، إلا طيبة، التى قررت المواجهة. كانت مقاومة الطيبيين غير مجدية على الإطلاق، فقد اكتسحهم الإسكندر وجيشه كالعاصفة الهوجاء، وسوّى مدينتهم بالأرض، وقسّم أراضيها بين باقى المدن البيوتية.

كان لنهاية طيبة أثر مروّع فى نفوس الأثينيين، فخضعوا لمقدونيا خوفاً من أن يصيبهم ذات المصير، الأمر الذى كان من شأنه إحلال السلام فى جيمع بلاد الإغريق ولو مؤقتاً. بهذا تفرّغ الإسكندر تماماً لحملته الآسيوية، فجمع الجند والعتاد وانطلق شرقاً، تاركاً أحد القادة العسكريين، وهو أنتيباتر، وصيّاً على العرش.

***

فتح الإمبراطورية الفارسية

معركة نهر كرانيكوس بين الإسكندر والفرس

عبر الإسكندر مضيق الدردنيل سنة 334 ق. م بجيش قوامه 48100 جندى من المشاة، و6100 فارس، وأسطول مكوّن من 120 سفينة بلغ عدد أفراد طاقمها 38000 نفر، أحضروا من مقدونيا ومختلف المدن اليونانية، كما ضمّ الجيش عددًا من المرتزقة والمحاربين الإقطاعيين من تراقيا، وبايونيا، وأليريا. أظهر الإسكندر نيته فى غزو جميع أراضى الإمبراطورية الفارسية عندما غرز رمحاً فى البر الآسيوى أوّل ما وطأه قائلاً إنه قبل آسيا هدية لشخصه من الآلهة. أظهرت هذه الحادثة أيضاً أمراً مهمّاً آخر، وهو توق الإسكندر لقتال الفرس، وميله نحو الحلول العسكرية، على العكس من والده، الذى كان يُفضل الحلول الدبلوماسية على الدوام. اشتبك المقدونيون مع الفرس فى أوّل معركة على ضفاف نهر كرانيكوس، المعروف حالياً باسم «نهر بيكا»، شمال غرب آسيا الصغرى بالقرب من موقع مدينة طروادة، حيث انهزم الفرس وسلّموا مفاتيح مدينة «سارد» عاصمة ذلك الإقليم، إلى الإسكندر، الذى دخلها ظافراً، واستولى على خزائنها، ثم تابع تقدمه على طول ساحل البحر الأيوني. ضرب الإسكندر الحصار على مدينة هاليكارناسوس الواقعة فى

إقليم كاريا لتكون بذلك أول مدينة يحاصرها، وقد كان الحصار ناجحاً لدرجة أن قائد المرتزقة فى المدينة، المدعو «ممنون الرودسي» وحاكم الإقليم الفارسى «أراندباد» المقيم بالمدينة، اضطرا إلى الانسحاب منها عن طريق البحر. سلّم الإسكندر حكم كاريا إلى «أدا الكاريّة»، وهى حاكمة سابقة للإقليم، أعلنت ولاءها لمقدونيا وتبنت الإسكندر تبنياً رسميّاً حتى يؤول إليه حكم الإقليم شرعاً بعد وفاتها.

تقدم الإسكندر وجيشه من هاليكارناسوس إلى منطقة ليكيا الجبلية فى جنوب الأناضول فسهل بامفيليا، فاتحاً كل المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى حارماً الفرس من الكثير من الموانئ البحرية المهمة.

سار الإسكندر إلى داخل الأناضول بعد فتح بامفيليا، بما أن باقى الخط الساحلى لم يحو أية موانئ أو قواعد بحرية بارزة، ولمّا وصل مدينة ترمسوس البيسيديّة، عدل عن اقتحامها بعد أن شبهها بعش عقاب، الطائر المجسد لكبير الآلهة زيوس، حيث خاف أن يؤدى عمله ذلك إلى غضب زيوس عليه وعدم توفيقه فى حملته، بعد ترمسوس كانت كورديوم المحطة التالية للإسكندر وجيشه، وفيها قام بحل العقدة الكوردية غير المحلولة قبلاً، التى قيل بأن أحداً لن يقدر على حلها سوى ملك آسيا الحق. يفيد المؤرخون بأن الإسكندر قطع العقدة بسيفه قائلاً إنه من غير الضرورى معرفة الطريقة الصحيحة لحلها.

بعد أن أمضى الإسكندر وجيشه الشتاء بكامله يغزون ويفتحون المدن والقلاع الحصينة فى آسيا الصغري، تابعوا زحفهم جنوباً وعبروا بوابات

قيليقية سنة 333 ق. م، فالتقوا بالفرس ثانية عند إسوس يقودهم الشاه داريوش الثالث بنفسه، فاشتبك الجيشان فى معركة حامية الوطيس أسفرت عن تحقيق الإسكندر لنصر حاسم، وانكسار الجيش الفارسى وفرار الشاه ناجياً بحياته، ووقعت فى الأسر زوجته وابنتاه وأمه «سيسيكامبيس»، وغنم المقدونيون كنزاً عظيماً كان قد حمله معه، وكميات هائلة من المؤن والأسلحة. عرض الشاه إبرام معاهدة سلام مع الإسكندر يحتفظ الأخير بموجبها بما فتحه من الأراضي، وأن يطلق سراح عائلته مقابل 10000 طالن.

ردّ الإسكندر على هذا المقترح بأنه هو وحده من لديه الحق بتقسيم أراضى آسيا، بما أنه استحال سيدها، فلا يحق لداريوش أو أى كان أن يحدد له ما يحتفظ به وما يتركه.

خلّد الإسكندر نصره هذا، الذى فتح له أبواب الشام على مصراعيها، بأن أنشأ مدينة فى شمال البلاد على حدود الأناضول، هى «الإسكندرونة». وكان أمام الإسكندر، الآن، أن يختار إحدى خطتين: إما أن يتعقب الفرس إلى بلادهم نفسها، وإما أن يزحف جنوباً لفتح المدن الفينيقية ومصر قبل أن يقضى على فارس. وقد وقع اختيار الإسكندر على الخطة الثانية لكى يصون خطوط مواصلاته، ولكى يُحبط كل محاولة قد يقوم بها الأسطول الفارسى لتحريك اليونان إلى الثورة عليه. وكانت المدن الفينيقية رازحة تحت نير الاستعمار الفارسى الثقيل، ففتحت أبوابها للإسكندر واستقبلته كمنقذ مخلّص.

ورغب الإسكندر فى أن يُقدم الذبائح لإله صور «ملقارت»، فأبى الصوريّون عليه ذلك، إذ كانوا يعتبرون هذا العمل حقّاً من حقوق ملكهم دون غيره. فعدّ الإسكندر رفضهم هذا إهانة شخصية له، وعزم على تأديب المدينة العنيدة. وكانت صور تنقسم آنذاك إلى قسمين:

صور البرية وصور الجزيرة. فارتأى الإسكندر أن يفتح المدينة البرية أولاً، ثم يبنى سدّاً يربطها بالجزيرة فيعبر البحر عليه، ويحاصر الجزيرة فتسقط فى يديه. وهكذا استولى فى سهولة فائقة على صور البرية، ثم أمر رجاله بهدم مبانيها وإلقاء أنقاضها فى البحر، وبقطع الأشجار من الغابات المجاورة لاستخدامها فى أعمال الطمر الجبارة.

ولكن الصوريون قاوموا الفاتح ببسالة عجيبة، حتى كاد اليأس يتسرب إلى فؤاده. وأخيراً استطاع الإسكندر أن يجمع قوة بحرية هائلة حاصر بها الجزيرة فسقطت فى يده، فى شهر يوليو سنة 332 ق. م، بعد حصار دام سبعة أشهر. وانتقم الإسكندر من صور، فقتل ستة آلاف من أهلها، وصلب ألفين، وسبى ثلاثين ألفاً. ثم دخل هيكل ملقارت وقدّم الذبائح إلى إله صور، وأقام حفلة ألعاب ابتهاجاً بنصره.

بعد تدمير صور، خضعت معظم المدن والبلدات الشامية للإسكندر دون قتال، أثناء مروره بها متجهاً إلى مصر، إلا غزة، فقد رفض حاكم المدينة الفارسى فتح أبوابها للقائد المقدوني، وأعلن عزمه مقاومته. وكانت غزة من أكثر مدن الشام تحصيناً، وكان موقعها على تلة يفرض على أى جيش ضرب الحصار عليها كى يتمكن من فتحها . حاول المقدونيون

اقتحام المدينة ثلاث مرات متتالية، فلم ينجحوا، وفى المرة الرابعة وفقوا بعد أن استخدموا أدوات حصار أحضروها خصيصاً من صور، غير أن الإسكندر دفع ثمن الحصار غالياً، فقد أصيب بجرح خطير فى كتفه. وكما فعل فى صور، انتقم الإسكندر من أهل المدينة شر انتقام، فطال سيفه رقاب كل الرجال القادرين على حمل السلاح، وبيعت النساء والأولاد عبيداً، كما جعل الحاكم عبرة لمن يعتبر، فربط قائمتيه بعربة ثم جرّه تحت أسوار المدينة، واستمر يجرّه حتى مات متأثراً بجراحه.

الإسكندر يزور هيكل حيرود فى القدس

كانت مدينة القدس قد فتحت أبوابها سلماً للإسكندر، فدخلها دون مقاومة، ويذكر المؤرخ اليهودى الروماني، المدعو يوسف بن ماتيتياهو، والشهير باسم يوسيفوس فلافيوس، أن الأحبار عرضوا على الإسكندر الإصحاح الثامن من سفر دانيال، الذى يتحدث عن ما أخبره النبى دانيال من أن ملكاً إغريقيّاً عظيماً سوف يغزو أراضى الإمبراطورية الفارسية وأن شاه فارس صاحب القرنين عظيم الشأن لن يقوى على الوقوف فى دربه: وبينما كنت متأملاً إذا بتيسٍ من المعز جاء من المغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض، وللتيس قرنٌ معتبرٌ بين عينيه. وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذى رأيته واقفاً عند النهر وركض إليه بشدة قوته. ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش، فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه، فلم تكن للكبش قوةٌ على الوقوف أمامه، وطرحه على الأرض وداسه، ولم يكن للكبش منقذٌ من يده. [دانيال: 8] ويظهر بأن

الإسكندر طرب عند سماعه نبوءة تتعلق به، فأكرم المقدسيين، ومكث فترة فى المدينة زار خلالها هيكل حيرود، ثم غادر وتابع طريقه جنوباً.

الإسكندر يُشرف على رسم حدود ووضع أساسات مدينة الإسكندرية

وصل الإسكندر إلى الفرما، بوابة مصر الشرقية، فى خريف عام 332 ق. م، ولم يجد أية مقاومة من المصريين ولا من الحامية الفارسية عند الحدود ففتحها بسهولة، ثم عبر النيل ووصل إلى العاصمة منف، فاستقبله أهلها كمحرر منتصر، ثم أقام مهرجاناً ثقافيّاً ترفيهيّاً على النمط الإغريقى احتفالاً بهذا الفوز العظيم. بعد ذلك سار بقواته بحذاء الفرع الكانوبى للنيل، متجهاً إلى ساحل البحر المتوسط، وحط رحاله بالقرب من بحيرة مريوط، وراعه زهمية المكان المحصور بين البحيرة والبحر المتوسط، خاصة أن المكان قريب من نهر النيل الذى يمده بالمياه العذبة.

لقد وجد فى المكان قرية صغيرة تسمى «راكودة»، ومن ثم كلف أحد معاونيه ويدعى «دينوقراطيس» لكى يشرف على بناء مدينة فى هذا المكان تحمل اسم القائد المقدوني، ألا وهى الإسكندرية، التى قُدّر لها أن تصبح عاصمة مصر لاحقاً خلال عهد البطالمة خلفاء الإسكندر.

بينما شرع المهندسون فى التصميم، قرر الإسكندر القيام برحلة روحية لمعبد الإله آمون، المقابل لزيوس عند الإغريق، فى واحة سيوة بالصحراء الغربية لمصر. ولما وصل المعبد ودخله، قوبل بالترحاب من قبل الكهنة المنتظرين، الذين نصبوه فرعوناً على مصر وأعلنوه ابناً لآمون كبير الآلهة المصرية، وألبسوه تاجه وشكله كرأس كبش ذى قرنين، فلقب

بذلك «الإسكندر ذو القرنين». ومنذ ذلك الحين، أخذ الإسكندر يزعم بأن زيوس - آمون - هو والده الحقيقي، وظهر نقش رأسه لاحقاً على العملات المسكوكة مزيناً بقرون كبش، وهى علامة الخلود. بعد ذلك رجع الإسكندر إلى منف، وقبل مغادرته مصر حرص على أن ينظم البلاد تنظيماً دقيقاً. فقد حرص على الإبقاء على النظم المصرية القديمة، وتنويع الحكم بين المصريين والإغريق الذين وضع بين أيديهم السلطة العسكرية والمالية، وأبقى للمصريين السلطة الإدارية، ووزع السلطات بالتساوي، ولم يعين حاكماً عامّاً مقدونيّاً، وبذلك ضمن رضا المصريين وعدم قيام الثورات الوطنية. أصبحت مصر بهذا ولاية إغريقية، وأبقى الإسكندر على منف عاصمةً لها، كما حرص على فتح أبواب مصر للمهاجرين الإغريق خاصة المقدونيين، لأن مصر كما تخيلها القائد المقدونى كانت ولاية مقدونية إغريقية حكماً وفكراً وثقافة، وكان ذلك نقطة تحول فى تاريخ مصر، إذ دخلت طوراً جديداً من أطوار حضارتها المتنوعة. قبل أن يغادر الإسكندر مصر، استعرض قواته للوداع وأقام للشعب المصرى والإغريقى مهرجاناً رياضيّاً وثقافيّاً كرمز للتعاون بين الحضارتين العريقتين، كما أوصى موظفيه بالقيام ببعض الإصلاحات للمعابد وتجديد معبد الكرنك، ثم شدّ الرحال واتجه بجيشه شرقاً مجدداً.

الإسكندر يدخل بابل على عربة الشاه داريوش الثالث

سار الإسكندر بجيشه متجهاً إلى عقر دار الفرس معتزماً القضاء على قوتهم العسكرية، فوصل بلاد ما بين النهرين، حيث كان الشاه داريوش الثالث قد حشد جيشاً جرّاراً وصل تعداد أفراده بحسب

المصادر القديمة إلى ما بين 200000 و250000 جندي، بينما تنص المصادر المعاصرة أن العدد ربما كان يتراوح بين 50000 و100000 جندي، بينما وصل عدد أفراد الجيش المقدونى إلى 47000 جندى فقط. اختار الشاه موقع المعركة الفاصلة بعناية مدروسة، فجعله سهلاً مكشوفاً مسطحاً بحيث يتمكن من إفراز كامل قواته المتفوقة عدديّاً، حتى لا يحصل له ما حصل فى إسوس قبل سنتين، عندما لم تمكنه طبيعة المنطقة من استخدام جيشه كاملاً، فاستفاد الإسكندر من ذلك وقهره، أما الآن فأراد إلقاء كامل ثقله العسكرى فى وجه المقدونيين، بحيث يضمن النصر.

اقترح قادة جيش الإسكندر مباغتة الفرس عشيّة المعركة ومهاجمتهم تحت جنح الظلام وأخذهم على حين غرّة، ذلك أن مواجهة هذا الجيش العرمرم وجهاً لوجه لهو أمرٌ فى غاية العسر إن لم يكن مستحيلاً. لكن الإسكندر رفض هذه الفكرة، قائلاً إنه لن يسرق هذا النصر، بل سيظفر به عن جدارة، فكيف عساه أن يكون ملك آسيا الحق إن لم يكسبها بحق. وفى جميع الأحوال فإن مثل هذا الهجوم كان سيُقدّر له الفشل على الأرجح، إذ أن داريوش استبق الأمور وتوقعه، فأمر رجاله بالبقاء مستيقظين طوال الليل ووضعهم على أهبة الاستعداد لرد أى هجوم محتمل. وفى صبيحة اليوم التالى اتجه الجيش المقدونى إلى ساحة المعركة ليجدوا الفرس مصطفين وبانتظارهم، وقد ظهر بين صفوفهم الكثير من العجلات الحربية وخمسة عشر فيلاً حربيّاً أحضرت خصيصاً من الهند. أظهر الإسكندر نبوغه العسكرى عند بداية المعركة، فقام

بالعدو على موازاة الجناح الأيمن للجيش الفارسي، يرافقه ثلّة من أفضل فرسانه، فتبعه قسم من الجيش، حتى إذا ظهرت فجوة بين صفوفهم، دخلها الإسكندر بسرعة فائقة ووصل إلى حيث تخفض راية الشاه، الذى راعه رؤية المقدونيين وقد اخترقوا صفوف جيشه، ففر هارباً مع بعض قادته، تاركاً جيشه يتضعضع تحت وطأة ضربات الإسكندر وجيشه. لاحق الإسكندر فلول الجيش الفارسى رغبة منه بالقبض على الشاه، فتتبعه حتى أربيلاء شمالاً، لكنه لم يتمكن من الإمساك به، بسبب عبوره جبال زاغروس ولجوئه إلى همدان. بعد ذلك دخل الإسكندر بابل، عاصمة الفرس، مكللاً بالظفر، واستقبله أهلها بالترحاب، وأعطى الأمان للناس ومنع جنوده من دخول البيوت دون إذن أصحابها أو أن يسلبوا شيئاً.

بعد فتحه بابل، انطلق الإسكندر باتجاه مدينة سوسة، إحدى العواصم الأخمينية المهمة، فدخلها واستولى على خزائنها. ثم سار مع القسم الأعظم من جيشه إلى برسيوليس، العاصمة الدينية للفرس، عبر الطريق الملكي، ويُقال إنه انتقى الجنود شخصياً، كلّاً باسمه، للقيام بهذه المهمة، ولما وصل المقدونيون إلى معبر «بوابات فارس» وجدوا جيشاً صغيراً بانتظارهم يقوده حاكم الإقليم المدعو «آريوبرزن»، فهزموه وشتتوه، ثم أسرعوا إلى المدينة قبل أن تقوم حاميتها بالسطو على خزينتها والفرار.

سمح الإسكندر لرجاله أن ينهبوا برسبوليس طيلة أيام عدة بعد أن دخلها، ومكث فيها خمسة أشهر. وخلال فترة إقامته، شبّ حريق هائل فى قصر خشايارشا الشرقي، وانتشر إلى باقى أنحاء المدينة، ويُحتمل أن يكون هذا الحادث سببه شخص مخمور لم يعى ما يفعل، أو أن

أحدهم أشعل النار عمداً بقصد إحراق مَعْلَم فارسى مهم، ردّاً على حرق الفرس لأكروبوليس أثينا خلال الحرب الفارسية الثانية.

الإسكندر يغطى جثة داريوش بعباءته

تابع الإكسندر مطاردة الشاه داريوش الثالث بكل ما أوتى من عزم، فلاحقه حتى ميدية أولا، ثم تبعه إلى فرثيا، وكان داريوش فى حالة لا يُحسد عليها، فبعد أن خسر كل معاركه مع الإسكندر، وفقد أغلب الأراضى لصالحه، خسر احترام وثقة ضبّاطه القلائل الذين رافقوه، ومن بينهم «أردشير» المعروف باسم بسوس، حاكم باختريا وقريبه، فقد عصاه هذا الأخير، ولم يكتف بذلك، بل قام بتكبيله وحمله معه أسيراً إلى آسيا الوسطي، وعندما عرف باقتراب الإسكندر وجيشه، أمر رجاله بطعن داريوش طعنةً قاتلة، ثم أعلن نفسه خليفة له، تحت اسم «أردشير الخامس»، وتابع طريقه متجهاً إلى آسيا الوسطى لُيحضر سلسلة حملات عسكرية ضد القائد المقدوني. عثرت مقدمة الجيش المقدونى على داريوش مرميّاً فى عربته فى حالة النزاع، ولما وصل الإسكندر كان داريوش قد أسلم الروح، ويظهر أن الإسكندر قد أحزنه رؤية خصمه القديم على هذه الحال، هو الذى كان ملكاً عظيماً فى يوم من الأيام، انتهى أمره على هذا الشكل، فغطاه بعباءته، ونقل جثمانه إلى برسيوليس حيث دفنه إلى جانب أسلافه من الملوك، بعد أن أقام له جنازة مهيبة. بعض الروايات، ومنها رواية الإسكندر نفسه، تشير إلى أنه حينما وصل، كان داريوش ما زال حيّاً، وسمّى الإسكندر خليفة له على عرش فارس. يعتبر المؤرخون أن نهاية الإمبراطورية الأخمينية حلّت بوفاة داريوش الثالث.

الإسكندر يشهد عذاب بسوس

اعتبر الإسكندر بسوس غاصباً معتدياً، وانطلق فى أثره. تحوّلت الحملة الهادفة إلى اعتقال بسوس إلى جولة واسعة النطاق فى آسيا الوسطي، فقد فتح الإسكندر المدينة تلو المدينة والبلدة تلو البلدة، وأسس عدّة مدن أسماها كلها «الإسكندرية»، وما زال بعضها قائماً إلى الوقت الحالي، إلا أن اسمها تغيّر، ومنها: قندهار فى أفغانستان، والإسكندرية القصوى فى طاجيكستان. ضمّ الإسكندر عدّة أقاليم إلى إمبراطوريته خلال هذه الجولة، مثل: ميدية، وبارت، وآريانة «أفغانستان الغربية»، وزرنكا، والرخج «أفغانستان الوسطى والجنوبية»، وباختريا «شمال أفغانستان ووسطها»، وسيثيا.

تمكن الإسكندر من بسوس بعد أن خانه حاكم صغديا، المدعو «سينتامنش»، وسلّمه إل يبطليموس فى سنة 329 ق. م، فحمله الأخير إلى الإسكندر، الذى أمر بإعدامه فوراً، فجُدع أنفه وقُطعت أذناه، وتنص بعض المصادر أنه صُلب فى ذات الموقع حيث قتل داريوش، وتنص أخرى أنه عُذب وقُطع رأسه فى همدان، ويقول بلوتارخ إن جسده قُطّع إرباً فى باختريا. خلال فترة قصيرة من هذه الحادثة، أعلن سينتامنش العصيان على الإسكندر وشجع أبناء صغديا على الثورة، مستغلاً غياب الجيش المقدونى ليرد غارة قام بها البدو السيثيون على ضفاف نهر سيحون. تمكن الإسكندر من إلحاق الهزيمة بالسيثيين، ثم حوّل أنظاره ناحية صغديا، فالتقى بجيش سينتامنش وهزمه هزيمة منكرة وأجبره

على الفرار، ثم ما لبث جنوده أن قتلوه بأيديهم، وأرسلوا إلى الإسكندر يطلبون الصفح والسلام ويعلنون ولاءهم له.

الإسكندر يرمى كليتوس برمح ويرديه قتيلاً أثناء الشجار الذى وقع بينهما فى سمرقند

بعد وفاة داريوش، والقضاء على كل المنافسين على عرش فارس، اتخذ الإسكندر لنفسه لقب «شاهنشاه»، بمعنى «ملك الملوك»، واقتبس الكثير من العادات والتقاليد الفارسية، سواء تلك المتعلقة بالملبس أو المأكل أو التشريفات، وأمر بتطبيقها فى بلاطه، ولعلّ أبرزها كان تقبيل يديّ من هو أعلى مقاماً والسجود له، وهى عادة كان الفرس يتبعونها مع الشاه خاصةً، وبما أنه أصبح حاملاً لهذا اللقب، فقد أمر رجاله باتباعهم هذه العادة معه. اعتبر الإغريق أن هذه التحية لا تجوز إلا للآلهة، وإن الإسكندر عظم نفسه لدرجة العبادة عندما طلب تطبيقها، فرفضها العديدون، ونبذوا قائدهم وقاطعوه، مما اضطره إلى التخلى عنها فى نهاية المطاف.

اكتشف الإسكندر مخططاً لاغتياله وضعه أحد قادته، وهو فيلوطس ابن بارمنيون، فلم يتردد فى إعدامه، وذلك بسبب وصول عدة تقارير عنه فى السابق تتحدث عن عزمه قتل الإسكندر، فكان اكتشاف المخطط الأخير بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير. حوكم فيلوطس من قبل لجنة مؤلفة من كبار الضباط، ثم عُذّب حتى يكشف أسماء المساعدين له، ثم رُجم حتى الموت، وبعض المصادر تنص أنه طُعن بالرماح.

أدّى إعدام فيلوطس إلى ضرورة إعدام والده بارمنيون، الذى وكله

الإسكندر أمر هدامن، كى لا تثور ثائرته ويعمل على الانتقام، فأرسل له من قتله بسرعة. من أبرز الأحداث التى وقعت خلال هذه الفترة، وأرّقت عين الإسكندر، كان قتله الرجل الذى أنقذ حياته خلال معركة نهر كرانيكوس فى آسيا الصغري، ألا وهو كليتوس الأسود، وذلك إبّان شجار وقع بينهما فى سمرقند، عندما كان كلّاً منهما مخموراً، ويُنقل أنه عندما استفاق الإسكندر من سكرته، هاله ما اقترفت يداه وشعر بالندم الشديد.

فى وقت لاحق، وخلال تنقله وفتحه مدناً جديدة فى آسيا الوسطي، اكتشف الإسكندر مخططاً جديداً لاغتياله، وضعه هذه المرة غلمانه، كما تبيّن أن مؤرخه الخاص، المدعو «كاليستنس الأولينثوسي»، له ضلع فى المؤامرة غير أن المؤرخين المعاصرين لم يجمعوا على صحة هذا الأمر بعد. ومن الجدير بالذكر أن كاليستنس هذا كان قد فقد حظوته لدى الإسكندر، عندما أصبح رأس المعارضة الهادفة إلى منع تطبيق عادة تقبيل الأيدى والسجود للملك.

مقدونيا أثناء غياب الإسكندر

كان الإسكندر قد وكل أنتيباتر، وهو أحد قادته الخبيرين ومن السياسيين المحنكين، أمر مقدونيا، قبل أن يُغادر إلى آسيا. واستمرت جميع مدن اليونان هادئة طيلة فترة غياب الإسكندر، ولم تتحرك فيها أية ثورة، خوفاً من أن يُصيبها ما أصاب طيبة من الخراب والدمار. وحدها إسبرطة شكلت استثناءً، فقد دعا ملكها أجيس الثالث، سنة 331 ق.م، دعا رجاله وأبناء مدينته إلى الانتفاض على مقدونيا والتحرر من

استعمارها، فكانت عاقبة ثورته أن هزمه أنتيباتر وقتله خلال معركة فى ميكالوبولى خلال السنة التالية.

أرسل الأخير إلى الإسكندر فى آسيا يُخبره عن ثورة الإسبرطيين وعمّا إذا كان يرغب بإنزال العقاب بهم، فرد الإسكندر بأنه لن يُعاقب أحداً، وإنه يغفر لهم ما فعلوه، كذلك ظهرت بعض الحساسية بين أنتيباتر وأوليمبياس والدة الإسكندر، فكثيراً ما كانا يختلفان بالرأي، وكان كل منهما يُرسل إلى الإسكندر بين الحين والآخر يشتكى من تصرفات الثاني. بالإجمال، يمكن القول إن بلاد الإغريق بما فيها اليونان ومقدونيا تمتعتا بفترة من السلام والازدهار خلال غيبة الإسكندر، خاصةً وأنه كان يُرسل إليها مبالغ طائلة من المال الذى جمعه فى فتوحاته، الأمر الذى حفّز اقتصادها على النمو، وزاد من نسبة النشاط التجارى فى مختلف أنحاء الإمبراطورية.

على الرغم من ذلك، أخذت البلاد تنضب من الرجال، بسبب حاجة الإسكندر الدائمة إلى الجنود، وأمره بإرسال المزيد منهم على الدوام، سواء ليُجنّدهم فى الجيش أو ليوطنهم فى المدائن التى أسسها وهدف إلى جعلها مدناً هلينية نموذجية مختلفة الأعراق. وكان من شأن الهجرة المتزايدة للرجال أن ضعفت المقدرة العسكرية لمقدونيا خلال السنوات التى عقبت وفاة الإسكندر، فوقعت لقمةً سائغة بأيدى الرومان.

كتائب الجيش المقدونى تهاجم مركز الجيش الهندى فى معركة هيداسبس

بعد موت سينتامنش، تزوّج الإسكندر بأميرة باخترية تُدعى رخسانة ليقوّى العلاقات مع حكام أقاليمه الجدد، ثمّ حوّل أنظاره إلى شبه القارة الهندية لفتحها، فأرسل إلى زعماء القبائل فى إقليم «كندهارة» (قندهار)،

الواقع فى شمال باكستان حالياً، يأمرهم بالمثول أمامه والاعتراف بسلطانه على بلادهم. استجاب صاحب مقاطعة «تكسيلا»، المدعو «أومفيس»، والذى كانت مملكته تمتد من نهر السند إلى نهر جهلم، إلى أمر الإسكندر، لكن شيوخ بعض قبائل التلال، المنتمين لعشيرة الكمبوجة تحديداً، رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً. فما كان من الإسكندر إلا أن حمل على تلك القبائل فى شتاء سنة 327 / 326 ق. م، واتجه لقتال كل منها فى عقر دارها: بوادى كنار، ووادى بنجكرا، ووادى سوات وبونير. تميّزت معارك الإسكندر مع هذه القبائل بالضراوة الشديدة، فعندما لقى قبيلة «الأسباسيوا»، لم يهزمهم إلا بعد أن أصيب بنبلة فى كتفه، وعندما اتجه لمواجهة قبيلة «الأساكينوا»، وجد أنهم تحصنوا فى بضعة مواقع، فى مساكا وأورا وأورنوس، فاضطر إلى ضرب الحصار عليهم، وبعد أيام قليلة من القتال العنيف، جُرح خلالها الإسكندر جرحاً بالغاً فى كاحله، تمكن المقدونيون من اقتحام حصن مساكا ودمّروه تدميراً.

يقول المؤرخ الرومانى «كوينتس كورتيوس روفوس»: «لم يكتف الإسكندر بذبح جمهرة مساكا كاملةً، بل أقدم على هدم كل أبنيتها وجعلها غباراً منثوراً». تعرّض المحاربون المتحصنون بأورا لمذبحة شبيهة بتلك التى وقعت لإخوانهم فى مساكا، وعندما وصلت الأخبار إلى من بقى من الأساكينوا، هرب العديد منهم إلى حصن أورنوس، لكن ذلك لم يفيدهم شيئاً، إذ تبعهم الإسكندر وجيشه، وقد عقد العزم على فتح هذا الحصن نظراً لموقعه الاستراتيجى وأهميته فى حماية طرق المواصلات، وبعد أربعة أيام دموية، سقط هذا الموقع فى يده.

معركة هيداسبس

بعد النصر فى أورنـوس، سار الإسكندر بجيشه وعبروا نهر السند ليواجهوا الراجا «بـور»، سيد مملكة بورافـة، الواقعة حالياً فى إقليم النبجاب، فى معركة ملحمية - سميت معركة هيداسبس - أضرجت خلالها الأرض بالدماء، وذلك فى سنة 326 ق. م، كانت تلك المعركة أقسى معارك الإسكندر على الإطلاق، فقد خسر فيها كثيراً من الجنود، وقاومه الراجا الهندى بما أوتى من قوة، ودافع عن بلاده دفاع الأبطال أمام تقدم الفاتح المقدوني، لكن خبرة الإسكندر العسكرية كان لها القول الفصل فى تحديد المنتصر، كما أن قادته وعساكره المخضرمين ما كان لهم أن يُهزموا بسهولة، فتمكنوا من الجيش الهندى وهزموه هزيمة منكرة.

أُعجب الإسكندر بشجاعة وإقدام الراجا بور، وبسالته فى الدفاع عن أرضه، فاتخذه حليفاً، وأبقاه حاكماً على الأراضى التى شكلت مملكته، وأضاف له عليها أقسامًا أخرى لم تكن تابعة له، وبهذا ضمن تحكمه بتلك المنطقة البعيدة أشد البعد عن اليونان، فلو كان قد أقام عليها حاكماً أجنبيّاً، ما كان باستطاعته أن يردها إلى حوزته بسهولة فيما لو قامت فيها ثورة عليه.

أسس الإسكندر مدينتين متقابلتين على ضفتيّ نهر جهلم، سمّى إحداهما «بوسيفلا» تيمناً بجواده الذى نفق قرابة هذا الوقت، والأخرى

«نيقية» أى «النصر»، الوقعة حالياً بالقرب من بلدة «مونغ» فى باكستان.

كانت إمبراطورية الناندا المكادهيّة تقع شرق مملكة الراجا بور، بالقرب من نهر الكنج، كما وقعت إمبراطورية الكنكريداى البنغالية شرق هذه الأخيرة، ولمّا كانت هذه الدول تُشكل تحدياً وهدفاً جديداً مغرياً للإسكندر، وبسبب خوف جنوده من مجابهة الجيوش الجرّارة لتلك الامبراطوريات، خاصة بعد أن أرهقتهم سنوات الحرب والترحال الطويلة، أعلنوا العصيان بالقرب من نهر بياس فى شمال الهند، ورفضوا التقدم شرقاً. وبهذا أصبح هذا النهر يُشكل أقصى امتداد شرقى بلغته فتوحات الإسكندر.

يقول بلوتارخ فى كتاباته:

«أما بالنسبة للمقدونيين، فقد أضعفتهم المواجهة مع بور، فقللت من شجاعتهم، وخففت من عزيمتهم ورغبتهم فى التقدم شرقاً داخل الهند. وبعد أن بذلوا النفس والنفيس فى ردّ عدو حشد لهم عشرين ألفاً من المشاة وألفى فارس، عارضوا الإسكندر ووقفوا بوجهه بعناد عندما قرر اجتياز نهر الكنج، الذى زُعم أن عرضه يصل إلى اثنين وثلاثين فرلنغ، وعمقه إلى مائة قامة، وبعد أن علموا ما ينتظرهم على الضفة المقابلة من جحافل رجال مدججين بالسلاح، ومعهم خيول وفيلة، فقد قيل لهم إن ملوك الهنود قد جمعوا ثمانين ألفاً من الفرسان، ومائتى ألف من المشاة، وثمانية آلاف عربة، وستة آلاف فيل، تمهيداً لذبحهم أجمعين.

حاول الإسكندر إقناع جنوده بالتقدم شرقاً لفترة قصيرة بعد، لكنه

لم يُفلح، وتدخل أحد قادته، وهو كوينوس، وتوسل له أن يعدل عن رأيه ويعود أدراجه، قائلاً: «لقد تاق الرجال لرؤية آبائهم وأمهاتهم، وزوجاتهم وأولادهم، وأرضهم وأوطانهم».

فاقتنع الإسكندر بكلامه، وبلّغ جنوده أن يستعدوا للعودة إلى بلدهم. سار الجيش على طول نهر السند، وفى طريقهم فتحوا أراضى قبيلة المُل، الواقعة فى مدينة مُلتان حالياً، وغيرها من أراضى بعض القبائل الهندية الأخري.

أرسل الإسكندر القسم الأعظم من جيشه إلى إقليم كرمان جنوب فارس بقيادة صديقه كراتيرس، وكلّف نيارخوس قيادة أسطول لاستكشاف ومسح شواطئ الخليج العربي، وتابع هو مسيرته مع ما بقى من الجنود إلى بابل، فاختار أقصر الطرق على الرغم من أنها أصعبها، وهى صحراء ميديا الممتدة عبر بلوشستان ومكران، بجنوب باكستان وإيران حالياً، وصل الإسكندر إلى مدينة سوسة سنة 324 ق. م، وكان قد خسر كثيراً من الرجال بفعل قيظ الصحراء.

سنواته الأخيرة فى فارس

اكتشف الإسكندر بعد وصوله إلى سوسة أن العديد من حكام الأقاليم الذين عينهم أساءوا التصرّف فى غيابه، فأقدم على إعدام أغلبهم ليكونوا عبرة لغيرهم. كما قام بدفع الرواتب المستحقة لجنوده، كبادرة شكر وامتنان لهم على ما قدموه من التضحيات، وأعلن أنه سيرسل قدامى المحاربين وأولئك الذين أصيبوا بإعاقة جسدية إلى مقدونيا بقيادة

كراتيرس. غير أن الجنود أساؤوا فهم نية قائدهم، فأعلنوا العصيان فى بلدة أوبيس، ورفضوا أن يعودوا إلى وطنهم الأم اعتقاداً منهم أن الإسكندر ينوى استبدالهم بعساكر فارسية، أو دمج الوحدات الفارسية بالوحدات المقدونية.

وبعد ثلاثة أيام لم يتمكن الإسكندر خلالها من إقناع رجاله بالعدول عن قرارهم، أقدم على تعيين عدّة ضباط فرس فى جيشه، ومنح ألقاباً عسكريةً مقدونيةً لعدد من الوحدات الفارسية، فارتمى المقدونيون عند أقدامه يرجونه أن يعدل عن قراره ويطلبون منه السماح.

غفر الإسكندر لجميع جنوده الذين تمردوا عليه، وأقام لهم مأدبة طعام فاخرة شارك فيها الآلاف. وفى محاولة منه ليرأب الصدع بين المقدونيين والفرس، ويوحد صفوفهم وقلوبهم، أمر ضبّاطه الكبار أن يتزوجوا بأميرات فارسيات، وأقام لهم حفل زفاف جماعيّاً فى سوسة، لكنه يظهر أن قلّة من تلك الزيجات دامت أكثر من سنة. غادر الإسكندر سوسة بعد أن رتّب أمورها واتجه إلى همدان، وما أن وصل تبين له أن الحراس الذين كلفهم بحماية قبر الشاه قورش الكبير قاموا بتدنيسه، فأعدمهم بسرعة.

بعد وصول الإسكندر إلى همدان، أصيب هفستيون، وهو أقرب أصدقائه إليه ويُحتمل انه كان عشيقه أيضاً، أصيب بمرض عضال لم يُمهله طويلاً حتى فارق الحياة، ويُقال إن أحدهم دس إليه السم. كان لوفاة هفستيون أثر مدمر على الإسكندر، فقد حزن عليه حزناً شديداً،

وأمر بتحضير محرقة جثث كبيرة فى بابل حتى يُحرق جثمانه فيها، وأصدر مرسوماً بالحداد العام. بعد وصوله إلى بابل، شرع الإسكندر يُخطط لسلسلة حملات جديدة فى مستهلها فتح شبه الجزيرة العربية، لكن لم يُكتب له أن يشرع بأى منها، إذ توفى بعد فترة قصيرة جدّاً.

وفاته وخلافته

الإسكندر على فراش الموت، وقد أحاطت به زوجاته وجنوده ورفاق دربه.

توفى الإسكندر فى قصر نبوخذنصَّر ببابل، فى العاشر أو الحادى عشر من يونيو سنة 323 ق. م، وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة. وقد اختلف المؤرخون اختلافاً قليلاً فى تحديد أسباب الوفاة، فقد قال بلوتارخ إنه قبل وفاة الإسكندر بحوالى 14 يوماً، كان قد استقبل نيارخوس وأمضيا الليل بطوله يتسامران ويشربان الخمر بصحبة ميديوس اللاريسي، حتى مطلع الفجر.

بعد ذلك أصيب بحمّى قوية، استمرت بالتفاقم حتى أضحى عاجزاً عن الكلام، وخشى عليه جنوده وأصابهم القلق، فمُنحوا الإذن بأن يصطفوا بالطابور أمامه ليسلموا عليه، وقد ردّ عليهم السلام بالإشارة.

يقول ديودورس إن الإسكندر أصيب بألم شديد بعد أن احتسى طاس خمر صاف على شرف هرقل، ثم مات بعد أن عذبه الألم عذاباً قويّاً. ذكر مؤرخون آخرون هذه الحادثة كتفسير بديل محتمل لوفاة الإسكندر، أما بلوتارخ فقد نفاها تماماً.

من الأسباب الأخرى المحتملة لوفاة الإسكندر، هى اغتياله من قبل

الأرستقراطيين المقدونيين، وقد ذكر هذه النظرية كل من ديودورس وبلوتارخ وآريان وجستن، فقالوا إن الإسكندر سُمم على يد بعض المقربين منه، غير أن بلوتارخ رفضها وأفاد بأنها رواية ملفقة لا أساس لها من الصحة، فيما قال ديودورس وآريان إنهما ذكراها لتتمة الفائدة فحسب.

تشير الأدلة المتوافرة إلى أن التسميم لو كان هو السبب وراء موت الإسكندر، فإن المشتبه به الرئيسى هو أنتيباتر، الذى ائتمنه الإسكندر على مقدونيا أثناء غيابه، ثم عاد وعزله واستدعاه إلى بابل، ولعلّ أنتيباتر اعتبر استدعاءه بمثابة حكم بالإعدام.

وخاف أن يلقى نفس مصير بارمنيون وفيلوطس، فأوعز إلى ابنه «إيولاس»، الذى كان يعمل ساقياً للإسكندر، أن يدس له السم فى النبيذ أو الماء.

كما اقترح بعض الباحثين تورّط أرسطو نفسه فى هذه القضية. ردّ بعض الباحثين على القائلين بنظرية التسمم هذه بأن فترة اثنى عشر يوماً مرت بين إصابة الإسكندر بالمرض ووفاته، وهى فترة تُعد طويلة جدّاً حتى يأخذ أى سم من الأنواع التى كانت معروفة حينها تأثيره الكامل، فالسموم بطيئة المفعول كانت على الأرجح غير معروفة بعد.

أفادت إحدى النظريات الحديثة التى برزت إلى حيّز الوجود سنة 2010، أن أعراض مرض الإسكندر المذكورة فى الوثائق القديمة تتلاءم مع أعراض التسمم بالماء الأسود لنهر ستيكس التى تحوى مركب «الكاليكميسين» فائق الخطورة، الذى تسببه إحدى أنواع البكتيريا القاتلة.

اقترح البعض أن يكون سبب الوفاة راجع إلى إحدى الأمراض الطبيعية المزمنة التى يُحتمل إصابة الإسكندر بها أثناء أسفاره، ومن الأمراض التى رُشحت أن تكون وراء وفاة الإسكندر المبكرة: الملاريا والحمى التيفية. أفادت إحدى مقالات النشرة الطبية لإنكلترا الجديد عام 1998، أن موت الإسكندر جاء نتيجة إصابته بالحمى التيفية التى سببت له عدة مضاعفات توجت بانثقاب المعدة والأمعاء ومن ثم الشلل التصاعدي.

كما رجح بحث حديث آخر أن يكون التهاب السحايا هو القاتل. من الأمراض الأخرى التى تتلاءم أعراضها مع تلك التى ظهرت على الإسكندر: التهاب البنكرياس الحادث وفيروس النيل الغربي.

تميل نظريات الوفاة لأسباب طبيعية إلى أن تشدد على أن صحة الإسكندر كانت فى تراجع تدريجى على الأرجح، منذ أن غادر مقدونيا وانطلق فى حملاته إلى أقاصى العالم المعروف، فتعرض لأدواء مختلفة فى مناخات متناقضة، واستنشق نصيبه منها فى ساحات المعارك من الجثث المتناثرة، وأصيب ببعضها عن طريق الجروح البالغة، وأخيراً كان لشربه الخمر بكثرة أثراً عظيماً فى إضعاف جسده عبر السنوات. كذلك، لعلّ الكرب والغم الذى شعر به الإسكندر بعد وفاة هفستيون قد لعب دوراً كبيراً فى تراجع صحته.

من أبرز الأسباب أيضاً تعاطى الإسكندر جرعات زائدة من الأدوية المصنوعة من نبات الخريق، وهو قاتل بحال استهلكت منه كميات كبيرة.

بعد وفاته

وُضع جثمان الإسكندر فى تابوت ذهبى صُنع على هيئة بشرية، ووضع هذا بدوره فى ناووس من الذهب.

تفيد بعض النصوص أن عرّافاً يُدعى «أريستاندر» تنبأ بأن البلد التى سيدفن فيه الإسكندر «سيعرف السعادة طيلة أيامه ولن يقوى أحد على غزوها وقهرها».

يُحتمل أن يكون كل خليفة من خلفاء الإسكندر قد اعتبر الاستحواذ على جثمان ملكهم الراحل عملاً يُضفى الشرعية على خلافته الخاصة، لاسيما وأن دفن الملك الحالى للملك السابق كان يُعد إثباتاً قاطعاً لحقه فى العرش.

وأثناء سير موكب جنازة الإسكندر من بابل إلى مقدونيا، تعرّض لهم بطليموس وقطع عليهم الطريق، وحوّل المسير إلى منف عاصمة مصر حيث حُنّط الجثمان وورى الثري، ثم قام خليفته بطليموس الثانى بنقل التابوت إلى الإسكندرية حيث بقى حتى ما قبل بداية العصور الوسطى بقليل.

وأقدم بطليموس التاسع، وهو من أواخر خلفاء بطليموس الأول، أقدم على نقل مومياء الإسكندر من التابوت الذهبى إلى تابوت آخر مصنوع من الزجاج، وذلك حتى يتسنى له تذويب الأول وسكّ العملات من سائله.

وقام كل من القادة الرومان بومبى ويوليوس قيصر وأغسطس قيصر بزيارة ضريح الإسكندر، ويُقال إن الأخير اقتلع الأنف عن طريق الخطأ، كما ورد بأن يوليوس قيصر بكى عندما بلغ عامه الثالث والثلاثين، قائلاً

إنه على الرغم من كل إنجازاته لم يبلغ ما بلغه الإسكندر من المجد فى هذه السن، كذلك قيل إن الإمبراطور الرومانى كاليكولا اقتلع الصفيحة الصدرية من المومياء واحتفظ بها لنفسه. أقدم الامبراطور سبتيموس سيفيروس على إغلاق ضريح الإسكندر أمام العامّة فى سنة 200 م، وقام ابنه كاراكلا، وهو من أشد المعجبين بالإسكندر، بزيارة قبره خلال فترة حكمه. أما بعد مضى هذا العهد، أخذت الدلائل والنصوص التى تتحدث عن الضريح تقل شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت لغاية الندرة، حتى أصبح موقعه ومصيره من ضمن الأمور التاريخية التى يكتنفها الضباب حالياً.

عام 1887، اكتشف العالم والباحث العثماني، عثمان حمدى بك، تابوتاً بالقرب من مدينة صيدا بلبنان تظهر عليه نقوش للإسكندر وهو يُقاتل الفرس فى بعضها ويصطاد حيوانات فى بعضها الآخر، فأطلق على التابوت «تابوت الإسكندر»، وقد جعلت هذه التسمية كثيراً من الناس يُخطئون ويعتقدون أنه كان يحوى رفات القائد المقدوني. كان يُعتقد أساساً أن هذا التابوت حوى رفات «عبدلونيموس» ملك صيدون الذى عينه الإسكندر عقب معركة إسوس، غير أن بعض الأدلة الحديثة تشير إلى أن هذا التابوت يرجع لفترة زمنية سابقة على عام 311 ق. م، أى السنة التى شهدت وفاة عبدلونيموس.

كانت وفاة الإسكندر مفاجئة لدرجة أنه حينما وصلت الرسائل إلى اليونان حاملة النبأ، لم يُصدقها الكثير من الناس وزعموا أنها إشاعة لا أساس لها من الصحة. لم يكن الإسكندر عند وفاته قد خلّف بعد وريثاً يجلس على عرش الإمبراطورية، بل إن ابنه من رخسانة، الإسكندر

الرابع، وُلد بعد موته بشهور.

يقول ديودورس إن أصحاب الإسكندر سألوه على فراش موته إلى أي الرجال تترك هذه الإمبراطورية الواسعة، فأجابهم بإيجاز «إلى الأقوي». يعتبر كل من أريان وبلوتارخ أن هذه القصة ملفقة، إذ أن الإسكندر كان قد فقد كل مقدرة على النطق فى هذه المرحلة. قدّم مؤرخون آخرون قصة أكثر جدارةً بالتصديق ولو ظاهريّاً، فقالوا إن الإسكندر أعطى خاتمه إلى بيرديكاس، وهو أحد حرّاسه الشخصيين وقائد خيّالته، بحضور شاهد، وبذلك يكون قد رشحه لخلافته.

تقسيم إمبراطورية الإسكندر

إمبراطورية الإسكندر بعد تقسيمها إلى أربع ممالك بين خلفاؤه، قرابة سنة 281 ق.م.

اقترح بيرديكاس أن يتولى ابن الإسكندر شؤون الحكم عند بلوغه سن الرُشد، وذلك إن كان ذكراً بطبيعة الحال، وأن يلعب هو وكراتيرس، وليونّاتوس، وأنتيباتر، دور الأوصياء عليه حتى ذلك الحين. غير أن الجنود المشاة، بقيادة أحد الضباط، المدعو «ميلياكروس»، رفضوا هذا الترتيب بحجة أنهم لم يُستشاروا فى الأمر من الأساس، ورشحوا فيليب آرهيداي‍وس، الأخ اللاشقيق للإسكندر، ليتربع على عرش الإمبراطورية. فى نهاية المطاف توصل الفريقان إلى تسوية مرضية لكل منهما بعد ولادة الإسكندر الرابع، فجعلوه وفيليب ملكان يشتركان بالحكم، ولو اسميّاً فقط.

سرعان ما دبّ الخلاف بين المقدونيين بعد فترة قصيرة من ذلك،

وحدث انشقاق ومنافسة بين كبار الضبّاط، الذين تسرّب الطمع إلى قلوبهم ورغب كل منهم بالحكم. فقام بيرديكاس بتقسيم أراضى الإمبراطورية ووزعها عليهم حقناً للدماء، فأصبح كل إقليم من تلك الأقاليم بمثابة قاعدة استخدمها كل قائد ليتوسع وينطلق باتجاه أراضى خصمه.

بعد اغتيال بيرديكاس سنة 321 ق. م، انهارت الوحدة المقدونية بالكامل، فتحارب إخوة الأمس فيما بينهم طيلة 40 سنة، ولم تنته الحرب إلا بعد تقسيم العالم الهيلينى الذى أسسه الإسكندر إلى أربعة أقسام: المملكة البطلمية فى مصر وجوارها، والإمبراطورية السلوقية فى الشرق، ومملكة بركامون فى آسيا الصغري، ومملكة مقدونيا. كما تمّ اغتيال كل من الإسكندر الرابع وفيليب آرهيدايوس.

وصيته

يقول ديودورس إن الإسكندر كان قد أعطى كراتيرس تعليمات مفصلة مكتوبة وصى فيها ببعض الأمور، قبل وفاته شرع كراتيرس بتنفيذ وصية الإسكندر بكل نشاط، غير أن خلفاء الأخير أوقفوه عند حده واختاروا ألا يُنفذوا أكثر مما نفذ حتى ذلك الحين، معتبرين أن ما بقى من المطالب لهو غير عملى ومتهور وينطوى على الكثير من الإسراف. لكن على الرغم من ذلك، قام كراتيرس بقراءة وصية الإسكندر على الجنود، ليكتشفوا أنه يدعوهم إلى التوسع فى إقليم جنوب وغرب حوض البحر المتوسط، وبناء نصب تذكارية عظيمة، والاختلاط مع شعوب الشرق، ومما جاء تفصيلاً:

بناء ضريح تذكارى لوالده وملكهم السابق فيليب الثاني، «يُضاهى عظمة أهرام مصر». تشييد هياكل كبيرة فى كل من: جزيرة دلوس،

ومدائن دلفي، ودودونا، وديون، وآمفيبوليس، وبناء هيكل مكرّس للإلهة آثينا في طروادة.

- فتح شبه الجزيرة العربية وكامل حوض البحر المتوسط.
- الملاحة حول أفريقيا وتخطيط سواحلها.
- بناء مدن جديدة، و«نقل جمهرات من آسيا إلى أوروبا والعكس، في سبيل توحيد القارتين، والتأليف بين قلوب الشعوب عبر التزاوج من بعضهم وإنشائهم لروابط عائلية».

***

أشهر معارك الإسكندر العسكرية

مخطط معركة نهر كرانيكوس

يجمع المؤرخون على أن الإسكندر استحق لقب «الأكبر» أو «الكبير» عن جدارة، بسبب نجاحه العسكرى منقطع النظير، فهو لم يخسر معركة قط، على الرغم من أن أغلب الجيوش التى قاتلها فاقت جيشه عدداً وعدّة. وذلك يعود إلى حسن استغلاله لأراضى الوقعات، ولتدريبه فيالق المشاة والخيالة على استخدام تكتيكات فذّة، ولاستراتيجياته الجسورة المقدامة، وللولاء الأعمى الذى كنّه له جنوده. سلّح الإسكندر فيالقه برماح طويلة تصل إلى 6 أمتار «20 قدماً»، وكانت هذه الفيالق قد تدرّبت على القتال تدريباً صارماً منذ أيام فيليب الثاني، حتى بلغت أعلى درجات كمال الجيوش فى عصرها، فكان تحركها سريعاً وقدرتها على المناورة فى أرض المعركة كبيرة، وقد استغل الإسكندر هذه الأمور ليتفوق على القوات الفارسية الأكبر عدداً والأكثر تبايناً من كتائبه المتجانسة. أدرك الإسكندر أيضاً إمكانية وقوع شقاق فى جيشه بسبب تنوعه العِرقى واللغوى واختلاف أسلحته، فذلل هذه المشكلة عبر انخراطه شخصيّاً فى المعارك، بصفته ملك مقدوني.

عندما خاض الإسكندر أولى معاركه فى آسيا، أى معركة نهر كرانيكوس،

استخدم قسماً صغيراً من جيشه، تألّف من 13000 من المشاة، و5000 فارس، على الأرجح، فيما بلغ عديد قوات الفرس 40000 جندي.

جعل الإسكندر فيلق الرماحين يتمركز فى الوسط، ووضع الرماة والفرسان على الجناحين، بحيث أصبح طول خط جيشه يتساوى مع خط الخيالة الفرس، بطول 3 كيلومترات «1.86 ميلاً» تقريباً. أما الفرس فجعلوا مشاتهم يتمركزون خلف الخيالة، مما ضمن للإسكندر عدم إمكانيتهم الالتفاف حوله، وكان لفيالقه الأفضلية على فيالقهم، بسبب تسلحهم بالرماح الطويلة، التى جعلتهم ينالون من عدة جنود الفرس قبل أن يقتربوا منهم، فيما كان أولئك الأخيرين يحتاجون إلى الاقتراب من المقدونيين حتى يتمكنوا من طعنهم بسيوفهم ورماحهم القصيرة. كانت خسائر المقدونيين فى هذه المعركة تافهة إذا ما قورنت بخسائر الفرس، وكل ذلك بفضل عبقرية الإسكندر العسكرية.

لجأ الإسكندر إلى نفس أسلوب نشر الجند عندما خاض أول معركة مع داريـوش الثالث سنة 333 ق. م، أى معركة إسـوس، فوضع فيلق الرمّاحين فى الوسط، وقد تمكنوا من خرق صفوف الفرس مرة أخري.

تولى الإسكندر بنفسه قيادة الهجوم فى الوسط، وتوجيه جيش العدو لصالحه. وفى الموقعة الحاسمة مع الفرس فى كوكميلا، قام داريوش بتجهيز عرباته بمناجل على عجلاتها حتى يتمكن من خرق صفوف الرماحين، وزود مشاته برماح طويلة شبيهة برماح المقدونيين، غير أن الإسكندر تيقن لخطته، فجعل رماحيه يصطفون بصفوف مزدوجة

يتقدم وسطها إلى الأمام على شكل زاوية، وتتفرق عندما تتجه المريات نحوها، ثم تعود لتصطف مجدداً عند نهاية الهجوم وتتابع تقدمها. كان هذا التكتيك ناجحاً للغاية، فخرق وسط الجيش الفارسي، وأرغم الشاه وجنوده على الانسحاب.

كان الإسكندر عندما يواجه جيوشاً تستخدم أساليب قتال لم يعهدها قبلاً، كما فى حالة جيوش آسيا الوسطى والهند، كان يجعل قواته تتبنى أسلوب قتال الخصم، ومثال ذلك ما فعله فى باختريا وصغديا، فقد استخدم رماته من نشابين وحملة رماح خفيفة ليحولوا دون التفاف الأعداء من حولهم، فيما حشد خيالته فى المركز.

وعندما واجه فيالق الفيلة فى الهند أثناء معركته مع الراجا بور، جعل جنوده يفتحون ثغرات فى صفوفهم حتى تدخلها الفيلة، ومن ثم إغلاقها عليها وطعن الفيّالين برماحهم الطويلة وإسقاطهم من على ظهر دوابهم.

هيئته الخارجية

وصف المؤرخ الإغريقى بلوتارخ «قرابة 45 - 120 ميلادية» الهيئة الخارجية للإسكندر على الشكل التالي:

1- أفضل من أخرج هيئة الإسكندر كان ليسيبوس فى تماثيله، وكان هذا النحات الوحيد الذى ائتمنه الإسكندر على صنع تماثيل تجسده، وذلك يعود إلى دقة عمله.

2- أما عن تلك المواصفات التفصيلية التى حاول كثير من خلفائه وأصحابه من بعده أن يقلدوها، وبالتحديد: شكل عنقه، الذى كان يميل

قليلاً ناحية اليسار، وبريق عينيه، فقد أتقنها هذا الفنان أشدّ الإتقان.

3- وبالنسبة لأبيليس، الذى رسمه وهو يحمل صاعقة زيوس، فإنه أخطأ فى لون بشرته، فجعلها شديدة القتامة، فيما يقولون إنه كان أبيض البشرة، وأن بياضه تحوّل تدريجيّاً إلى احمرار على صدره، ووجهه.

4- أضف إلى ذلك، كانت تفوح من جسده وفمه رائحة زكية، حتى أن كسوته كانت تعبق بها، وهذا ما قرأناه فى ذكريات أرسطوكسنوس.

وصف المؤرخ آريان «لوسيوس فلافيوس آريانوس «زينفون»، ما بين عاميّ 86 و160 ميلادية» الإسكندر بقوله:

«ذاك القائد القوي، الوسيم والمتين، ذو العينان البراقتان، إحداهما سوداء كالليل والأخرى زرقاء كسماء النهار».

تقترح مجموعة أساطير «رومانسية الإسكندر» أن الأخير كان يُعانى من تغاير القزحية، وهى تلك الحالة التى يولد فيها المرء بلون مختلف لكل عين من عينيه، وفى حالة الإسكندر، كانت إحدى عينيه سوداء قاتمة والأخرى زرقاء.

أورد المؤرخ البريطانى بيتر كرين وصفاً لهيئة الإسكندر الخارجية بالاستناد إلى المنحوتات التى تمثله وما قيل عنه فى المخطوطات القديمة، فقال:

«لم يكن الإسكندر بالرجل الجذّاب من ناحية المظهر. فقد كان بالغ القِصر حتى بالنسبة للمعيار المقدوني، وممتلئ الجسم مكتنز. كان ذو لحية غثة، وجعل نفسه مميزاً عن قادته عبر حلاقتها كاملةً. كان عنقه

ملويّاً بعض الشيء، لدرجة أنه كان يبدو وكأنه ينظر نحو الأعلى قليلاً. كشفت عيناه «إحداهما زرقاء، والأخرى بنية» عن خصال ندية أنثوية. كما تميز بمزاجه الحاد وصوته الأجش.

يفيد المؤرخون والكتاب القدماء أن الإسكندر أعجب إعجاباً شديداً بالمنحوتات والرسومات التى وضعها له ليسيبوس، لدرجة دفعته أن يمنع باقى النحاتين والرسامين من تصويره، معتبراً أن لا عمل أكمل من عمل ليسيبوس.

كان الأخير غالباً ما يستخدم وضعية التعارض عند تصويره الإسكندر وغيره من الشخصيات، من شاكلة: المقشط، وهرمس، وإيروبس. من الأسباب التى جعلت منحوتات هذا الرجل توصف على أنها الأكثر دقة، عدم ظهورها بالمظهر الصلب الجامد الخالى من الحياة.

كان لأبويّ الإسكندر أثر كبير فى تكوين شخصيته وخصاله. فكانت والدته واسعة الطموح، ودفعته إلى أن يُصدق بأن قدره غزو الإمبراطورية الفارسية، بل غرست فيه هذا الشعور. يقول بلوتارخ إن هذا الطموح هو ما أبقى قلب الإسكندر وروحه شامخة وجادّة لا تعرف اليأس ولا الكلل طيلة تلك السنوات من الحملات والفتوحات. أما والده، فكان مثله الأعلى الذى يقتدى به فى كل خطوة، إذ شبّ على رؤيته يفتح القلاع الحصينة والبلاد المنيعة سنة تلو الأخري، ويُحقق النصر تلو الآخر، متجاهلاً ما أصيب به من جروح خطيرة. صقلت علاقة الإسكندر بأبيه الجانب التنافسى فى شخصه، فكان يشعر بحاجة ملحة لأن يتفوق

عليه وأن يُغطى على إنجازاته، ولعلّ هذا ما يُفسر الكثير من تصرفاته المتهورة على أرض المعركة. كان الإسكندر قلقاً من أن أباه «لن يترك له إنجازاً مهمّاً أو عظيماً يستعرضه أمام العالم»، لكنه على الرغم من ذلك قلل من أهمية إنجازات الأخير أمام أصحابه.

يفيد بلوتارخ أن من أبرز خصال الإسكندر: طبعه الحاد وتهوره واندفاعه، وهى خصال كانت تلعب دوراً فى اتخاذه لقراراته دون شك. يُعرف عن الإسكندر عناده الشديد وتصلبه فى الرأي، لكنه على الرغم من ذلك كان متقبلاً لأى نقاش ومستمع لصاحبه طالما كان منطقيّاً. وكان للإسكندر جانب آخر أكثر تعقلاً، فتميّز بتبصره، ومنطقيته، ويقظته، ومال نحو العلم ميلاً كبيراً، وأحبّ الفلسفة، وكان ينكب على قراءة الكتب بنهم، ويتعلم ما جاء فيها من الحكمة ويحفظه بسرعة. ويرجع الفضل فى هذا إلى أرسطو، المعلّم الكبير، وقد ساهم ذكاء الإسكندر والجانب المتهور من شخصيته إلى حد بعيد بنجاحه كقائد عسكري. كان الإسكندر يتمتع بقدرة كبيرة على ضبط نفسه ومنعها من الانغماس فى «ملذات الجسد»، وعلى العكس من ذلك، لم يكن بقادر على أن يضبط نفسه حينما يتعلق الأمر بالخمور، فظل يُعاقرها دون ضابط.

كان الإسكندر واسع المعرفة، أحب العلوم والفنون على حد سواء وقام برعايتها. غير أن اهتمامه بالرياضة والألعاب الأولمبية كان ضئيلاً، على العكس من والده، فكان يسعى دوماً وراء المُثل الهومرية العليا، ألا وهو الشرف والمجد. تمتع القائد المقدونى بجاذبية وقدرة خارقة على

الإقناع، وقوة شخصية كبيرة، أى باللبنات التى من شأنها أن تجعل من أى شخص قائداً عظيماً، وأبرز ما يُظهر ويُثبت تمتعه بتلك الميزات الفريدة أنه تمكن من توحيد مقدونيا وكامل بلاد اليونان والفرس فى إمبراطورية واحدة، وأبقاها متماسكة رغم جمعها متناقضات كبيرة، وبعد وفاته لم يتمكن أحد من قادته من الحفاظ على تلك الوحدة، فتفرقت البلاد وتقسمت إلى بضعة دول مختلفة.

أصيب الإسكندر بحالة من الزور وجنون العظمة فى آخر سنوات عمره، وبالأخص بعد وفاة صديقه المقرب هفستيون، ويُحتمل أن سبب ذلك كان ما حققه من إجازات عظيمة خلال فترة قصيرة نسبيّاً، وشعوره اللاوصفى بأنه يسعى وراء قدره، وإطراء رفاقه وإعجاب الناس حوله به. يمكن ملاحظة الحالة التى وصلها الإسكندر وما عاناه من أوهام فى ما جاء بوصيته، التى يقول البعض إنها تنم عن رغبة فى غزو العالم. يظهر بأن الإسكندر آمن بأنه إلهٌ، أو سعى على الأقل كى يُؤلّه نفسه، وسبب ذلك أن والدته دائماً ما كانت، بحسب بعض المصادر، تصرّ على أنه ابن زيوس، ويظهر بأن هذه القصة أكدها له الكهنة المصريون فى معبد آمون بواحة سيوة، فأخذ يدعو نفسه «ابن زيوس - آمون»، منذ ذاك الوقت، وبعد أن اقتبس من الفرس عدّة عادات، أصرّ على أن يقوم رجاله وقادة جيشه بالسجود له وتقبيل يده، كما كان الفرس يفعلون مع ملكهم المؤلّه، غير أن المقدونيين رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً، وقاطعوا قائدهم إلى أن قرر الرجوع عن تلك العادة. كان الإسكندر على الرغم من

ذلك ملكاً واقعاً، فهم الصعوبات التى يولدها حكم إمبراطورية تقطنها شعوب مختلفة الثقافات، بعضها عاش طيلة حياته فى مملكة اعتُبر فيها الملك إلهاً يُعبد.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إنه يُحتمل ألا يكون قد أصيب بجنون العظمة، بل إن تصرفاته تلك كانت عبارة عن محاولة عملية لتوطيد دعائم حكمه، وإبقاء أراضى إمبراطوريته متماسكة موحدة.

علاقاته الشخصية وأقرانه وزواج الإسكندر برخسانة الباخترية

ارتبط الإسكندر بعلاقة وثيقة مع صديق عمره وخليله، المدعو هفستيون، وهو ابن أحد النبلاء المقدونيين وحارس شخصى وقائد فى جيش الإسكندر. وبلغ من شدّة تقرّب الاثنين أن لعبت وفاة هفستيون دوراً فى جعل صحة الإسكندر تتراجع بوتيرة أكبر، وباختلال توازنه العقلى على الأرجح، خلال الشهور الأخيرة من حياته.

تنص المصادر التاريخية أن الإسكندر تزوّج بثلاث نساء: رخسانة ابنة وخش آراد، أحد نبلاء باختريا، بعد أن رآها ووقع فى حبها، وستاتيرا الثانية، ابنة الشاه داريوش الثالث، لدوافع سياسية محضة، وبروشات الثانية، صغرى بنات الشاه أردشير الثالث، التى تزوجها فى سوسة إلى جانب عدد من ضباطه الذين جعلهم يقترنون بأميرات فارسيات. يظهر بأن الإسكندر أنجب ابنين فقط: الإسكندر الرابع من رخسانة، وهرقل المقدونى من أمته «برسين»، وتوفى له طفل مرة واحدة، عندما أجهضت رخسانة فى بابل.

كانت ميول الإسكندر الجنسية موضع جدال وشك طيلة سنين. فلا يوجد أى نص قديم يفيد بأنه كان مثليّاً، أو دخل فى علاقة من هذا النوع، أو أن علاقته مع هفستيون كانت علاقة جنسية. لكن على الرغم من ذلك، يذكر المؤرخ الإغريقى «أليانوس تكتيكوس» قصة جاء فيها أنه عندما زار الإسكندر طروادة، اتجه إلى قبر آخيل وكلله بالزهور، فيما اتجه هفستيون إلى قبر فطرقل وكلله كذلك، مما قد يعنى أنه كان عشيق الإسكندر، كما كان فطرقل عشيق آخيل، فلم عسى كل منهما يزور قبل نظيره دون الآخر إن لم يكن الأمر كذلك. كما يشير أليانوس إلى عبارة «إيرومينوس»، والتى تعنى «المحبوب» باليونانية القديمة، ويقول إنها لا تحمل بالضرورة معنى جنسيّاً فى طياتها، فقد يُقصد بها أن هفستيون كان أقرب الأصحاب والرجال إليه. فى جميع الأحوال، فإن مثلية الإسكندر إن كانت صحيحة، لم تكن بالأمر المحرّم أو غير الطبيعى فى أيامه، بل كانت أمراً شائعاً.

يقول بيتر كرين إن النصوص والوثائق القديمة لا تشير إلى أن الإسكندر كان يهتم كثيراً بالنساء، ولعلّ أبرز ما يؤكد ذلك هو عدم إنجابه لولد إلا فى آخر أيامه. وقد ردّ باحثون آخرون على هذا الافتراض، بأن الإسكندر توفى وهو ما زال صغير السن نسبيّاً، لكنه على الرغم من ذلك كان قد تزوج بنساء أكثر مما تزوج بهن أبوه فى ذات المرحلة العمرية، وأنه عرف نساءً كثيرات غير زوجاته، فكان له حريم كما شاه فارس من قبله، لكنه اعتدل فى معاشرتهنّ، وأظهر ضبط نفس كبير ومنع نفسه من

الانغماس فى «ملذات الجسد»، حتى إنه لم يفرض نفسه على رخسانة فى ليلة زواجهما، على الرغم من أنها فتنته افتتاناً كبيراً.

يُضيف كرين أن الإسكندر كوّن صداقات متينة مع عدد من النسوة، أبرزهن «أدا الكاريّة»، التى تبنته، وحتى «سيسيكامبيس» والدة داريوش الثالث، التى أحبت الإسكندر كولدها، ويُقال إنها اماتت من شدة الحزن عليه.

***

إرث الإسكندر

يمتد إرث الإسكندر ليشمل أموراً كثيرة غير فتوحاته العسكرية، فقد أدّت حملاته إلى زيادة الاتصال والطرق التجارية بين العالم الغربى والعالم الشرقي، وأدخلت الثقافة والحضارة الإغريقية إلى الكثير من نواحى الحياة الشرقية. استحالت الكثير من المدن التى أسسها الإسكندر مراكز ثقافية كبري، وما زال بعضها قائماً حتى الوقت الحالي. قام المؤرخون الإغريق الذين رافقوا الإسكندر فى حملاته بتسجيل معلومات قيّمة عن المناطق التى عبروها، وأخذ اليونانيون يشعرون لأول مرّة أنهم يعيشون فى عالم أكبر من عالمهم المتوسطى الذى عهدوه.

إن أبرز وأهم إرث تركه الإسكندر هو دون شك مدّ النفوذ المقدونى إلى مساحات شاسعة داخل آسيا. وصلت مساحة إمبراطورية الإسكندر عند وفاته إلى 5.200.000 كم^2، لتكون بذلك أكبر دولة شهدها ذلك العصر. استمرت معظم هذه المناطق خاضعة للمقدونيين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، طيلة السنوات المئتين أو الثلاثمائة التالية، وكانت دول خلفاء الإسكندر أو ملوك طوائف الإسكندر أقوى دول العالم، فى بداية عهدها على الأقل، لذلك دأب المؤرخون على تسمية العهد الممتد عبر هذه السنوات بالحقبة الهلنستية.

كانت الأقاليم الواقعة على الحدود الشرقية للإمبراطورية المقدونية قد بدأت تستقل الواحدة تلو الأخرى عندما كان الإسكندر لا يزال حيّاً. وتسبب الفراغ السياسى الذى صنعه الإسكندر فى شمال غرب شبه القارة الهندية فى ظهور إحدى أعظم السلالات الحاكمة الهندية عبر التاريخ، ألا وهى السلالة الماورية التى أسسها الإمبراطور جاندراكويتا ماوريا، ذو الأصول المتواضعة، بعد أن سيطر على البنجاب واتخذها قاعدةً لإطلاق الحملات العسكرية لفتح أراضى إمبراطورية النائدا.

المدائن الجديدة

أسس الإسكندر حوالى 20 مدينة تحمل اسمه فى نواح كثيرة من الأراضى التى فتحها خلال حملاته العسكرية، غير أن أغلبها وقع شرق نهر دجلة. كانت أعظم تلك المدن بلا منازع هى الإسكندر فى مصر، والتى قُدّر لها فيما بعد أن تحتل مكانة مرموقة ومقاماً رفيعاً بين مدن العالم عموماً وحوض البحر المتوسط خصوصاً. وقعت المدن التى أسسها الإسكندر على الطرق التجارية المهمة، فى أماكن حصينة غالباً، وسكنها الإغريق وأبناء البلدان الأصليون، وبعد وفاته حاول الكثير من الإغريق أبناء تلك المدن أن يعود إلى وطنه الأم، لكن قسماً آخر آثر البقاء، وبعد حوالى القرن من موت الإسكندر، كانت مدنه تشهد أبهى عصورها، فقد بُنيت فيها المستشفيات والمراقب والمعابد وغيرها من المصالح، وازداد عدد سكانها ذوى الأصول الإغريقية والبلدية وأضيف إليهم عنصر جديد هو العنصر الخليط بين الاثنين.

هلينة العالم القديم

«الهلينية» هو تعريب لمصطلح ألمانى لاتينى «Hellenismus» صاغه المؤرخ الألمانى يوهان كوستاف دريزن لِيُشير إلى انتشار اللغة، والثقافة، والجمهرة اليونانية، فى أراضى الإمبراطورية الفارسية خلال وبعد فتوحات الإسكندر. وهذا الانتشار مؤكد لا يختلف عليه اثنان، وما زال بالإمكان ملاحظة آثاره فى بعض المدن الهلنستية الكبرى مثل الإسكندرية، وأنطاكية، وسلوقية، سواء فى المنشآت التاريخية أو فى بعض أشكال المآكل ذات الأصل اليوناني، وغيرها. كان الإسكندر شديد الثقة بعظمة الحضارة اليونانية، وكان يطمح إلى أن ينشر لواء هذه الحضارة فى كل أرض وطأتها سنابك خيله، بل كان يحلم بأن يصبغ العالم بأسره بالصبغة اليونانية، وكان فى الوقت نفسه يؤمن بضرورة توحيد الشعوب، من أجل ذلك سعى إلى إدخال بعض عناصر تلك الثقافة إلى الحضارة الفارسية وتهجين كلا الثقافتين. أما خلفاؤه فلم يؤمنوا بذلك، فأهملوا السياسة التى اتبعها قائدهم الراحل، لكن على الرغم من ذلك، استمر هلينة شعوب الشرق طيلة عهدهم، كما أخذ الإغريق الذين استوطنوا البلاد الجديدة يستشرقون شيئاً فشيئاً.

كانت الثقافة الأثينية تُشكل أساس الثقافة الهيلينية الأصلية، وقد لعب تجنيد الإسكندر لرجال من مختلف أنحاء اليونان دوراً فى صهر اللهجات الإغريقية المختلفة فى بوتقة واحدة، وظهور ما يُعرف باسم اللهجة الكوينية. أو الإغريقية العامية الشائعة. انتشرت اللغة اليونانية الكوينية

بسرعة فى العالم الهلنستى حتى أصبحت لغة التواصل المشترك طيلة سنوات طوال، وولدت اللغة اليونانية الحديثة من رحمها. بالإضافة إلى ذلك، كان التخطيط العمراني، ونظم التعليم، وشكل الحكومات المحلية، وأنماط الأعمال الفنية، مبنيةً على مثيلاتها الإغريقية التقليدية، ومع مرور الوقت تطورت إلى أساليب مميزة بذاتها عُرفت باسم الأساليب الهلنستية. استمرت بعض مظاهر الثقافة الهلنستية واضحة للعيان فى تقاليد الإمبراطورية البيزنطية خلال أواسط القرن الخامس عشر، أحد أبرز الأمثلة على دخول الثقافة الإغريقية إلى الهند وتمازجها مع الثقافة البوذية: منحوتة يظهر فيها هرقل بصفته حامياً لبوذا، تعود للقرن الثانى الميلادي، محفوظة بالمتحف البريطاني.

ما زال بالإمكان العثور على بعض مظاهر الهلنستية المميزة فى الهند، وبالتحديد فى المنطقة حيث قامت بضعة ممالك هندو إغريقية، فقد أدّت عزلة سكانها الأوائل من الإغريق، وبُعدهم عن وطنهم الأم فى أوروبا، إلى انصهار ثقافتهم اليونانية بالثقافة الهندية، وبالأخص تلك البوذية، يُلاحظ أن أوّل منحوتات بوذا ذات الشكل الإنسانى أخذت تظهر خلال تلك الفترة، وقد تمّ نحتها بالاستناد إلى تماثيل الإله أبولو الإغريقية، كما يُعتقد أن عدة تقاليد بوذية تأثرت تأثراً كبيراً بالديانة اليونانية القديمة، فعلى سبيل المثال تُعد البوداسفية بمثابة المرادف الشرقى لأساطير الأبطال الإغريق، وبعض طقوس الماهايانا مثل حرق البخور وتكليل ووضع الطعام عند المذابح، كلها شبيهة بطقوس الإغريق

القدماء. بالإضافة لذلك، استمدت البوذية الزنّية بعض أفكارها ومبادئها من الفلسفة الرواقية اليونانية. يُعتقد أن أن أحد ملوك الإغريق، المدعو ميناندر الأول «المنقذ»، اعتنق البوذية مخلصاً، فتم تخليد ذكراه فى نصوص البوذيين، وأشير إليه باسم «ميليندادا». لم تقتصر هلينة الهند على الجوانب الثقافية والدينية فحسب، بل امتدت لتشمل العلوم أيضاً، إذ تسرّبت الكثير من الأفكار والنظريات الفلكية شرقاً حتى وصلت الهند حيث تأثرت بعلوم الفلك تأثيراً عظيماً بحلول القرون الميلادية الأولي.

وقد عُثر على أدوات إغريقية مخصصة لدراسة مواقع الكواكب والنجوم فى مدينة «آى خانُم» اليونانية الباخترية، الواقعة فى أفغانستان حالياً، كما وُجدت فى الهند مجسمات يونانية كروية للأرض وقد أحاطت بها مجسمات كروية أخرى للكواكب، وقد جعلت هكذا أدوات مع ما رافقها من معلومات قيمة، جعلت فكرة كروية الأرض تحل مكان فكرة الأرض المنبسطة التى سادت فى الهند زمناً طويلاً.

تأثيره على روما

حصد الإسكندر ومنجزاته إعجاب الرومان عامةً، والقادة العسكريين منهم خاصةً، فاتخذوه قدوة، وغالباً ما قارنوا مسيرتهم بمسيرته، وذلك بعد أن اطلعوا على مؤلف المؤرخ اليونانى بوليبيوس حامل عنوان «التواريخ»، الذى قام فيه بتذكير الرومان بإنجازات الإسكندر. اتخذ القائد الرومانى بومبى لقب «الكبير» تيمناً بالإسكندر، بل إنه كان يقص شعره على نفس شكل قصة شعر الأخير، وبلغ من شدة إعجابه

بالقائد المقدونى أن بحث فى البلدان التى فتحها المقدونيون عن عباءة الإسكندر البالغة من العمر 260 سنة، والتى كان يضعها كإحدى علامات العظمة. أمر يوليوس قيصر صنّاعه بصب تمثال برونزى له وهو على صهوة جواده، يكون نسخة طبق الأصل من أحد تماثيل الإسكندر، وأن يستبدلوا وجهه بوجه الأخير، كما أقدم الامبراطور أغسطس قيصر خلال زيارته الإسكندرية على استبدال نقش (أبو الهول) الموجود على خاتمه بصورة جانبية لوجه الإسكندر. من أبرز الأباطرة الرومان الذين أعجبوا بالإسكندر أيضاً: تراجان، ونيرون، وكاراكلا احتفظت أسرة ماكريني، وهى الأسرة الرومانية الحاكمة خلال عهد الإمبراطور ماكرينوس، احتفظت بصورة للإسكندر على متاعها، مثل المجوهرات، أو قامت بتطريزها على ملابس أفرادها.

استخدم بعض الكُتاب الرومان، وبالأخص الجمهوريون، قصة حياة الإسكندر لتحذير الرعيّة من مخاطر الأوتقراطية، وكيف أنه يمكن الحد من النزاعات المتولدة عن تلك الأخيرة عبر التمسك بالمثل الجمهورية العليا. وضع كتاب آخرون صفات الإسكندر كمثال عن صفات جميع الحكام، فقالوا إنهم أوفياء لأصدقائهم ورؤوفون بأعدائهم، وفى الوقت نفسه سريعو الغضب وذوو رغبة مفرطة فى الحصول على المجد.

***

الإسكندر فى الأساطير

تضم سيرة حياة الإسكندر فى طيّاتها عددًا من الأساطير والقصص الخرافية، التى يُحتمل أن يكون الإسكندر نفسه قد شجع على إشاعتها وكتابتها. يقول مؤرخه الخاص كاليستنس إن البحر تراجع خوفاً منه عندما كان فى قيليقية. وبعد فترة قصيرة من وفاة الإسكندر، اخترع مؤرخ آخر، وهو أونيسيكريتوس، قصة مفادها أن «ثاليتريس» ملكة الأمازونيات زارت الإسكندر وحصل بينهما نوع من الودّ، وعندما قرأ أونيسيكريتوس القصة على مسمع ليسيماخوس، أحد خلفاء الإسكندر، أجابه قائلاً: «أتساءل أين كنت فى ذلك الحين؟».

جُمعت كل الأساطير المتعلقة بالإسكندر بعد قرون من رحيله فى كتاب عُرف باسم «رومانسية الإسكندر»، فى مدينة الإسكندرية على الأرجح، وقد نُسب هذا الكتاب خطأً إلى كاليستنس، ولهذا السبب يُلاحظ أنه يُدعى «Pseudo-Callisthenes» فى بعض الأحيان. خضع هذا الكتاب لمراجعات عديدة وإضافات كثيرة طيلة العصور القديمة وصولاً إلى العصور الوسطي، ولذلك فهو يحوى عددًا من القصص المشكوك بصحتها، كما تُرجم إلى لغات كثيرة من شاكلة اليونانية الرومية، والأرمنية، والسريانية، واللاتينية، وأغلب لغات أوروبا الغربية.

ذُكر الإسكندر ومنجزاته العظيمة فى نصوص عدة حضارات، سواء تلك القديمة أو الحديثة، فأوّل من ذكره فى نصوصهم كان الإغريق أنفسهم خلال حياته، واستمر غيرهم من بعدهم يروى قصص هذا القائد جيلاً بعد الجيل حتى الزمن الحالي. لعب كتاب وروايات «رومانسية الإسكندر» دوراً لا يُستهان به فى التأثير على صورته فى الحضارات المتأخرة، وبالأخص الفارسية والأوروبية الوسطى واليونانية المعاصرة.

يظهر الإسكندر بشكل بارز فى الفلكلور اليونانى المعاصر أكثر من أية شخصية قديمة أخري، فقد أصبح الشكل العاميّ لاسمه باليونانية الحديثة «أوميكالكساندروس» لقباً للكثير من العائلات، وهو البطل القديم الوحيد الذى يظهر فى عروض الكركوز الهادفة لتسلية الأطفال. وإحدى الخرافات الشائعة بين البحارة اليونانيون تتحدث عن حورية بحر وحيدة تُقدم على التعلق بمقدمات المراكب والسفن خلال العواصف لتسأل القبطان: «ألا يزال الملك الإسكندر حيّاً؟»، ويجب على القبطان هنا أن يُجيب: «إنه حى وعلى ما يرام ويحكم العالم أجمع!»، فتعود الحورية إلى البحر مطمئنة، أما لو أجاب القبطان بغير هذا، فتتحول الحورية إلى كوركون ثائر، يجر السفينة وركابها إلى قاع البحر.

كان الفرس قبل اعتناقهم الإسلام، ينعتون الإسكندر «الملعون»، حيث اتهموه بحرق معابدهم وإتلاف نصوصهم وكتبهم المقدسة. أما بعد دخول الإسلام إلى بلاد فارس، وانحسار المجوسية فى جيوب صغيرة معزولة، واطلاع الفرس على مؤلف «رومانسية الإسكندر»، أخذت صورة

جديدة أكثر إيجاباً تحل مكان تلك القديمة تدريجيّاً. ففى كتاب الملوك «بالفارسية: شاهنامه» لأبى القاسم الفردوسي، ذُكر الإسكندر ضمن قائمة الملوك الشرعيين لفارس، ووُصف بأنه شخص أسطورى سافر إلى أقاصى العالم بحثاً عن ينبوع الشباب.

قام بعض الكتّاب الفرس لاحقاً بربط الإسكندر والفلسفة، فرسموه وهو يجلس فى نقاش مع فلاسفة كبار أمثال أرسطو وسقراط وأفلاطون، يتحدثون عن كيفية التوصل لمعرفة سر الخلود.

الإسكندر فى التراث الديني

تُجسد النسخة السريانية من «رومانسية الإسكندر» القائد المقدونى كملك مسيحى صالح مواظب على الصلاة، يفتح الممالك المنيعة ابتغاء رضا الله ويدعو الناس إلى عابدته كونه الإله الحق.

وُصف الإسكندر من قبل الكهنة والكُتاب المصريين القدماء على أنه ابن «نيكتانيبو الثاني»، آخر فراعنة مصر قبل الغزو الفارسي، وأن هزيمته الشاه داريوش الثالث كانت بمثابة الخلاص الذى انتظرته مصر طويلاً، وأن مصر استمر يحكمها مصري.

الإسكندر ليس هو ذو القرنين

الآية الثالثة والثمانين من سورة الكهف التى بدأ فيها ذكر القائد الصالح «ذو القرنين».

ورد فى الكتاب المقدس ذكرٌ صريح للإسكندر، كما ذُكر فى الأخير

وفى القرآن الكريم قصة قائد صالح، سُمى بذى القرنين أو صاحب القرنين أو «لوقرانائيم»، قال بعض مفسرى التوراة والقرآن إنه يُحتمل أن يكون هو الإسكندر الأكبر، ومن المواضع التى ذُكر بها، سواء المؤكدة أو غير المؤكدة، سفر المكابيين الأول: إن الإسكندر بن فيلبس المقدونى بعد خروجه من أرض كتيم وإيقاعه بداريوس ملك فارس ومادای ملك مكانه وهو أول من ملك على اليونان. ثم أثار حروباً كثيرة وفتح حصوناً متعددة وقتل ملوك الأرض.

واجتاز إلى أقاصى الأرض وسلب غنائم جمة من الأمم فسكتت الأرض بين يديه فترفع فى قلبه وتشامخ. وحشد جيشاً قوياً جدّاً. واستولى على البلاد والأمم والسلاطين فكانوا يحملون إليه الجزية. وبعد ذلك انطرح على فراشه وأحس من نفسه بالموت. فدعا عبيده الكبراء الذين نشأوا معه منذ الصبا فقسم مملكته بينهم فى حياته. وكان ملك الإسكندر اثنتى عشرة سنة ومات [المكابيين 1] [234] وسفر دانيال: أما الكبش الذى رأيته يا ذا القرنين فهو ملوك مادى وفارس. والتيس العافى ملك اليونان، والقرن العظيم الذى بين عينيه هو الملك الأول. وإذ انكسر وقام أربعةٌ عوضاً عنه، فستقوم أربع ممالك من الأمة، ولكن ليس فى قوته، ولكن ليس بقوته يهلك عجباً وينجح ويفعل ويُبيد العظماء وشعب القديسين. وبحذاقته ينجح أيضاً المكرُ فى يده، ويتعظم بقلبه. وفى الاطمئنان يُهلك كثيرين، ويقوم على رئيس الرؤساء، وبلا يدٍ ينكسر. [دانيال 8] أما فى القرآن، فمما جاء وقيل باحتمال إشارته إلى

الإسكندر ورد فى سورة الكهف، : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾، وأيضاً: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾.

يقول علماء التفسير إن ذا القرنين هذا كان عبداً صالحاً طاف الدنيا وبنى سدّاً ضخماً فى وجه قوم يأجوج ومأجوج الذين عاثوا فساداً فى الأرض، وقال بعضهم إن هذا الرجل هو الإسكندر، وخالف آخرون هذا الرأي.

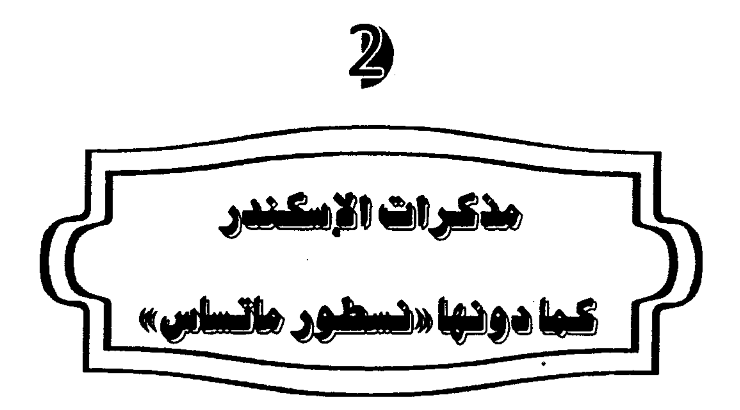
يُشير اسم «إسكندر» أو «سكندر» فى الهند وباكستان، وبالتحديد فى البنجاب، إلى شخص يافع موهوب تنمو قدراته شيئاً فشيئاً. جُعل الإسكندر عضواً فى جماعة «الفاضلون التسعة» فى أوروبا خلال العصور الوسطي، والجماعة المذكورة كانت تضم رجالاً اعتُبروا أكثر فرسان عصرهم شهامة ونبلاً، مثل شارلمان ويوليوس قيصر وغيرهما. أنتجت هوليوود فيلماً سينمائيّاً عن حياة الإسكندر فى سنة 2004، لعب فيه الممثل الأيرلندى كولين فاريل دور القائد المقدوني، وقد واجه الفيلم

انتقادات واسعة من قبل الجمهور اليونانى والمؤرخين، سواء اليونانيين أو الإيرانيين، الذين اعتبروه غير دقيق فى تصويره الأحداث، حتى إن مجموعة من المحامين اليونان حاولت مقاضاة شركة الإنتاج والمخرج.

إن جميع النصوص المكتوبة من قبل أشخاص عاشروا الإسكندر ورافقوه فى حملاته أو جمعوها من أخبار رفاقه وأصحابه، قد ضاعت كلها ولم يبق منها إلا بضعة مخطوطات منها ما هو كامل ومنها ما استحال فتاتاً. من الأشخاص المعاصرين للإسكندر والذين كتبوا عن حياته: مؤرخه الخاص كاليستنس، والقادة فى جيشه بطليموس ونيارخوس، وأحد الضباط الصغار المدعو «أريستوبولوس»، وكبير الربّان «أونيسيكريتوس». كُتبت كل النصوص التى تناولت حياة الإسكندر بالاستناد إلى تلك التى كتبها هؤلاء الرجال، وأول النصوص المنقولة كان ذاك الخاص بالمؤرخ ديودورس سلوقس «القرن الأول ق. م»، تلاه نص كوينتس كورتيوس روفوس «ما بين أواسط وأواخر القرن الأول ق. م»، ثم آريان «ما بين القرن الأول والثانى الميلادي»، فبلوتارخ «ما بين القرن الأول والثانى الميلادي»، وأخيراً جستن صاحب المؤلف العائد للقرن الرابع الميلادي. يُعد مؤلف آريان الأكثر وثوقاً إجمالاً، نظراً لأنه لجأ إلى نصوص بطليموس وأريستوبولوس كمراجع أوليّة، يليه مؤلف ديودورس.

***

2



مذكرات الإغريقى ناسطور ماتساس

المسماة مذكرات الإسكندر الأكبر

تناول مؤلف هذه «المذكرات» وهو الكاتب اليونانى المعاصر نسطور ماتساس شخصية الإسكندر الكبير ملك مقدونيا وصاحب الفتوحات الشهيرة وحاول أن يتصوّر كيف يمكن لذلك الفاتح العظيم ذى الشخصية العنيفة المتمردة والتائهة الحائرة فى نفس الوقت أن يحدّد موقعه بين سائر البشر ويتكشف مصيره وهو مدفوع بقوى خارقة تتجاوز قدراته ومتفاعل مع الأحداث الجسام التى يسيرها فتسيره. فاختار لهذا اللون من الإبداع الأدبى أسلوب «المذكرات». وتخيل أن الإسكندر ربما دفع فى يوم من الأيام وفى أشد حالات المرض والحيرة إلى كتابة مذكرات شخصية قد يعود إليها وحده وهى فى جميع الحالات غير معدّة لأن يطلع عليها غيره. وادعى نسطور ماتساس أنه عثر أثناء زيارته لإطلال مدينة بابل على مخطوط للإسكندر أهداه إياه حارس المدينة. ولا شك أن هذا المخطوط لم يوجد.

ولم يستلمه الكاتب ولكنّ ادعاءه هذا ضرب من التشويق تنميه تعليقاته على المخطوط وذكره للمدن القديمة والمواقع التى زارها فى آسيا من أدناها إلى أقصاها وهو يسير على خطى الإسكندر متثبتا فى

الأماكن التى مرّ بها الفاتح.

يقول: كتبت هذا الكتاب لمتعتى الشخصية ولهوى فى نفسي. وأن جميع ما يؤلّف المؤلّفون صادر عن نفس الوازع وهو وازع المتعة التى يرجوها الكاتب من تأليف الكتاب. ومع ذلك تبرز - فى بعض الحالات إن لم تكن فى جميعها - نيّة خفية تهدف إلى جلب عناية قرّاء الكتاب واهتمام النّقاد والمختصين - سواء أكانوا أكفاء أم لا - وتعتمد تصوراً مسبقاً لما قد تصدره الأجيال القادمة من أحكام مؤيدة للكاتب أو مفندة له. فالغالب على ذهن الكاتب إذا كتب ومرجعه الأساسى ما يتوقعه من ردود فعل الأجيال القادمة فيتحول تأليفه إلى عمل فيه إرهاص وقهر لأنه يتساءل دائماً عن معاملة تلك الأجيال لكتابه وهل يسمح رجال الغد لبعض صفحاته أن تبقى محل اهتمامهم.

انى أخاطبكم بصدق وبوضوح لم يحملنى على التفكير فى وضع هذا الكتاب ثم تحريره أى دافع من تلك الدوافع بل كنت مُصرّاً على تأليفه لأنه صادف هوى فى نفسى وكان يعود بى إلى حدث مثير من أحداث طفولتى هزّ مشاعري.

كان عمرى ستّ سنوات وإذا بأبى يكشف لى عن شخصية الإسكندر العظيم وهو يعلق على رسوم ثيوفيلوس التى أرانيها بجبل بيليون فأضفت تعليقاته على صورة الإسكندر بعدا أسطوريّاً. كنت أتصوّره سبعاً وإلهاً فى نفس الوقت وبنفس القدر لأنه لم يكن يخيفه أى شيء ولأنه كان قادراً بمحض قوته على القيام بأعمال جليلة حتى بخوارق البطولات.

وإنّ ذلك الشعور الذى سرعان ما تحوّل فى نفسى إلى خشوع أمام

شخصية عظيمة أجهل أغوارها قد صاحبنى إلى سنّ المراهقة وبالضبط إلى اليوم الذى اكتشفت فيه أثناء زيارة قسطنطينية «الإسكندر الآخر» فى صورة تمثال نصفى للإسكندر معروض فى المتحف الأثرى للمدينة يعود نحته إلى القرن الثانى قبل الميلاد.

ذلك التمثال على غرار الرسوم التى شاهدتها مع أبى يبرز فرط جمال الإسكندر، وقد صوّره بشعره الكثيف المجعد وعنقه المستوى الذى يعلوه رأس رائع الحسن ومائل دائماً إلى اليسار، ولكن رغم السكون الذى كان يوحى به المرمر الذى نحت فيه التمثال فإن نظرته تكشف عن حيرة عميقة أو بالأحرى عن جزع دفين. وإن جبينه الذى خط فيه غضنان عميقان يوحى بألم دفين تبدو ملامحه فى قسمات وجهه. أضف ذلك أن حاجبيه يشعران بتقطب خفى يؤكد الانقباض الذى كان يبدو على وجهه ذلك الانقباض الذى طغى عليه منذ عهد بعيد لأسباب فائقة الخطورة.

ما كنت أعلم أن هذه الرؤية للتمثال المرمرى الذى يمثل الإسكندر العظيم كانت رؤية خاصعة بى أم هل أن الفنان الذى نحت تلك الصورة قد كان يريد إيحاء تلك المشاعر.

وعلى كل فرؤيتى لم تتغير على مر السنين. وتأكدت من ذلك بعد عشرين سنة عندما كنت بصدد إعداد شريط سينمائى وثائقى وسلكلت عمدا طريق فتوحات الإسكندر وزرت من جديد متحف القسطنطينية وسمعت مرّة أخرى شكواه واسترعى انتباهى جبينه الذى خطّ فيه

غضنان عميقان ووجهه الذى تعلوه الحيرة.

واقتفيت خُطى الاسكندر بإصرار تجاوز إرادتى وقواى وطفت فى أقطار عديدة بحثاً عن آثار تنير لى حياته واستطعت بلوغ قرى فى آسيا لا يصل إليها المسافر إلا بعد عناء شديد لامتناعها ووعورة المسالك المؤدية إليها. فأيقنت أنى أقترب شيئاً فشيئاً من «الإسكندر الآخر» الذى سكنت صورته وجدانى وزدت يقينا بذلك على مرّ الأيام.

قد يكون هذا الشعور وليد الخيال وفاقداً لكل أساس علمى ولكن لا يهمنى حكم الناس له أو عليه مادام يشبع نفسى ويرضيها.

***

مخطوطة بابل

يقال إن هذه المخطوطة عثر عليها حارس يونانى يدعى «تزيلال» ويصف المؤرخ ما قاله الحارس عن اكتشافه لهذه المخطوطة فماذا قال؟

بابل فى يوم ثقيل من أيام الصيف. الشمس تحرق الأرض العارية. بدأ (الزفت) يذوب فى الطرق التى تخترق الأطلال الحزينة التى تثير فى النفس ذكرى الملوك الأولين الذين حكموا تلك المدينة الميتة الآن والخاوية على عروشها.

كنت واقفاً منهار القوى إذ عثرت على نقيشة تدل على أن «حدائق بابل المعلقة» وهى إحدى عجائب الدنيا كانت موجودة فى المكان الذى انتهيت إليه. لم يبق من تلك الحدائق أى أثر وما كان يظل أى نبات ذلك الفضاء الرحب الذى لا ينبت شيئاً.

وبقيت واجما يغمرنى حر جهنمي. واستلقيت على صخرة أثرية وأنا خائر القوي.

وكان حارس الموقع الاثرى نائماً غير بعيد على أطلال الدرج الملكى وقد اضطجع منطوياً.

كنت أجتهد لتركيز انطباعاتى وتنظيم الصور التى كانت تزدحم فى مخيلتى ولكن بدون جدوى لأنه عندما يشتد الحر فى الهجيرة يفقد

المرء جميع قواه. وكان الاعياء الشديد يغمض جفونى ويجفف حلقي.

وكنت لا أنقطع عن النظر من وراء ضبابة متلونة تلون الماء إلى نص النقيشة التى تعلن بفخار عن موقع «الحدائق المعلقة».

ثم اضطجعت منطوياً كما فعل الحارس الشيخ واستسلمت إلى الفتور الذى ينتاب المرء عند الظهيرة.

كانت الشمس قد غربت منذ حين لما استيقظت وبدأ الظلام يغمر المدينة الميتة. وكان نهر الفرات يسيل من ورائها متباطئاً فى مجراه.

كنت وحدى فى بابل العتيقة. أنهكنى الحرّ وأضوانى فتور عجيب، ولكن كنت وحدي. كنت أريد أن أحسّ بنفسى دائماً هذه الحالة وأن يتملكنى شعور طاغ ومطلق بالوحدة، شعور أسيطر عليه ويسيطر عليَّ فى آن واحد، شعور يملأنى أسى ويحل عقالى فى نفس الوقت طوال حياتى إلى ساعة الممات. وعندما عمّ الظلام أتانى تزيلان وقال لي:

- أنا حارس الليل ببابل.

وكان شيخاً طاعناً فى السنّ لا يعرف تاريخ ميلاده. فسألته قائلاً:

- ماذا تحرس هنا؟ لا أرى أيّ إنسان.

قال:

- الأشباح. لقد ملأوا هذا المكان.

- أيّ خطر يريدون إبعاده.

بقى الشيخ صامتاً ثم أخرج من جلبابه علبة من عظم ومدّها لى وهو يقول:

- تفضّل.

كان يعرض عليّ أوراقاً مفتتة من الحشيش قائلاً:

- امضغها فإنك تحسّ بعدها بالراحة.

واعتذرت فسدّد إليَّ نظرة حزينة وأخذ يمضغ فتات الأوراق وهو يحرك شدقيه بلطف وبصورة منتظمة حتى رأيته ينزلق شيئاً فشيئاً في بحر الأوهام. ثم أخذ يتحدث بطريقة خاصة وبصوت هادئ صاعد من الأعماق مليء بالتموّجات مفعم بالنبرات الغريبة. كان يشخص لى المكان وأطيافه وملوكه المضطجعين بين الأطلال.

وبقينا معاً إلى الفجر. وعندما بزغت الشمس من وراء النخيل وبدأت تلمس أشعتها الأولى مياه الفرات قام يستعد للانصراف وقال لي:

- إذا مازلت مقيماً ببابل فاني سوف أراك الليلة.

وأخرج من جلبابه حزمة من الأوراق التى تمزق بعضها ووضعها أمامى وقال:

- هذه الأوراق لك. كنت أعلم أنك ستأتى يوماً فاحتفظت لك بها فقلت:

- ما هذا؟

فقال:

- هذا مخطوط قديم جدّاً نسخه أبى عن لفيفة من البردى عثروا عليها فى غار يوجد هنالك فى أقصى المدينة العتيقة.

وانصرف ولم يترك لى الفرصة لأنطق بكلمة واحدة لأنه ما إن

تحركت شفتاى حتى اختفى الشيخ وراء أطلال باب إشتار.

وأنا منكبّ منذ تلك الليلة على ذلك المخطوط أرتّب صفحاته ولا أعرف مدى الوثوق به ولكن -مهما كان الأمر- فهو مخطوط يكشف عن كثير من الأمور.

وها أنا أقدم بخشية من الكتاب بعض صفحاته دون إدخال أيّ تعديل عليها.

***

مذكرات الإسكندر الأكبر

ليس من الميسور أن أقتطع من حياة ملآنة مثل حياتى بعض العناصر لإثراء السيرة التى أنا بصدد وضع خطوطها العريضة.

ولكن حيث إنّى أجد نفسى ملازماً للفراش بسبب جرح خطير فى كتفى أُصبت به أثناء إحدى جولاتى الجريئة فإنى أحاول جمع بعض شظايا ذكرياتى كلما اندلعت على سطح ذاكرتى دون أن أدخل عليها تسلسلاً منطقيّاً كما لو كنت ألعب لعبة ممتعة ومؤلمة فى آن واحد. شأنى فى ذلك شأن صناع الفسيفساء فى مدينة بيلا موطنى الذين يصنعون مشاهدهم العجيبة بترصيف مكعبات مبعثرة.

بقيت حياتى فى مجموعها لغزاً ليس فقط فى نظر المؤرخين والفلاسفة الذين تبعونى فى الحملة التى قدتها لجمع عناصر كتاب كانوا يريدون تأليفه ولكن بالنسبة إليّ أيضاً.

أعلم أن كثيراً من الناس سيتناولون حياتى بالشرح والتعليق بعد موتي. سيحاول كل واحد منهم أن يعلل بطريقته الخاصة أبسط أعمالى الناتجة عن محض الصدفة أو عن مقتضيات عسكرية صرفة لأنه لم يستطع أى إنسان تجنب الوقوع فى هذا الشَّرَك. لم يقدر على اجتناب ذلك الحيف شاعر أو رجل سياسة. ولم أقدر أنا أيضاً على تحاشيه لأنى أصبحت

منذ عهد الشباب ومنذ فعلة خيرونى بالضبط «شخصية تاريخية».

تعود بى الذكرى الآن إلى معركة خيروني. لا أشعر بالحاجة إلى تبرئة ساحتى من أوحش جرم اقترفته فى حياتي. أنا أيضاً لم أستطع إلى الآن أن أكتشف الدوافع التى حملتنى على ترك جنودى الغاضبين يبيدون «الكتيبة المقدسة» فى حين أن أرسطوطاليس قد نوّه أمامى ببسالة رجال الكتيبة وأشاد بالصداقة المستترة التى تربط بينهم. وكنت أنا أيضاً معجباً بهم فى طفولتى أبحث بدورى عن صديق أحبه حبّاً عميقاً ومقدساً شبيهاً بما يكنه لبعضهم رجال الكتيبة المقدسة.

أقول أحياناً لنفسي: ربما كان عزمى على معاقبة مدينة ثيباى هو الذى أثار تلك النوبة من الغضب الجنوني. فإذا كانت ثيباى تستحق العقاب الذى سلط عليها فلماذا شمل غضبى الكتيبة المقدسة؟ لماذا صدر عنى ذلك القرار الشنيع بإحراق المدينة وتقتيل جمع سكانها ولم أستثن منهم الجنود البواسل المنضوين تحت لواء الكتيبة المقدسة الذين يؤمنون بأن الصداقة هى الدائمة فى مسيرة الحياة والباقية بعد الموت وبأنها قوة تمنح الخلود للبشر الفاني؟

أدركت ذلك المعنى بعد تلك الفاجعة بمدة طويلة عندما وجدت نفسى متنقلاً بين أطلال طروادة صحبة هفستيون. وكنا قد درسنا معاً فى نفس الفترة من شبابنا الإلياذة وفهمنا معاً ما ينطوى عليه غضب أخيلوس عندما سقط باتروكليس صريعاً فى ساحة الوغي. غضب أخيلوس هو نفس الغضب الذى يساور جندى «الكتيبة المقدسة» ويحوله إلى سبع

ضار عندما يشاهد أن رفيقه قتل أو جرح بجانبه بنبل العدو. فانه ينسى كل شيء فى تلك اللحظة ولا يبقى له إلا هم وحيد يستولى على نفسه وهو الانتقام من العدو الذى أفقده أعز رفاقه. انه يعرض بحياته لبلوغ غايته ولا يهمه من الأمر شيء. ويفارق هذه الحياة الدنيا مرفوع الرأس لأنه فدى أخاه وتستقبله الآلهة الخالدون ويفسحون له مكاناً للجلوس بجانبهم كما لو كان إلها لحضور ولائم الأولمبوس.

ولكن لا أريد أن أفكر فى شيء خلال هذه الساعات الثقيلة التى أحياها وحيداً فى بابل. لا أريد أن أفكر فى الأشخاص الذين أحبهم ولا فى هفستيون لأنى خائف.

أنا خائف. كيف انفلتت منّى هاتان الكلمتان؟ ما بى أنطق بهما؟ أنا وحدي. ولن يسقط هذا المخطوط بين يديّ صديق أو عدو. سأترك أمراً صريحاً بإحراقه بعد موتى حتى لا يبقى بعدى منه أى سطر. وإذا بدأت بتحريره فلأنى فى حاجة إلى الاستماع إلى صوتى وأنا لم أنصت إلى نفسى إلا فى لحظات قليلة جدّاً من حياتي. وذلك لأنى كنت أشعر بالخوف. أنا أتردد عندما أنطق بهذه الكلمات. ولكن لا أتردد فى كتابتها لأنها موجهة إليَّ فقط. ليت أعدائى الذين يرتعدون لسماع اسمى لا يعلمون مطلقاً أنه كثيراً ما خفق قلبى جزعاً واصطكت ركبتاى وانقطع عنى النفس.

لم أخش الموت قط. ولم أخش أعدائى مهما كانوا شداداً ومهما كان المكان الذى صارعتهم فيه أثناء معمعة طاحنة موحشاً أو مزعجاً ما شعرت بالخوف فى أسوس ولا فى فوفمالا لا ولا فى صور ولا فى

السوس ولا فى باكتريان ولا فى تاكسيلا. كنت أخاف من ذلك الشخص الآخر الذى كنت أحمله فى قرارة نفسي، ذلك الشخص البعيد الغور الذى التقيت به لأول مرة فى بيلا عندما بلغت السادسة من عمري.

دعا أبى مؤدبين وكلفهما بتربيتى وهما ليزيماك الاكارنانى وليبونيداس الأبيري. ما كنت أعلم هل كان يثق بهذين المؤدبين لأن أبى ما كان يثق إلا بي. ولكن كان مصمماً على تخليصى من تأثير أولمبياس.

كنت ملازماً لها ومتعلقاً بها إلى حد أنى ما كنت أشعر بالسرور عندما أتسابق مع صبيان حاشية الملك فى حديقة القصر أو أشاركهم ألعابهم. كنت أحب أن أضع رأسى على ركبتيها لأستمع إليها مدة ساعات وهى تذكر لى آلهة مصر وطنها البعيد وتقول لى إنك أنت أيضاً إله.

سألتها يوماً عن معنى كلمة إله فقالت:

- هو الذى لا يخاف من شيء ويخافه جميع الناس.

فقلت:

- هل أنا إله؟

قالت:

نعم. أنت إله.

قلت:

- لا أعرف الخوف؟

قالت:

- لا ينبغى أن تخاف. وعندما تذهب إلى مصر لزيارة الإله أمون ستدرك هذا بصورة أفضل.

قلت:

- متى أذهب إلى مصر؟

قالت:

- فى الساعة التى تحسّ فيها بأنك متهيئ لذلك.

عندما خاطبتنى بهذا الخطاب فى المرة الأولى أحسست بسرور عميق ولو أنى لم أفهم قصدها بوضوح. كان يلذ لى أن أعلم أنى لا أخاف وأن غيرى يخافني. ذلك ما جرى لأبى وقد كان أصدقاؤه الأقربون يخافونه فى قرارة أنفسهم. ولكن عندما أنعمت التفكير أدركت ما معنى الخوف.

الخوف مصدره ذلك الشخص الآخر الذى لا ينتمى إلينا بسبب ولا نريد أن يحل محلنا ولكننا نحمله مع ذلك داخل أنفسنا فيضع بفضل ما أوتى من قوة وإرادة بصماته على حياتنا وأعمالنا.

لم يقترب من هذه الحقيقة أى كاتب فاشل ولا أى مؤرخ ممن تناول حياتى بالدراسة. يا للمساكين! لم يتناولوا إلا المظهر الخارجى للأحداث ذلك ما صنعه أريان وبلوتارخوس واثينى وكثير مثلهم. ولكن لم يعش أى منهم بالقرب منى ولا فى عصرى ولم يعرفنى منهم أحد. فكل ما كتبوه مقبتس من سير تناقلها الناس وسارت بها الركبان ولم يصدر عن تجربة شخصية قاموا بها.

وهكذا بقيت أنا صانع التاريخ بدون مؤرخ. ولعمرى أنه نصيبى

ونصيبى هذا حلو ومرّ فى آن واحد لأنه لم يشهد أحد قلقى ووحدتى وخوفى ولم يسمع أحد همسى من وراء صراخى ولا صوتى الإنسانى من وراء الصيحات التى أطلقها أثناء المعارك.

أراد المؤرخون كما فعلت أمى أن يجعلوا منّى إزاء الأجيال القادمة إلهاً أو شيطاناً لكن غفلوا عن الإنسان فيّ.

***

بعض المعطيات عن نشأة الإسكندر وعن أبويه فيليبوس وأولمبياس

وُلدت ببيّلا فى سنة 356. هو أوّل رقم أورده فى هذه المناجاة التى أسارّ بها نفسى وسيكون هو الوحيد لأنى لم أمنح فى حياتى قط أية مصداقية للضبط بالأرقام ولم أعرها أى اهتمام. فالأرقام تقلص الأحداث والأفكار وتجففها.

كان أبى فيليبوس الثانى جنديّاً وملكاً. وكانت ميزات الجندى فيه غالبة على صفات الملك. وكان قادراً على أن يحمّل نفسه أشد الحرمان وأن يفرض عليها أقسى الانضباط. وتبيّن على مرّ الأيام أن له من الطاقة ما يستطيع بها أن يكسب الآخرين تلك الميزات وأقصد بالآخرين أولئك الذين صاحبوه فى حملاته العسكرية بدافع الضرورة أو الخشية.

لم أر أبى إلا فى مناسبات نادرة ولم أتعرّف عليه فى صباي. وقد كان غائباً فى أغلب الأوقات لانهماكه فى حروب طويلة. وعندما يعود إلى بيلا منهوك القوى ومنشغل البال ينكبّ على إعداد غزوات أخرى ويدعو إلى احتفالات تدوم عدة أيام.

هل كنت أحبّه؟ ذاك ما لا أستطيع أن أؤكده ولكن كنت معجباً به إعجاباً كبيراً لبأسه وحزمه وجلده وثباته. وكان يعتقد أن ليس لطاقة

الإنسان على العمل حدود ما عدا حدود إرادته. وكان كثيراً ما يصدح بذلك. وهو ممن يعرف كيف يصرّف إرادته.

أولمبياس أمي

أمي كان طبع أمّى مخالفاً لطبع أبى ولا يجمعهما إلا الاشتراك فى خصلة واحدة وهى الثبات. وإذا استثنينا ذلك الثبات الصارم فى خط طريقها فى الحياة الذى كان يميزها فإن أمى كانت تعيش فى عالمها الخاص المملوء بأشباح تبرز بغتة فتبددها أمواج من الأنوار الباهرة. وكانت تنتقل باستمرار بين حالتين متناقضتين حالة يغمرها فيها الظلام وحالة يشعّ فيها النور فيبهرها وهى متشنجة الأعصاب محتدة الفكر فى كل لحظة.

هل كانت تقية أم متزمتة؟ هل كانت تصغى إلى وحى إلاهيٍّ أم هل كانت بصورة أكثر بساطة مدفوعة بطبعها الجامح إلى ضرب من الهيجان؟

هل كانت تستطيع فعلاً الاقتراب من مقام الآلهة عندما تنغمس فى حالات الذهول التى تلمّ بها أم هل كان يصيبها من حين لآخر وسواس مرضى يرجع عهده إلى الزمن الذى كانت فيه إحدى المتعبدات فى معبد «الكبير» بجزيرة ساموثراكى تشارك فى إقامة الطقوس السرية الليلية تمجيداً للآلهة القدامى أصحاب النبوءات؟

ما كان أحد يقدر على إيجاد مبررات لسلوكها وما كانت هى أيضاً تدرك ما أصابها.

أمى كانت تلجأ إلـيّ كلما أرادت مقاومة حيرتها الدائمة والذعر القاسى الذى كان يخنقها. كنت فى نظرها امتداداً لها والابن الذى هو

وليد ثورتها ونشوتها.

أنا ابن إله ولا شك فى رأيها! وُهبت قوة تتجاوز قوة البشر. وكلما تقدمت فى السن وأصبحت أدرك شيئاً فشيئاً أن انتسابى للآلهة أمر له خطورة بالغة شعرت بوازع يدفعنى إلى البحث عن سلالتى من بين الآلهة الذين يقع الكشف عن أسرار وجودهم أثناء الطقوس الدينية السرية التى تقام فى معابد مصر فى ذلك القطر الذى تحمل فيه الحكمة طابع المجهول والذى يحافظ فيه أبو الهول بصمته المهيب على سرّ مصير البشرية من وراء الحياة والموت.

سوف لا يتصور الناس الذين سيعيشون بعد آلاف السنين على سطح الأرض ويهتمون بعبورىْ القلق فى هذه الدنيا كيف ولد هذا الإيمان الراسخ فى نفسى وكيف مدّ فيها جذوره.

كنت فطناً وقويّ الشخصية فلم تجد تحريضات أولمبياس طريقها إلى نفسي. كثيراً ما عاملنىْ من عاصرونى معاملة تطغى عليها حيرة امتزجت بالحيطة والتهكم. كان أومان صديقى الحميم وأقرب أصدقائى إلىّ إلى حدّ أنّى أوكلت إليه مهمة تسجيل جميع أحداث حملاتى العسكرية فى سجل «اليوميات الملكية» يسألنى فى كثير من المناسبات هل كنت فعلاً أصدّق من يدعى أنى من سلالة إلهية. وكان لأومان عقل راجح لا يفقه اللامعقول فكان يرفض أن أكون من سلالة إلاهية فى حين أن هذا الادعاء قد تحول فى نفسى إلى عقيدة راسخة لأنى كنت مدفوعاً إلى تحقيق أمور تتجاوز طاقتى البشرية.

وعندما أنعم أومان النظر بتجرد فى ذلك الرأى راق له الأمر لأن نشر هذه العقيدة كانت تمكنه من مادة ضخمة يغذى بها «اليوميات الملكية». فالشعوب جميعها تتميز أساساً بالبساطة والسذاجة وعدم الخبرة والجبن فتقبل بصدر أرحب أن يسودها إله يكون خلاصها على يده بدل أن يكون الماسك لزمام أمرها مقاتلاً طموحاً.

وعندما اقتنع أومان بوجهة النظر تلك التى تلائم لباقته الدبلوماسية كفّ عن النقاش معى بشأن سلالتى الإلهية وكأنه أصبح مقتنعاً بصحة ذلك القول بعد انتصاراتى المتوالية. وكأنه كان يقول لنفسه إن هذه الانتصارات الباهرة العديدة لا يستطيع أن يحققها رجل ولو منحته الطبيعة قوة وعزماً وطموحاً منقطعة النظير. فلابد أن يكون ذلك الرجل مدفوعاً بقوة لا تخضع لأى معيار منطقي، أى لابد أن يكون قد سكنه إله وضع فى يده السيف وألهم قلبه الجَلَدَ وملأ روحه رؤًي.

ومن بين تلك الرؤى التى كانت تلازم ذلك الرجل الذى هو أنا صورة عالم رحب ليس له حدود وقع يوماً توحيده فأصبح جميع الناس فيه يتكلمون بلغة واحدة، وامحت فيه الفوارق بين يونانيين وعجم، ولم يبق فى الأرض إلا بشر متساوون مهما اختلفت ألوان بشراتهم، وتنوّعت أجناسهم، ومهما كانت صفات الإله أو الشيطان الذى يعبدونه.

***

خواطر الإسكندر عن سيرته

أسجّل الملاحظات التالية دون ترتيب لها كلما خطرت الانطباعات والصور بذهنى وأنا أصارع الحمى التى أقضت مضجعي.

ومما يكن من أمر ومهما كانت قيمة ما سأكتبه فإن ذلك لن يمنع الكتاب المفلسين والمؤرخين من اختلاق حكاياتهم. ولو سقطت بين أيديهم اليوميات التى يسجل فيها أومان يوميّاً الأحداث بحرص الدارس الدقيق فإنهم سيكونون مع ذلك حريصين على إبداء آرائهم الشخصية بشأن حياتى وأخطائى ومرضي.

أتخيّل الجهود التى سيبذلها بعض المؤرخين قصيرى النظر. سيتناولون بالدرس أكواما من الكتب ويتعاملون مع مفاهيم غامضة لحل لغز «الإسكندر بن فيليبوس» أو «الإسكندر بن أمون» على ضوء رأيهم فى نسبي.

ما هى المراجع التى سيعتمدونها؟ سيرجعون إلى رسائل متأخرة عن الأحداث بجيل أو جيلين ويبحثون عن مصداقية أصحابها وتاريخ تحريرها لاستنتاج نتائجهم. ولذلك لا يستطيع أيٌّ كان ضبط الأحداث التاريخية كما حدثت ولا تقديمها فى بساطتها ووضوحها حسب خط مستقيم بل دأب جميعهم فى محاولة إعادة قراءة للأحداث اعتماداً

على مجموعة من التعليقات نشرها أناس بعيدون عن الأحداث يحررون تأويلاتهم وهم متأثرون بالحالة النفسية التى يعيشونها فى الساعة التى يكتبون فيها. فالوضع مثلاً يختلف إذا كان المعلق مرتاحاً أو كان مصاباً بألم فى معدته من جراء السكر. شأنه فى ذلك شأن صحبى عندما يحاول هؤلاء المساكين مباراتى فى احتساء الخمر أثناء الولائم قائلين: إذا كان ملكنا قادراً على شرب هذا القدر المهول من الخمر فلِمَ لا نقدر مثله على ذلك. وعند طلوع الفجر تراهم صرعى ومنبطحين على الأرض فيأتى الجنود لحملهم محاولين إيقاظهم بصب الماء البارد عليهم.

إذاً.. كيف يستطيع المرء كتابة التاريخ وهو يحس بألم فى معدته وكيف يمكن لأحد أن يدرس سيرة الإسكندر بتجرد إذا لم يشعر بأى ميل نحوه وإذا كان يستنكر إراقته لدماء أقوام عديدين طوال مسيرته؟

ومهما كانت صفات الذين سيكتبون سيرتى فإنى لا أوصيهم بشيء بل أتمنى لهم التوفيق.. سأرسم وحدى هنا فى بابل فى هذه المدينة التى أحببتها بكل جوارحى الخطوط العريضة لسيرتى التى لن يعيها أيّ إنسان ولو وعياً خفيفاً.

أرسم لمساتها العامة وأنا أرتعد من أثر الحمّي. وسأواصل هذا الجهد ما أمكن رغم عتاب صحبى أو بالأحرى عتاب من بقى منهم على قيد الحياة ولم يسقط فى ساحة الوغى أو لم يلق حتفه بيدى فى نوبة من نوبات غضبى وأغلب نوباتى جنونية لا يتحكم فيها العقل.

كانوا يخشون تفاقم علتى لأنه لم يهدأ لى بال فى تلك الأيام الشاقة

التى كنت أقاوم فيها المرض.

قلت إنهم كانوا يخشون تفاقم علتى والأحرى أن أقول أيضاً إن بعضهم كانوا يتمنون موتي. لماذا؟ لأنّ مسألة خلافتى كانت محل تخمينات ومناورات كانوا يتساءلون عن مصير هذه الإمبراطورية الضخمة التى فتحتها إقليماً إقليماً ومدينة مدينة. كانوا يفكرون فى كيفية اقتسامها بينهم والى أيّهم سيعود نصيب الأسد.

ما أحمقهم! لا يعلمون أن الممالك لا تورث ولا تهدى ليقع اقتسامها وإنما يفتكها ذو القوة والدهاء. وإذا منحت المملكة ومنح معها جيش قويّ لحمايتها لمن لا يقوى على مسكها انتزعت منه وهو لا يشعر. لا ينبغى أن تؤول الممالك إلا لإنسان واحد لا غير وهو الرجل الذى له من البأس والشدة ما يجعله قادراً على حمايتها إما بقدرته على فرض طاعته أو على زرع الخوف فى القلوب. وفوق كل هذا وبمعزل عن كل التأويلات تستقر الممالك إذا دبر أمرها قائد حازم له حضور مستمر فى أذهان رعاياه.

أراقب حركاتهم أثناء الولائم التى أدعوهم إليها. يديمون النظر إلى باحثين عن خفايا نفسى ويلتمسون منى بإلحاح وفى صمت نظرة عطف، وعندما يظنون أنى لست منتبهاً إليهم يتهامسون بينهم. يريد كل واحد أن يعرف نوعية العلاقة التى تربطنى بصاحبه وهل طرأ لى أن حادثت صاحبه يوماً فى أمر الخلافة.

كنت أشاهدهم يتخاصمون من الآن لتحديد من ستكون له الغلبة ويحاولون جاهدين محو آثارى فى ذاكرة الشعوب حتى لا يقارنوا مستقبلاً بينى وبين من سيمسك زمام أمرهم بعدي.

سوف لا يبقى من أخبار عبورى فى هذه الدنيا أيّ خبر لم تمسه أيدى العابثين، سوف تبقى فى أفضل الاحتمالات أصداء غامضة سرعان ما تتلاشى فى خضم الإعصار الذى سيعصف فى الفترة القادمة.

إن القواد الذين رشحوا أنفسهم لخلافتى يذكروننى بما كنت أشاهده أثناء صيد الإيل فى موطنى بيلا:

كلما خرجت إلى الصيد مع كراتيوس الذى كان يصحبنى دائماً واقتنصت أيلا دفعته إلى الحرس الذين يتبعوننا ليقتسموه بينهم وانتحيت مع كراتيوس ناحية للتحادث. وعندما يمسك الحرس الدابة المقتنصة يبادرون بالشجار للاستيلاء على أحسن قطعة من اللحم. وإذا ظنوا أننا غير ملتفتين إليهم لأننا كنا فى الحديث بلغت بهم الدناءة إلى التلاكم وتمزيق الفريسة إربا إربا حتى لا يبقى مجال لقسمة عادلة.

سيتواصل اقتسام الايل مدى الدهر وسيتحف الزمان الملوك دوما بجلساء متملقين أنذال وعبيد وكلاب جائعة يدفعهم نهمهم إلى التهام قسمتهم من الغنيمة التى لم يغنموها.

انخفضت درجة الحرارة منذ أمس. ولكن لا أريد أن أرى بمقربة من فراشى أحد الأطباء الذين يكونون عصابة «الدائرة الملكية للصحة».

ما أحمقهم وما أجهلهم! لم يكن أحدهم فى مستوى الثقة التى وضعتها فيهم جميعاً حتى قلوكياس الذى لم أحشره فى زمرة هؤلاء السفاحين. لقد ترك هفستيون أعزّ صحبى يموت. فبرهن بذلك عن عجزه عن إسعافه فى حين أنى كنت متيقناً أنه قادر على إنقاذه. كان هفستيون ذا بنية قوية وكان يتحمل الصعاب أحسن مني. وقد برهن على

ذلك الجأش أثناء قطعنا لجبال الهندوكوش الشاهقة عندما خارت قوى أشدّ ضباطى وجنودى جأشا لأنهم لم يتحملوا التغير السريع للطقس من البرد القارس إلى الحر المفرط.

كان هفستيون يتحمل تلك التغيرات المباغتة للطقس. ويحافظ على شهية الأكل وعلى القدرة على المداعبة وكان يؤكد لى أنه سيتبعنى إلى أقصى الأرض.

ماذا طرأ عليه حتى وافته المنية بتلك السرعة وبصورة مباغتة ما إن أحس بالمرض فى حين أنى حذرت قلوكياس والأطباء الآخرين وقلت لهم جميعاً إنى أحملهم مسئولية مآل صاحبى المحبوب؟ لم يهتدوا إلى علاجه أو لم يعبأوا بما قلته لهم غير مقدرين لأثر موت هفستيون فى نفسي. وإنه لأثر عظيم لا يستطيع أيٌّ كان أن يقدر مداه.

أنا أعلم أن التاريخ لن يغفر لى -من بين المآثم التى ينسبها إلىّ- أن أمرت بصلب قلوكياس ونفى جميع الأطباء حتى أواجه الموت وحدى ساعة الموت وبمعزل عنهم.

يذكرنى أولئك الأطباء المشعوذون بصديقي. يذكروننى بنهايته وهلاكه.. الهلاك..

ما كنت أود فى هذه الساعة بالذات أن أعيد ذكرى هفستيون. إذا سيطرت هذه الذكرى على وجدانى عجزت عن مواصلة كتابة هذه السيرة. أريد أن أركز أفكارى ما استطعت وما دمت أحتفظ فى ذاكرتى بذكريات واضحة وذلك لأقص سيرتى بصورة لا يستطيع أيّ كاتب أن يقصها.

الإسكندر يتحدث عن طفولته ومعلمه

ها أنا عدت بذكرياتى من جديد إلى مدينة بيلاّ

اعتنى بى وأنا طفل أستاذان جيدان هما ليونيداس الأبيرى الذى كانت له قرابة مع أمّى أو لمبياس ولوسيماخوس وليد إقليم أكارنانيا.

وأذكر أيضاً حاضنتى لانيتى التى كانت ترعانى فى ذلك العهد.

جميعهم وهبوا إلىَّ الكثير ولم يتركوا فى نفسى شيئاً! كانوا معتدلين فى سلوكهم قد شكلوا من طينة لزجة يُصنع منها الرجال العادلون الجامدون أما أنا فإنى لم أسبك من هذه الطينة. كان يخيفنى الاعتدال وذلك فى جميع مظاهر النشاط الإنسانى وفى جميع منشآت البشر وحتى فى تلك الحياة اليومية الوديعة التى كان يحن إليها بعض جنودى عقب غزواتنا المنهكة.

كانوا يحنون إلى الدويرة والمرية والصبية.. ما كانت رؤيتهم تتجاوز موقد بيوتهم.

فكنت أخاطب نفسى قائلاً: يا لهم من مساكين؟ وكنت أقسو عليهم أحياناً فأصيح قائلاً: يا لهم من أغبياء! وأغضب عليهم وكنت أشمئز من سلوكهم ولو أنى كنت أرى أنه يحق لهم أن يكونوا كذلك من وجهة من الوجوه ولكن ما كنت أشاطرهم شعورهم.

ماذا أقول عن أرسطوطاليس؟

أتساءل هل أنا قادر على الحديث بصورة مجملة عن أستاذى أرسطوطاليس. كانت شخصيته مغايرة تمام المغايرة لشخصيتى ليونيداس ولوسيماخوس. كان فكراً مطلقاً فى مجالات المعرفة والبحث والتقصي. ولو أنه يدعو أحياناً إلى ذلك التعادل الطريف بين ما نصبو إليه وبين ما نستطيع تحقيقه الذى كان ميزة من ميزات تعليمه.

أمّا هو فقد تجاوز كل ذلك. تفوّق على الزمن وأخضع النفس وتجاوز إمكانات استيعاب الإنسان للمعرفة وهى تقف دائماً عند حد معين.

كان أرسطوطاليس يرفض الحدود التى تفرضها طبيعة الإنسان. ما كنت أشعر بذلك فيما كان يلقنه إيّاى من تعاليمه طوال ساعات متوالية من التدريس بل فيما كان يظهره من قدرة تتجاوز طاقة الإنسان. وما دل تلاميذه يوماً عن مصادر قدرته ولكن كنا جميعاً نحس بوجودها تماماً وبكل وضوح. وقد صاحبنى هذا الشعور مدى الحياة وما زال يلازمنى إلى اليوم.

قلت له مرّة بقصر ميازا بعد الدرس.

- سأكتشف يوماً أقاصى المعمورة.

فنظر إليّ مبهوتاً وقال:

- وكيف ذلك؟

فقلت:

- بقوّتي.

ربما همّ بإجابتى وإبداء رأيه فيما قلت ولكنه لم يفعل. وأحسست فى تلك اللحظة بأن بين الأستاذ والطالب نقطة التقاء وتماس عميقة الغور وهى أننا كنا نؤمن إيماناً راسخاً بأننا قادران على بلوغ حدود طاقتنا ثم تجاوزها للوصول إلى الهدف الذى يدفعنا إليه حماس لا يفتر.

أنا مدين بالكثير لأرسطوطاليس وأساساً بما أسميه «حياتى الأخري» وقد بدأت أعيش تلك «الحياة الأخري» ابتداءً من اليوم الذى حدثنا فيه معلمنا عن بطولات أخيلوس وهو يدرس تلاميذه بقصر ميازا. وأن بطولات أخيلوس هى التى ساقتنى إلى هنا.

عندما قرر فيلبوس أن يرسلنى إلى أرسطوطاليس لأستفيد بدروسه كان ذلك القرار أحد القرارات الصائبة التى اعتاد اتخاذها فى الوقت المناسب. لقد مكننى من الحصول على ثقافة متينة لقَّنها إيّاى أستاذ حكيم وأبعدنى فى الوقت نفسه عن أولمبياس وعن تأثيرها عليّ وكثيراً ما كان يقول إن تأثيرها وخيم. كما أبعدنى أيضاً عن ميدان بطولاته وسخافاته لأنه كان يعلم أنه يشق عليّ أن أرى أبى سكران ومحاطاً بمحظيّاته. كنت فى ذلك العهد لا أتصور أن قائداً عظيماً وبطلاً مغواراً يسمح لنفسه أن ينغمس فى الشهوات واللذات بدافع البحث عن المتعة أو بوازع التسلية.

أمّا الآن فإنى أقبل ذلك السلوك بصدر رحب لأنى أصبحت أعتقد أن الشهوات ضرب من العظمة فهى الصورة الإنسانية لها.

ما زلت أحتفظ فى قرارة نفسى بصورة حية نابضة لأرسطوطاليس. وأنا مدين له بجميع ما حققته من أعمال جليلة أثناء هذه المغامرة التى خضتها بحماس لم يفتر منذ سنوات عديدة.

وأنا مدين له أيضاً باكتشاف العظمة التى تبلغ أرقى مستويات الألوهية والإنسانية معاً. وقد كشف لى هذا اللون من العظمة بشرحه لملحمة هوميروس عندما كان يقضى الأيام والشهور فى التعليق على غضب أخيلوس المقدس ذلك الغضب.. الذى أكتسب قداسته من الصداقة التى كانت تجمع بينه وبين باتروكليس.

لا أعلم هل افتتنت يوماً فى حيات بشيء أكثر من افتتانى بملحمة الإلياذة وهل استهوانى وسحرنى بطل مثلما استهوانى وملك نفسى أخيلوس. وقد حملت معى الإلياذة. والكتاب موضوع دائماً بجانب فراشى كما لو كان قطعة من نفسي.

ولو لم يعلمنى أرسطوطاليس إلا الغوص فى معانى هوميروس لما كنت اليوم مشبعاً بنفس القدر بمعانى الجمال والعظمة.

إن معنى العظمة هذا هو الذى يدفعنى فى كثير من الأحيان إلى الانزلاق إلى الغضب ذلك الغضب الذى كان يثير اعتراض كاليستان.

أنا أعلم أنّ خلاّن الوفاء لن يغفروا لى فتكى بهم كما لن يغفر لى ذلك السلوك المؤرّخون الذين سينكبُّون على سيرتى درساً وتمحيصاً.

كان كاليستان زميلى بميازا. وكان تلميذاً لأرسطوطاليس وقريباً من أقربائه. وكان معلمنا يحبه ويستجبه. وربما كان كاليستان هو الوحيد

الذى يستطيع أن يكتب قصة رحلتى التى ما عرفت لها نهاية لأنه عاش معى حلمى منذ اللحظة الأولى وصاحبنى فى غزواتى متنقلاً معى من قطر إلى قطر.

ولكن كاليستان كان يتميز بعقل رصين يتناول واقع الأشياء فيحلله. فكان عاجزاً على تجاوز الوجه البارز العارى للأحداث لاكتشاف وجهها الخفيّ والعثور على الضرورة التاريخية التى ولدتها. وكان لأجل ذلك يثور على كل ما يعتبره عن يقين منافياً لما هو طبيعى ومتجاوزاً لحدود «المعقول». فكان يعتبر غزواتى زحفاً عسكريّاً واستيلاء على الأقطار والعباد وكان يعتقد أن الشعوب تفصلها حواجز.لا تُزال وأن اليونانيين والفرس والميديين لا يستطيعون العيش معاً. فكان يظن أنى أريد فقط إرضاء طموحى عندما رضيت بأن تدين لى جميع شعوب آسيا وتعتبرنى ملكاً لها وإنّى كنت أشعر بالمتعة لأنى قدرت على إخضاعها فى حين أنى أحس ولا شك من وراء ارتياحى وإعجابى بنفسى برغبة عارمة فى أن أرى الناس جميعاً يلتقون عند نقطة واحدة تجمعهم.

لا أسعى لتبرير قتلى لكاليستان ولا للعديد من خلان الوفاء الأعزاء الذين صاحبونى فى مسيرتى وقاتلوا معي.. لأن الدفاع عن النفس ضرب من الندم وبالتالى هزيمة. وأنا لا أقبل أن تكون الهزيمة إحدى ضرورات الحياة. ولكن أرضى بها فقط كصورة من عقاب الآلهة يسلط على البشر عن طريق فرض الموت عليهم جميعاً.

سيكتبون عنى -ولا شك- أنى انغمست فى حياة الترف التى يهواها

الميديون وأنى سلكت سيرة ملوك العجم الذين يفرضون على رعاياهم الطاعة العمياء وسيعللون كثيراً من مواقفى من هذا المنطلق. وقد عبّر كاليستان بوضوح عن وجهة النظر هذه عندما رآنى حاملاً التاج الفاخر الذى حمله ملوك الفرس العظام فقال:

- «ألهذا أتينا إلى هنا؟ ألهذه اللحظة من الزهو الفارغ؟

هل كنت أستطيع أن أطالب كاليستان بإدراك ما يختفى وراء ظواهر الأمور؟

ما هى الطريقة التى كان ينبغى أن أتوخاها لمطالبة جميع الذين كانوا مصرين على أن لا يروا إلا الزهو فى موقف ينطوى على السعى إلى تحقيق مشروع عظيم؟

كيف كنت أستطيع ذلك؟

***

ذكريات الإسكندر عن حملاته العسكرية

وها هى خواطرى تجرنى مرة أخرى بعيداً عن التسلسل الزمنى للأحداث وسوف تجرنى أيضاً نحو آفاق متعددة.. أعلم ذلك جيداً.

أحس بنفسى من الآن فصاعداً كما لو كنت مطلاً من أعلى ربوة، يهزنى نفس الشعور الذى يشعر به القائد الأعلى للجيش غداة المعركة عندما يطل من أعلى ربوة على انتشار جيوشه فى الساحة تأهباً للمعركة الحاسمة فيضع فى تلك اللحظة اللمسة الأخيرة لمخطط سير العمليات الحربية.

كذلك أشرف من المرتفع الذى أحتله فى هذه الآونة على جميع لحظات حياتى وجميع أعمالى دون أن أستطيع التمييز بها.

كل عنصر من حياتى يحتل فى ذهنى نفس المنزلة وله نفس الوزن. سيان عندى أبعد الأحداث فى الزمن وأقربها وأبعد مساعديّ عن نفسى وأقربهم منها.

جميع الأحداث ماثلة معاً وجميع الأشخاص أيضاً. قد احتل هؤلاء أمكنتهم فى صفوف جيش يستعد للقتال فى مكان فسيح.

وأنا طريح فى هذه الخيمة المضروبة فى نواحى مدينة بابل تهزنى حمى بلغت أقصى ذِروتها أنظر إلى حياتى من أعلى الربوة بنفس الشعور الذى أنضجته الأيام وهو أن كل ما جرى كان ينبغى أن يجرى حسب ما جرى عليه.

لا توجد علامات دالة على المراحل التى قطعتها فى المغامرة التى خضتها وذلك ابتداءً من سنوات الدراسة القليلة جدّاً التى قضيتها مع معلمى أرسطوطاليس إلى مقتل أبى بمدينة أيقاى الذى تلاه استلامى الحكم فى مقدونيا وتقلدى رئاسة جميع الشعوب اليونانية.

قد احتاط فيلبوس لكل شيء ابتداءً من وجوب الزحف على الفرس كما لو كان مدفوعاً بتوجس غريب أو كما لو نظر فى جميع الإمكانات وبالضرورة فى هذه النهاية. ولم يترك لى أية إمكانية لتغيير سير الأمور. فلم أستطع تبديل سياسة أبى ولا إعادة النظر فى الاستعدادات التى أمر بها. فتبنيت مشروعه بصدر رحب وعقدت العزم على مواصلة تنفيذه.

ولكن أبى رغم حصافة رأيه لم يضع فى الحسبان خطورة الثورات التى اندلعت عقب وفاته المفاجئة.

كان فيلبوس يحس بأنه يوجد من بين من يدعون أنهم له أصدقاء وحلفاء فريق يترصد الساعة التى يسقط فيها وذلك ليتخلصوا من الوصاية المقدونية. ولكن ما كان يتوقع كثرة عدد هؤلاء ولا أهمية العدة التى أعدوها فى الخفاء فاستطاعوا بها إضرام ثورات متعددة اندلعت فى الساعة التى أعلن فيها عن اغتيال الملك.

قاومت تلك الثورات بالطريقة التى توخاها أبى طوال حياته أى قمعتها بشدة وشراسة فلم أشفق على أحد ولم أرحم أحداً.

ارتكب المتردون خطأ جسيماً عندما لم يضعوا فى حسابهم رد الفعل هذا كانوا يتخيلون أن صغر سنى يجعلنى عاجزاً على مواجهتهم وأن قمع

ثورات عديدة تتفجر فى نفس الوقت فى كامل أرض يونان يفوق قدراتي.

أثبتت معاملتى اياهم عكس ما كانوا يتوقعون. فالملك الشاب أو «الفرخ الوديع» كما كانوا يسموننى ازدراء بى يعرف كيف يفرض نفوذه وله من قوة الإرادة ما يجعله قادراً على ذلك مهما كانت رباطة جأش من يدفعه طموحه إلى منازلته. وقد قاومهم الملك الشاب دون أن تأخذه أية رأفة سخيفة بهم. كان سلوكه معهم سلوك كبير القوم المهيب المستعد لتجاوز كل الصعاب الذى لا يتردد لحظة فى التعريض بحياته لبلوغ هدفه سواء أكان البلوغ إلى الهدف من قبيل الممكن أم من قبيل المستحيل.

ولنكن صرحاء مع أنفسنا. ما هى المعايير التى نستطيع بها أن نفرق بين الممكن والمحال إذا شرعنا فى عمل ما أو خضنا غمار معركة؟ أنا لم أستطع العثور عليها.

ما إن قمعت تلك الانتفاضات حتى أمرت بانطلاق الحملة العسكرية الكبري. كان انطلاقها مجازفة خطيرة. ولكن انطلقت الحملة بصورة مرضية وحسب الخطة الدقيقة التى وضعتها بنفسي.

بدأت المسيرة على رأس جيش حشدت جنوده من جميع أقطار بلاد اليونان ومن المدن التى كانت تؤمن بضرورة تنظيم هذه الحملة ومن المدن التى أرغمت على الإيمان بها لأنها لم تكن قادرة على أن يكون لها موقف آخر باستثناء مدينة إسبرتا.

كنت قادراً على اللجوء إلى القوة لإرغام هذه الأخيرة على المشاركة فى الحملة ولكن أمسكت عن ذلك.

سيعلق كثير من الناس فى المستقبل على موقفى إزاء أهالى إسبرتا. سيدلى كل واحد منهم بالتأويل الذى يروق له. أما أنا فانى سأفوه فقط بهذه الكلمة أمام التاريخ: «باستثناء أهالى إسبرتا». وفى هذه الكلمة وحدها تعبير واضح عن موقفي.

صحبنى إذاً فى غزواتى جميع اليونانيين ومن بينهم العلماء والفلاسفة والممثلون والشعراء.

لماذا اصطحبت الشعراء؟ سيدلى كل واحد برأيه فى هذا الموضوع ولن يعثر أحدهم على حقيقة الأمر وهى فى حوزتي.

كان أرسطوطاليس يقول إن الشعر أقرب إلى الفلسفة من التاريخ. أما أنا فإنى أرى أن الشعر فلسفة تؤدى بنا إلى وعى ماهية الإنسان ووعى التاريخ. هذه الفلسفة هى طبعاً عديمة الفائدة ولكن ما هى الفلسفة التى تتجرُّ عنها فائدة عملية؟

أردت أن يصحبنى شعراء فى الحملة التى سهرت على تنظيمها. كنت أنتظر منهم أن ينشدوا شعرهم أو شعر غيرهم فى الولائم بنبرات مطابقة للمعني. ولكن قليلاً ما كانوا يوفقون إلى العثور على تلك النبرة. كنت أريد أن ينشدوا أشعارهم فى الساعة التى أجتمع فيها مع خلان الوفاء للسكر. وإذا كان إنشادهم رديئاً كما يقع عادة فإنى كنت أنتظر منهم على الأقل أن يساعدونا على الانغماس فى النوم الذى يتبع السكر. ما أحلى النوم على نبرات الإنشاد بعد التوتر الذى يحدثه القتال عندما ندق قدحاً بقدح مزهوين محتفلين بالنصر ولو كان أداء الشعراء لشعرهم سقيماً!.

كانت تخامرنى فى الواقع أمنية غامضة لما عزمت على ضم الشعراء إلى حاشيتى كنت أتمنى أن يبرز أحدهم على الأقل قدرته على تأليف قصيدة ملحمية عظيمة للإشادة بحملة عسكرية ستبلغ أقصى الأرض وتتجاوز فى الجرأة والقوة كل الحملات العسكرية التى قادها غيري.

كانت أبيات الإلياذة ترن دائماً فى أذنى مثلما سمعتها من أرسطوطاليس ثم من هفستيون. كنت أستمع إلى تلك الأبيات فأتخيل عاصفة هوجاء تشقها من حين لآخر ومضات بروق تعمى الأبصار وتبعث الفزع فى النفوس.

ولكن لم يلب أحدهم تلك الرغبة الكامنة فى نفسى ولم يستطع أى واحد منهم تطويع اللفظ حتى يصبح قادراً على الإيحاء بقوة باحتدام المعارك وبالجزع الذى يسكن قلوب المقاتلين وعلى تشخيص اللحظات التى تسمو بالنفوس إلى أعلى درجات البطولة أو اللحظات التى تحط بها إلى أسفل درك الاستسلام واليأس.

لم يؤلفوا أبياتاً من الشعر إلا للإشادة بالانتصارات التى حققتها أو لتسليتنا بتقديم شعر حلو شبيه بالمرطبات التى تقدم إلينا بعد الطعام. لم يسعفنى الحظ حقّاً ولربما يعود ذلك إلى حسد الآلهة الذين لم يرضوا أن تعادل الملحمة التى كنت أحققها ملحمة الإلياذة ولم يشاءوا أن تبقى ملحمتى ماثلة إلى الأبد فى ذاكرة الناس.

لقد سلمونى مكتوف الأيدى إلى مؤرخين متحذلقين أفقدوا مغامرتى الصفة التى تتفرد بها أساساً بين مثيلاتها وهى أنها تجسيم لحميتى

النادرة التى تسمو بى إلى مقام الآلهة ولتوقى إلى التوغل فى المجهول حتى أنتهى إلى عتبة الألوهية عند ذلك الحد الذى يفصل بين الحياة والموت.

عندما لم تحظ الحملة ببروز شاعرها سقطت بين مخالب المؤرخين وحدهم كما أصبحت أنا وخلان الوفاء فريسة بين مخالب الأطباء الذين كانوا يحبوننا وهم ينتظرون الساعة التى يتناولوننا فيها بالتشريح ولم يكونوا قادرين على إنقاذ هفتسيون من الموت الزؤام.

ربما كان سحرة بلاد الكلدان وكهنتها أقدر على معالجته من أطبائنا ولكن لم أهتد إلى الالتجاء إليهم فى الساعة التى كان خليلى المحبوب يتجرع سكرات الموت.

هل كان موته نتيجة حسد الآلهة لى على الصداقة التى أكنها له فاختطفوه منى فى الوقت الذى كنت فيه فى أشد الحاجة إليه؟

هل حسدونى على تلك الساعة التى وفقنا فيها معاً أنا وخليلى أمام ضريح أخيلوس وباتروكلوس بطروادة. فأقسمنا على أن ننمى صداقتنا حتى تصل إلى مستوى الصداقة التى كانت تربط بين البطلين؟

أرانى أُغلب شيئاً فشيئاً هذا الاستنتاج لأن الآلهة يحقدون الحقد المكين على كل إنسان يسمو به سلوكه إلى منزلة قريبة من منزلتهم وهم يعتبرون أن منزلة الألوهية تعود إليهم فحسب.

ما زلت أتحدث عن الظروف التى أحاطت بحملتى فى بدايتها وعوض أن أحاول إضفاء شيء من الترتيب على الأحداث القاسية التى تعاقبت بعد انطلاق الحملة أرانى لا أزال أسجل تلك اللحظات التى عشتها فى

أعماق نفسى والتى تكون مسيرتى الذاتية.

وبالفعل فإن تلك اللحظات وحدها هى التى تهمنى فى سياق هذا الحديث. تدفعنى إلى ذكرها بالتفصيل رغبة عميقة وعارمة فى أن أحياها من جديد مع ما أوحته إليّ من شعور بالعظمة والتمزق وما بثته فيّ من حماس بلغ الذروة ومن تعلق بالعزلة.

ليست تلك اللحظات ملكاً للتاريخ ولن تصبح فى يوم من الأيام غنيمة بين يديه بل هى لحظات ذاتية صرف فى مغامرة الإسكندر فلن يتناولها اى إنسان بالدراسة. هم جميع المؤرخين تحليل الأحداث الخارجية الجسام مثل الانتصارات الباهرة والالتحام مع العدو وإحراق مدينة برقامون وحفلات الأعراس مع أميرات آسيا.

فما هى أهمية بعض اللحظات التى عشتها فى وحدتى إزاء ذلك الخضم من الأحداث المدهشة التى صحبت تلك الحملة العسكرية الطموح التى قدتها وأنا محافظ على عزلتى وانفرادي.. ليذهب بها الزمن ولينسها الآلهة. ذاك أفضل لها لأنى لا أرضى أن تسقط تلك اللحظات بين أيدى كتاب تميل نفوسهم إلى الكآبة فلا يترددون فى مسخ عناصر أخرى من حياتي.

فلتبق إذاً تلك اللحظات لى وحدى ولتكن ذكرى لساعات الضيق والألم التى هى نصيب كل إنسان فى هذه الدنيا.

***

الإسكندر ومدينة «ثيباي»

خرّبت مدينة ثيباى فى المرحلة الأولى من الحملة. وقد سبق لى أن ذكرت قضائى عليها. فلا أريد أن أعيد ما قلته عنها. ولكن أحسّ بحاجة ملحة إلى التأكيد من جديد على أن إبادة «الكتيبة المقدسة» كانت من بين وقائع تلك «المغامرة» الجريئة الواقعة التى تركت فى نفسى أسواء الأثر.

اقترف الثيبيون جرائم عدة فكيف السبيل إلى الصفح عن جميعها وكيف الإغضاء عن الأخطاء التى ارتكبوها والمطامح التى جعلتهم ينشقون عن اجماع اليونانيين أثناء الحروب الميدية؟

كيف أستطيع أن أنسى - ولو أنى حريص دائماً على النظر إلى الأحداث بشيء من التجرد - أن الثيبيين تقدموا فى نهاية حرب البيلوبونيز بعرض يتجاوز فى البشاعة كل ما بلغ إلى علمنا. فقد اقترحوا تدمير أثينة أجمل المدن اليونانية وتسويتها بالأرض حتى لا يبقى أيّ أثر لعظمتها؟

نعم. كل ما قلته عن ثيباى هو عين الحقيقة. وحق أن ينالها جزاء ما اقترفت. ولكن أمر «الكتيبة المقدسة» مختلف. كانت تجسم فترة نيرة فى مسيرة تاريخنا بل كانت لحظة ساطعة فى تاريخ البشرية جمعاء تألقت فيها الصداقة وهى ألمع عاطفة تصل الناس بعضهم ببعض وسمت إلى منزلة قاربت فيها منزلة الآلهة الخالدين.. كان عبور مضيق الهلسبون

أول خطوة حاسمة لتحقيق أهدافي. كان عبوره أول الخطوات وأصعبها وكنت أتوقع أن تمكننى تلك الخطوة الأولى من سبر طاقة جنودى على تحمل الشدائد وعلى الخضوع إلى الأوامر.

هكذا كان شعورى آنذاك!

وقد ساعدنى ذلك الشعور مساعدة قيمة كما ساعدنى إيمانى الراسخ فى أعماق النفس بأن الآلهة لا يتباطأون فى شدّ أزرى فى جميع الظروف. ولذلك لم أتقاعس فى تقديم القرابين لهم وإقامة الحفلات الدينية لتمجيدهم كلما فتحت مدينة أو احتللت إقليماً من الأقاليم.

وقد بادرت بعد عبور الهلسبون بإراقة الخمر من الأكواب إكراماً لبوسيدون وبناء مذابح لعبادة زيوس وأثينا وجدّى هيراكليس شيّدتها بيدي.

لا أعلم هل كان الآلهة راضين عنّى عندما شاهدونى أبالغ فى إكرامهم بتقديم الأضاحى وبناء المذابح وإقامة الطقوس الدينية. ولكن أعلم علم اليقين أن عزيمة ضباطى وجنودى تشتد وتقوى عندما يلاحظون حرصى على إقامة الطقوس الدينية ويشاهدون ورعى عند العبادة. كان يعرف جميعهم أن نجاح الحملة متوقف لا على مساعدة حلفائنا فحسب بل أيضاً على مساندة الآلهة.

ومهما كانت الظروف فإن مساندة الآلهة نفيسة ولو اقتصرت على شد معنويات جنودى فى المغامرات التى هم مقدمون عليها والشدائد التى يتأهبون لخوض أهوالها.

إذا أظهر قائدهم ذلك الورع العميق وهم يعرفون قوة جأشه وعزمه

الراسخ على بلوغ الهدف الذى رسمه لنفسه وإذا لم يفتأ يقدم للآلهة القرابين ويبنى لعبادتهم المذابح فحرى بالجنود أن يقتدوا به وأن يتوكلوا أكثر منه على الآلهة فى الملمات الجسام التى تنتظرهم وأن لا يستسلموا لليأس عندما تعترضهم فى حملتهم صعوبات عابرة.

أنا أعلم جيداً أن الكُتاب الأقزام الذين سيقصون سيرتى وحملتى وخاصة منهم أخبث القوم طوية سيدعون عندما يعلقون على سلوكى أن ذلك الورع هو فى الحقيقة موقف مصطنع ينم عن فطنتى ولباقتي. غايته تقوية عزائم من صاحبنى فى هذه الرحلة العظيمة وذلك بالإشارة إلى أن تقوى الآلهة والتقرب إليهم أفضل طريقة لجلب الخير والبركة لهم.

ليكتب هؤلاء الأقزام ما لذّ لهم! وأتوقع أنهم لا يقتصرون على إصدار هذا الحكم الجائر عليّ بل سيصدرون أحكاماً جائرة أخري. وحق لهم أن يقولوا ما يقولون وأن يصدقوا كل رأى يخامر عقولهم.

أما أنا فيحق لى أن أروى قصتي. وأعنى بذلك قصتى الحقيقية كما عشتها بجوانبها النيرة وجوانبها المظلمة أيضاً لأن مغامرتى تنطوى على قطع كبيرة من الظلام وليال دامسة تغطى الأضواء الساطعة التى تشع من انتصاراتي.

ذكرت الليالى الدامسة التى أطبقت عليّ فى كثير من المناسبات ولا يفوتنى أن أذكر أيضاً ما يهدد سيرتى فى المستقبل فيوشك أن يشوهها مدى الدهور. سيعمد كتاب متصنعون حقيرون أو مؤرخون هواة أو علماء بالصدفة إلى دراسة سيرتى فلا يبرزون منها إلا انتصاراتى ومشروعاتى

العظيمة. وقد يغمرنى هؤلاء بوابل من الإطراء الذى لا جدوى من ورائه فأقول فى نفسي: لو كنت حيّاً فى زمانهم وسقطوا فى قبضتى لقطعت رؤوسهم الفارغة.

أود بهذه المناسبة أن أؤكد أن المدح البليد الذى لا ينطوى إلا على الفراغ خطر ومضر مثل النميمة. ذلك الضرب من المدح له طنين يشبه طنين الدن الفارغ ويترك الممدوح أضحوكة بين العابثين.

لو خيّرت بين المديح التافه وبين الشتائم البشعة التى يكيلها لى ولأبى ديموستينيس لاخترت الأخيرة.

عندما يستمع المرء إلى ديموستينيس يشهر فى الساحة العامة بأثينة بأخطائنا وخصالنا معاً يستطيع ولو كانت له بذرة من العقل فقط أن يميز بين ما هو نميمة وما هو حقيقة. ولكن يختلط الأمر عند الاستماع إلى مديح تافه. فكيف يستطيع المرء أن يعرف ما الذى ينبغى أن يعتمد وما الذى ينبغى أن ينبذ من الكلام الفارغ الذى يقذف به كتاب الصدفة ضحية هذيانهم.؟

أنا أعلم جيداً - ويا للأسف- أنى سأتعرض فى كثير من الحالات لحماقتهم المفرطة وحسدهم الدفين. أنا أعلم أنهم سينتقمون منى لأجل كل عمل عظيم قمت به لأنهم عاجزون على تصور وقوعه ولو فى أحلامهم.

نصغر من كل عظيم فى هذه الدنيا بطريقتين متساويتين فى النجاعة: إما بالثلب المفزع الذى يترك دائماً فى النفس أثراً غامضاً شبيهاً بالضباب الذى يغمر كامل أرجاء المدينة أو بالمدح المسهب الذى يفضى إلى الازدراء بأشرف الأبطال.

أخشى أن لا أنجو من أحد الخطبين. وأتوسل إلى الآلهة حتى يجنبونى - إن شاءوا - تلك المحنة. وإذا قدروا لى أن أجازى بأحد الخطبين فانى أفضل أن أكون طعمة فى أفواه النمامين.

الأجدر بى أن يمزقنى هؤلاء بشتائمهم الصادرة عن نفوسهم الشريرة المليئة حسداً بدل أن أرانى محل السخرية من جراء تملق محترفى الخطابة ومحتكرى الوطنية الضيقة.

واجهت الفرس لأول مرة على ضفة نهر قرانيكوس: وكان لقاء حاسماً فى نظرى ونظر جنودى لأنه توج بنصر باهر أحسسنا جميعاً أثره بنخوة لها ما يبررها.

ملأ هذا النصر الأول نفسى غبطة فنظمت الحفلات وأقمت الولائم حتى نحتفل جميعاً بهذا النصر الاحتفال الذى يستحقه.

وسألنى أومان عن الطريقة التى أود أن يتوخاها لتسجيل وقائع معركة قرانيكوس فى «اليوميات الملكية» بصورة ترضينى وترضى صحبى وتجعل الأجيال القادمة تجد فيها مادة للشرح والتعليق ودافعاً للفخر. فأجبته قائلاً:

- إن معركة كهذه ليست فى حاجة إلى الكلام.

وأوكلت له الأمر حتى يتصرف كما يشاء. ولم أطلع على ما كتب بشأن الواقعة. وانى لأخشى أن أكتشف يوماً أنه وقع فى الفخ أعنى فخ الإسهاب.

لقد حملنى انتصارى على الفرس فى معركة قرانيكوس مسئولية عظمى ومقدسة لا رجوع فيها تفرض على تحرير جميع المدن الساحلية

اليونانية المزدهرة التى ترزح تحت نير الفرس.

وإذا قلت إن تلك المدن كانت مزدهرة فإنى لا ألقى الكلام جزافا ولا أجنح إلى نعت قد يشتم منه التزلف وقد قلت من قبل كم أنا أمقت هذا اللون من الخطاب. كانت المدن الواقعة على ساحل آسيا الصغرى مدنا مزدهرة حقّاً كان لكل واحدة منها إشعاعها الخاص بها واستطاعت كل واحدة منها إنشاء حضارة طريفة تميزت بها على غيرها من المدن.

حدثنى أرسطوطاليس المرات العديدة بإعجاب عن العلماء والفلاسفة والفنانين الذين اتصلت شهرتهم بشهرة تلك المدن التى نشأوا فيها. وكان يقول لى أيضاً إن هؤلاء الأعلام لم يفهمهم معاصروهم الفهم الصحيح ولم يدركوا كنه مقاصدهم كما سوف لا تفهمهم أيضاً الأجيال القادمة. وهذا ما يقع عادة لأمثالهم.

ينبغى أن تمر آلاف السنين حتى يستطيع الناس إدراك ما أتوا به من جديد مبتكر واستيعابه. وسوف ينبنى عالم الغد البعيد على أجرأ ما استنبطوه من رؤى بخصوص العلم والفكر وبشأن اللاهوت والناسوت.

نعم.. أنا مُدين لأرسطوطاليس لأنه زرع فى هذا الحدس كما أنى أغبطه على الموقف الآتى الذى وقفه: إن أرسطوطاليس قادر على أن يخص بإكبار لا يتزعزع العظماء. الحقيقيين الذين هم أهل الإجلال. وإنه يعرف كيف يلقى غيره ذلك الإكبار الحقيقى الصادر عن سمو نفسه. لم يحقر قط عظماء الرجال بصريح العبارة أو بالإشارة لإبراز خصاله كما يفعل سفلة العلماء والفلاسفة. كان واعياً تمام الوعى بقيمته

الشخصية وينضج عقله. فلم يكن يشعر بالنقص أمام عظمة الآخرين ولم يتلعثم إذا تحدث عنهم. كان يعترف بكل صراحة بأنه استفاد كثيراً من دراسة مؤلفات فلاسفة إقليم إيونيا وعلمائها وأنه مدين لهم بالاطلاع على تعاليم عديدة ساعدته فى بحوثه الشخصية عن الإنسان ومحيطه.

ولذلك كنت أحس بأن وازعاً ذاتياً يدفعنى إلى تحرير جميع تلك المدن اليونانية التى غمرتنا بأنوار حضاراتها وستغمر كامل العالم بعدنا. وكان ذلك الوازع الذاتى أقوى عندى من إيعاز الآلهة الذين كانوا يأمروننى بإنقاذها.

كنت أشعر بتأثر عميق كلما حررت مدينة من المدن الساحلية اليونانية بآسيا الصغرى لأنى كنت أجدنى فى كل مرة مبهوراً بنور حضارة طريفة ومميزة.

أمرت فى افسيسوس بترميم معبد الإلهة ارتيميس الذى اندلع فيه حريق فى يوم ميلادي. وقد ادعى كثير من الكهنة أن هذه الكارثة التى نزلت هى نذير شؤم. وقد صدقت تنبؤاتهم فرأيت أن الواجب يفرض عليّ تكريم الالاهة بإعادة البهجة والفخار لمعبدها.

كما أحسست فى أفيسوس أيضاً بواجب آخر يفرض عليّ أن أعفو عن بعض سكانها الذين شهروا السلاح فى وجهي. كان أهل أفيسوس الآخرون ينتظرون قدومى والأمل يملأ قلوبهم ليسترجعوا حريتهم وقد عقدوا العزم على إعدام من حاربنى منهم فى الساحة العامة حتى يكون مصيرهم عبرة لغيرهم. فامتنعت من موافقتهم على هذا القرار لأنى ما

كنت لا أريد أن تلوّث حملتى العسكرية بالتشفى وكنت أخشى خاصة أن يقع القضاء بهذا الصنيع على عدد كبير من الأبرياء تورطوا مع قلة من الانتهازيين. ويعلم جيمع الناس أن حقد الجماهير أعمى وأن العقاب الجماعى يجر إلى ما لا تحمد عقباه.

هيهات! لو كان هذا الرأى الذى أسجله الآن على ورق البردى رائداً لى طوال حياتى عند اتخاذ القرار لجنبت نفسى كثيراً من الزلات ولكن الأمر كان على خلاف ذلك. وربما تعزى هفواتى إلى صروف الزمن وإلى الشدائد التى نزلت بنا أثناء الحملة وإلى تغير سلوك كثير من أصدقائى نحوى حتى أصبحوا لى أعداء بعد أن كانوا خلاني. فساقنى ذلك كله إلى الانحراف عن سداد الرأى الذى لو حافظت عليه لجنبنى الأخطاء.

فتحت تباعا أفيسوس وسرديس ومقنيسيا وترليس وموكالى وهليكرنسوس، وكنت أشعر بالغبطة تغمرنى كلما حططت رحلى فى مدينة من تلك المدن. وكانت تلك الانتصارات المتعاقبة تعيننى على الاقتناع بعظمة الرسالة التى تحملتها.

لا أعلم هل استرجعت تلك المدن بهاءها القديم. ولكن كانت تستحق أن تحرر مهما كان الثمن الذى بذلته والتضحيات التى رضيتها والمعارك التى خضتها من أجلها ولو لم تقدم لزائريها إلا أطلالاً تشير إلى سابق بهجتها.

عندما انتهى بنا السير إلى هليكرنسوس داهمنا فصل الشتاء وكان شتاء شديد البرد. ولاحظت أن بعض الجنود المقدونيين بدأوا يحسون بالإنهاك. وكان أشدهم وهنا الشبان المتزوجون لأنهم أخذوا يحنون إلى

بيوتهم وزوجاتهم وأنهم لم ينعموا بدفء البيت وحنان زوجاتهم إلا قليلاً ثم سيق بهم إلى الحرب.

ولاحظ هفستيون ذلك أيضاً. فطلب منى أثناء مأدبة أن أمنحهم إجازة قائلاً:

- حظهم سعيد لأنهم يستطيعون أن يعودوا إلى أوطانهم وهى غير بعيدة. وسوف لا يقدرون على ذلك عندما تقودنا إلى أقصى الأرض. فهذه هى الفرصة الوحيدة التى يستطيعون فيها زيارة بيوتهم.

ما قاله هفستيون هو عين الصواب. ولذلك أمرت بجمع المقدونيين حولى وأعلنت لهم أنى أمنح إجازة لمن يرغب من بين الشبان المتزوجين أن يعود إلى موطنه لقضاء فصل الشتاء فى بيته. ولكن يجب على المتمتعين بهذه الإجازة أن يعودوا عندما يقبل فصل الربيع ليحتلوا من جديد أمكنتهم فى صفوف الجيش. وحملتهم مهمة الدعوة من حولهم فى أوطانهم للحصول على متطوعة من مشاة وفرسان يصحبونهم عند العودة ليعززوا الجيش.

وهكذا جنيت من هذه العملية ثمرتين: عودة جنودى المقدونيين إلينا آسفين على مغادرة بيوتهم الدافئة وفرش زوجاتهم، وقدوم تعزيزات للجيش فى صورة جنود جدد يأتون بدم جديد. وكان يشعر جنودى المجازون بعد العودة بأن أيام الإجازة مكنتهم من الراحة ومن استراجع قواهم استعداداً لشن هجومات أخري.

الإسكندر ومعركة إسوس

كنت شديد الإحساس بشعور استقر فى نفسى وهو أن الثلاثين ألف رجل الذين كنت أقودهم فى هذه الحملة التى لا يعرف أحد مآلها هم أصدقائى يساهموننى العزم ويشاركوننى التوق إلى مواجهة المغامرات.

كانت المحبة متبادلة بيننا وبالخصوص فى بدء المسيرة. وإنما أرغمت بعد ذلك على معاملتهم بشدة مع محافظتى على المحبة التى كنت أكنها لهم. وذلك أن كثيراً من الروابط ما فتئت تربطنا وأهمها -إضافة إلى انتمائنا جميعاً إلى شعب واحد- عزمنا على قهر عدو يجسم فى نظرنا خطراً جاثماً علينا منذ أكثر من قرن يهددنا ويهدد مدننا وعيالنا. ولم تكن المحن التى سلطها الفرس على أوطاننا هينة. والحق أقول. لو لم أقد الشعوب اليونانية ما عدا شعب لاكيديمونيا لمواجهة الفرس بعزيمة ثابتة رغم تفوقهم علينا من ناحية العدد أضعافاً مضاعفة لما كف داريوس عن الكيد بنا.

كان جنودى يعلمون ذلك علم اليقين وكنت حريصاً على ترسيخ ذلك اليقين فى أنفسهم قبل أن أخوض معركة إسوس.

أمرت بدعوة قوادى وضباطى السامين. وطلبت من خلان الوفاء أن ينضموا إليهم وخاطبت جميعهم بخطاب واضح لا لبس فيه. وشرحت لهم أننا أمام منعرج حاسم للحملة وأننا لن نواجه من اليوم فصاعداً جيوشاً

قليلة العدد ولكن سنقاتل داريوس نفسه على رأس جيش الفرس بأكمله.

لا شك أن الموقع الذى اختاره داريوس لخوض المعركة الحاسمة - عملا بنصيحة مشؤومة أسديت له - قد كان لنا مواتيا. ولكن ذلك الحظ الذى أسعفنا به القدر لم يجعلنا نتهاون ولا نتواكل لأنا كنا نعلم أن الجلد وحده هو الذى يرجح كفة الميزان. وأنه إذا عقدنا العزم على الانتصار انتصرنا كلفنا ذلك ما كلف. وقد قمت بعمل قبل معركة إسوس بأيام قليلة كان لجيشى مثالٌ يُحتذى وذلك عندما قطعت عقدة قرديون.

كان الناس يتناقلون بخشوع قولاً مأثوراً مفاده أن من يوفق لحل العقدة التى تربط جزءى المركبة المودعة فى معبد زيوس بمدينة قورديون يصبح سيد آسيا.

عندما دخلت المعبد لاحظت أن العقدة مشتبكة إلى حد يستحيل معه على أى كان حلها. وكان قوادى وخلانى وأعيان المدينة يزدحمون حولى عندما وقفت أمام المركبة. ويسددون إلىّ نظرات نافذة فاحصة وهم ينتظرون بفارغ صبر مباشرتى للعملية. لم يترك لى مجال للتملص. لابد لى أن أحل العقدة بطريقتى الخاصة لا أن أكلف نفسى البحث عن أطراف السيور محاولاً تخليصها من الاشتباك. فكان ينبغى أن ألجأ إلى تلك القوة الخفية التى تولدها العزيمة إذا بلغت منتهاها فتندفع كالنهر الجرار. فشهرت سيفى وقطعت العقدة.

وكان غرضى عندما قمت بتلك العملية أن أبعث فى نفوس جميع الحاضرين الدهشة وأفرض شخصيتى على أصدقائى وأعدائى معاً فيقبلوا سيطرتى على الجميع قبول الأمر الواقع كانت غايتى أن يقتنع

جميعاهم بأن الإسكندر المقدونى له طريقته الخاصة لحل العقدة. وسيكون ذلك ديدنه كلما عثر على عقدة فى مسيرته مهما كانت العقدة ومهما كان تشعبها.

ذكرتهم فى سياق خطابى بحادثة حل عقدة قورديون. فبدا لى أنهم سروا لذكرها. ثم بينت لهم أن طريق آسيا ستفتح لنا دون كبير عناء إذا انتصرنا فى المعركة التى كنا على وشك مواجهتها. ولكن ينبغى لنا فى هذه الساعة التى نتأهب فيها لخوض تلك المعركة الحاسمة أن نشهر سيوفنا ابتداءً منى وانتهاء إلى أبسط الجنود وأن نستعد جميعاً لقطع العقدة. ليس لنا إلا هدف واحد وهو سحق داريوس.

تعود بى الذاكرة إلى معركة إسوس وإلى النصر الذى ختمها فأشهد أحداثها كما لو جرت أثناء حلم تقادم عهده فأشعر بالنخوة.

لاقيت فيها داريوس لأول مرة. وكان هو أيضاً مقاتلاً شجاعاً مصمماً على الانتصار. ورأيته وهو واثق من نتيجة المعركة يقابل عدوّاً على صهوة فرسه محاطاً بضباطه. فكان داريوس أول من هاجمنا. وقفزت على متن حصانى بوكيفالوس ووجدت نفسى بعد لحظات أمام ملك الملوك وأنا شاهر سيفي. وقد انتظر جيشه وراءه كاليمِّ الطامي.

كانت تسنده صفوف متراصة تملأ الرحب. تعلوها صرخات متحمسة. كان بارمينيون وهفستيون بجانبي. وبعد قطع مسافة قصيرة ركضا على ظهر بوكيفالوس ضرب سيفى سيف ملك فارس. وسرعان ما انهال ضباطه المدججون بالسلاح من كل صوب فأحاطوا به وحموه بأجسامهم جاعلين من حوله سوراً منيعاً وتركوا له فى نفس الوقت فسحة للتقهقر إذا لزم

الأمر. ولاحقتهم يدفعنى إلى الأمام حماس فيّاض. كنا جميعاً منقضين عليهم مدفوعين دون هوادة بقوة وثبتنا الأولى عندما انقضضنا عليهم.

وقاتلناهم ونحن فى حالة هيجان وحمية. وكان الفرس يتقهقرون شيئاً فشيئاً أمامنا تحت ضغط هجومنا العنيف. مازالت صيحات الفزع تدوى إلى اليوم فى أذنى ومازلت أشاهد أشلاء العدوّ مطروحة فى الميدان ومازلت أرى جنودي فى أعقاب جموع فارس اللاجئة إلى الفرار.

غنمنا غنائم يصعب حصرها وأسرنا من الجنود ما يفوق العد وكان الأسرى يتضرعون ويطلبون منا أن نبقى عليهم. وقد قررت من قبل إبقاءهم أحياء لانى كنت أرى أن الملك ينبغى له أن يبقى على سلالة الملوك. وما كنت أشعر أن موقفى ذلك موقف نبيل بل هو فى نظرى موقف طبيعي. ولو أنى أعلم أن المؤرخين فى العصور القادمة سيلبسونه أثواباً لمّاعة تتلوّن بتلوّن موقفهم إزائي. لكأنى أسمع أنصارى من بينهم يقولون باعتزاز:

- هذا موقف آخر يكشف عن مروءة الإسكندر. سقطت أسرة عدوّه الأكبر فى قبضته فعاملها معاملة كريمة وكان قادراً على أن يستغل وجود أولئك السبايا بين يديه وفداؤهم لا يقدر بثمن لإجبار عدوه الألد على الاستسلام.

ولكن مؤرخين آخرين - وقد يكون عددهم أوفر من الأولين - وهم أولئك الذين يعتقدون أنى قمت بحملتى هذه إرضاء لطموح جارف لا تصده أى عقبة تعترضه سينعتوننى بالمكر والدهاء السياسى ويقولون إنى كنت أرمى بذلك السلوك إلى إحراز ثقة أحبائى وأعدائى معاً وإلى جلب إعجابهم بموقف إنسانى شهم يتمثل فى حمايتى لأسرة داريوس وإكرامها.

سحقاً لجميعهم! سحقاً للأنصار من بينهم وللمناهضين! نجوت من جموع أعدائى فى معركة إسوس ولن أنجو - ويا للحسرة - من أحكام المؤرخين الذين سوف لا يكفرون عن ملاحقتى إما بالطعنات الصادرة عن ضيق آفاقهم أو بشواهد الإعجاب الصادرة عن وهن التمييز.

أما داريوس فإن سوء تقديره للأوضاع قد ساقه إلى اختيار موضع إسوس للقضاء عليّ وعلى جيشي. فكان اختياره شؤماً عليه حتى قيل: «ساقه طالعه النحس إلى ذلك المكان».

وإن نفس الطالع النحس أوحى إلى داريوس أن يرسل إليّ رسالتين يندد فيهما بعزمى على جعل اليونانيين يسترجعون الثقة بأنفسهم وذلك بعد الهزيمة الشنعاء التى كبدتها إياه والتى لم يستطع تقدير خطورتها. وقد أبدى - والحق يقال - حماقة كبيرة بكتابة الرسالتين.

أنا لم أنس أن أجداد داريوس قد كالوا لنا جميعاً من الإهانات ألواناً ولم أنس بالخصوص أنهم احتلوا مقدونيا وأن داريوس التانى هرع جهاراً لإسعاف أهالى مدينة بيرنتوس عندما دفعت بهم الجرأة إلى محاربة أبي.

أجبت داريوس عن رسالتيه اللتين حرّرهما دون أن يتروى فى الأمر وحاولت فى جوابى أن أشرح له مآخذنا على أجداده وذكرته بأنه هو أيضاً قد أشعل نيران جميع الفتن التى واجهتها عند اعتلائى العرش ظنّاً منه أنه يستطيع إخضاعى لإرادته بأيسر السبل بإغداق الأموال الطائلة على أعدائى ودفع غائلة أولئك المقدونيين الوقحين الذين يتحاسرون على منازلة ملك الملوك وجيشه منازلة الندّ للندّ.

وأضفت قائلاً - ولو لم أكن يومها مقتنعاً تماماً بقوة - أن آسيا

أصبحت فى قبضتى وعليه أن يقبل الأمر الواقع ولو عن مضض وأن ليس له الخيار.

وتلقيت جواب داريوس عن رسالتي. وإذا به يعرض عليّ عرضاً ثانياً. يعرض عليّ كنوزاً لا حصر لها ظنّاً منه أنى سأبهر بهذا العرض المغرى وكان يعتقد أن قائد اليونانيين شاب غرّ لا خبرة له فى الحياة.

لا شك أن للذهب فتنة لا تقاوم بسهولة خاصة إذا وقع عرضه بكميات هائلة ولو تظاهر المرء الذى استهدف للإغراء الإمساك والعفة. وهكذا كان دأب داريوس مع من يريد إغراءه.

ولذلك بدرت إلى ذهن داريوس فكرة التقدم بذلك العرض الذى يرمى إلى اغراقى فى أكوام من الذهب مقابل فكّ أسر عياله وإنهاء الحرب. وقد عرض عليّ أيضاً إقليماً شاسعاً يقع غربى نهر الفرات اقترح عليّ أن أضيفه إلى الأقاليم التى فتحتها فى آسيا. وإضافة إلى تلك المغريات التى قد يهتز لها أيّ ملك أقل طموحاً وحيرة منى عرض على عرضاً أخيراً وفق فيه أكثر من العرضين السابقين: عرض على أن أتزوج من ابنته. وكان يظن أنى إذا قبلت مصاهرته أصبحت مواصلتى للحرب وملاحقتى للجيش الفارسى لا مبرر لهما بسبب انتمائى إلى أسرته بعلاقة دموية حميمة.

رفضت الكنوز والأراضى الشاسعة التى كان يتظاهر بمنحها إياى بنفس سخيّة لأنى كنت متيقناً من أنى أستطيع أن أستولى على هذه وتلك بكل يسر دون أن أحيد عن هدفى الأول وهو بلوغ أقصى الأرض بعد القضاء النهائى على مملكة فارس.

أما عرضه زواجي من ابنته - وقد أظهر لي أن ذلك العرض الصادر عن شعور أبي لا شائبة فيه هو غنم لي لا يعد له غنم - فلم يحرك فيّ ساكناً لأن الفتاة كانت سبية عندي وأستطيع مضاجعتها متى شئت.

واليوم وأنا أعيد ذكرى تلك اللحظات تتجاذبني الخواطر فأقول في نفسي: يحدث لعظماء هذه الدنيا أو بالأحرى لمن نعتبرهم نحن عظماء أن يرتكبوا حماقات. أهداني داريوس ما كان عندي وتظاهر بالتنازل لي عن جزء ضئيل من الأقطار التي احتللتها! ونسي أن الحرب القائمة بيننا نتيجة لقرون من الأطماع والطموحات والأحقاد وأن كل حل وسط في حرب كهذه أسوأ من أبشع الهزائم لأن أصدقائي وحلفائي لن يغفروا لي أيّ تواطؤ ولن يغفر لي ذلك أيضاً أعدائي في ذلك الظرف الحاسم الذي أقبلت فيه الأيام وكان كل شيء لي مواتياً: الآلهة والظروف الزمانية والأوضاع الجغرافية.

لو دخلت في مساومة مع داريوس وتنازلت له مقابل قناطير من الذهب وما التزم به من وعود أحرى لاستنقصني أصدقائي وحلفائي وأعدائي ولفقدت حملتي معناها. ما أحقر تلك المساومة إذا قورنت بحلمي الجريء الذي أثار آمال جميع اليونانيين سواء آمال من رضوا بي قائداً أو آمال من أُرغموا على ذلك فخضعوا للأمر الواقع. فمباركة الجميع لسعيي ومساندتهم لي منذ بداية الحملة لا تسمح لي بالتنازل والمراكنة.

ليس لي إلا جواب واحد أجيب به عن رسائل داريوس المحمومة وعروضه الخرقاء وهو تعزيز الصفوف ومواصلة الزحف بتسخير كل ما أوتينا من قوة مهما كانت خطورة العقبات التي تعترض طريقنا.

عززت الصفوف وواصلت الزحف رغم تعنت العدو الذى كان يقاومنا بشدة لأنه يعلم حيداً أن الحرب ستنتهى لا محالة بالقضاء المبرم على أحد الخصمين وأن العالم أضيق من أن يتحمل وحود دولتين عظميين فى وقت واحد.

كلفتنى مقاومة الفرس المستميتة خسائر فى الأرواح وضياعاً للوقت، وأرغمت فى تلك الظروف الحرجة على محاصرة مدينة صور وكان حصار المدينة منهكاً ولم نستول عليها إلا بعد بضعة أشهر.

أشعر فى هذه الساعات التى أبوح فيها بخفايا نفسى بالحاجة إلى أن لا أخفى شيئاً مما كنت أحس به، لكأنى أنظر إلى نفسى فى مرآة. أعترف والأسى يغمرنى بأنى استسلمت أحياناً إلى اليأس أمام أسوار صور وفى مناسبات أخري.

كانت تهزنى نخوة انتصارى فى معركة إسوس، فكنت أتوقع أنى سأحتل صور فى ظرف أيام قليلة وأنى أستطيع بعد احتلالها اكتساح سوريا ومصر ولكن الأمور لم تجر كما كنت أتوقع، لقد مكثنا أشهراً حول أسوار المدينة واستعملنا فى حصارها جميع المعدات التى كانت بين أيدينا واستخدمناها ونفوساً تلتهث حماساً فضاعفنا فاعليتها ونفاذها. ولكن حماة المدينة واجهونا فى كل هجمة ببطولة نادرة طوال ذلك الحصار الشديد، وكنت أرسل إليهم أحثهم على الاستسلام وأهددهم إذا أصروا على المقاومة بهدم كامل المدينة وتقتيل جميع سكانها. فكان جوابهم فى كل مرة أن قاومونا بمزيد من الجلد والبسالة.

فهمت أنى قد أضيع كثيراً من الوقت إذا لم أعثر على خدعة تمكن

من احتلال المدينة، وأن لا فائدة فى إضاعة الوقت لمواصلة حصار لا يرجى من ورائه الظفر. فدعوت قوادى وخلاني، وعرضت عليهم خطتي، وهى خطة تهدف إلى اقتحام تحصينا القلعة فى وقت واحد ومن جميع الجهات من طرف كتائب مكونة من خيرة الجنود نرسلها عندما نتم بناء قناطر تربط بيننا والقلعة من جميع جهاتها.

وقضينا أياماً وليالى فى النقاش لوضع الخطة فى صورتها النهائية، وكنت أتظاهر بالإنصات إلى نصائح قواد جيشى ولكن الخطة كانت مرسومة فى ذهنى بجميع جزئياتها ولا تحتاج إلا إلى منسق للعمليات يسهر على تطبيقها بكل إتقان وحسب القواعد الحربية المجربة. وأنا أقدر الجماعة على تنفيذ الخطة ولو أنى لا أستنقص كفاءة أعضادي. ذلك أن آراء الآخرين مهما كانت صائبة وراجحة لا تنفع فى ظرف حاسم ستبرز فيه نتيجة حصار كبدنا خسائر جسيمة فى الأرواح ومضيعة للوقت بل إن تعدد الآراء يبث البلبلة فى النفوس فتكون النتائج التى تنجر عنها وخيمة.

لا حاجة إلا إلى رأى واحد رأى القائد الأعلى الذى يقود جيوشه إما إلى النصر وإما إلى الهزيمة.

وبالفعل فقد أحرزنا على نصر عظيم بفضل خطتي. سقطت مدينة صور. وما قدرنا على اقتحامها إلا بعد حصار مرير دام شهوراً. ولكنها سقطت. وكان جنودى يحسون فى آن واحد بنخوة النصر وبإنهاك شديد. وفطنوا بعد حصار طال واستطال بأن قائدهم يكسب بالإضافة إلى خصاله ونقائصه قوة مدهشة تطمئنهم وتخيفهم فى نفس الوقت وهى

قوة الاصرار على تنفيذ ما قرره.

قد رأونى أحارب فى المقدمة غير مكترث بالأعداء الذين كانوا يحيطون بى من كل جانب وقد رأونى أيضاً أندفع أول الناس نحو العدو فى الوقت بالذات الذى يكونون فيه فى وضع حرج أو عندما يبدأون فى الانسحاب تحت ضغط الأعداء.

كنت أول من يعرض بحياته فى سبيل الهدف الذى ينبغى بلوغه حتى يدرك جنودى أن بلوغ ما نطمح إليه أغلى ثمناً من الحياة نفسها.

ولاحظ جنودى فيما لاحظوا أن قوّادى كانوا يعارضوننى ويتساءلون هل من المفيد أن نضيع وقتاً طويلاً فى حصار مدينة صور ويدعون أنه كان من الأنسب أن نواصل حملتنا فى اتجاه آخر.

ضايقتنى تلك التحفظات التى كشفت عن حرص هؤلاء على تجنب الصعاب والابتعاد عن الأخطر - أو بالأحرى وبعبارة خشية تترجم عن شعورى آنذاك - اشمأززت لتحفظاتهم.

قد يرجأ تنفيذ خطة ما ولكن لا ينبغى أن تقف أية عقبة فى طريق الحلم الطموح. وإذا اعترضت عقبة فصدت الطموح ينبغى أن نجد فى أنفسنا من القوة ما يجعلنا نذلل تلك العقبة مهما كان الثمن ولو كان ذلك الثمن بذل حياتنا.

***

الإسكندر فى المشرق العربي

احتللت مدينة صور ثم فتحت فينيقيا وسوريا وإقليم غزة ودخلت إلى أرض مصر.

ها أنا بمصر! وعاد إلى ذهنى ولازمه كل ما كاشفتنى به أولمبياس بشأن سلالتى الإلهية ونسبتى إلى الإله أمون.

مازلت أذكر كيف كانت تجتهد منذ عهد الطفولة الأولى لتلقينى الفكرة الطاغية على أحاسيسها والمسيطرة على حالات الابتهال والوجد التى كانت تعيشها وهى أن ابنها هو ابن الإله أمون وذلك فى مرحلة من العمر يحس فيها الصبى بأحاسيسه الأولى فيتفاعل معها أولى تفاعلاته.

ولما ثار بينى وبين فيليبوس شجار شديد اللهجة بسبب زواجه المزرى من كليوباترا التى هى فى سن ابنته وصحبت أمى إلى مملكة إبيروس حاولت هذه الأخيرة أن تغرس فى نفسى تلك الفكرة من جديد بحماس مضاعف.

كانت أولمبياس طول مدة المغاضبة التى قضيناها فى قصر أخيها ملك المولوس تستنكر سوء معاملة فيليبوس لها وتحاول فى نفس الوقت إقناعى بأن تصرفات أبى نحوها صادرة عن الغضب الشديد الذى استولى عليه عندما علم أنى ابن إله وأنى أحمل فى نفسى بذرة من عالم اللاهوت.

وكانت تصطحبنى إلى معبد زيوس بدودونا وهنالك بجانب شجرة السنديان المقدسة تحاول أولمبياس الحصول على تنبؤات بشأن القوة التى تمتلك كيانى تلك القوة التى سيخضع لسلطانها العالم بأسره فى يوم من الأيام.

ليست تلك القوة قوة بشرية ولا شك لأنه لا يقدر أيّ إنسان بمحض إرادته وطموحه أن يسيطر على العالم بأسره. لا يستطيع ذلك إلا الإله. إذاً فأنا إله.

كانت أمى تصيخ إلى هفيف الريح فى أوراق السنديان المقدس وتفسرها بطريقتها الخاصة وتجعل جميع التنبؤات تفضى إلى نفس النتيجة وهى أنى كائن لن يقهر أبداً فى حرب وأن ليس لى أية صفة بشرية ما عدا انفعالاتى العاطفية.

كنت صغير السنّ فى ذلك العهد ولذلك آلمتنى تصرفات فيليبوس أيّما إيلام وبقيت مع ذلك أحبه وأكبره فى قرارة نفسي.

ساهمت فى معركة خيرونى وكنت على رأس الخيالة. وفطنت أثناءها أن لى قوة تتجاوز دائماً الحد الذى ترسمه لها إرادتي.

وتأكدت مما انكشف لى عندما حدث أن واجهت فى مدينة كورينثه ملوكاً وزعماء أذكياء وفطنين أتوا من جميع الأقاليم اليونانية. وكنت أصغرهم سنا. وكانت نتيجة لقائى بهم أن قبلوا أن أكون قائدهم الأعلى ووقعوا بدون أى تردد على اتفاق ينص على ذلك.

لم يحدث كل ذلك بمحض الصدفة لأن اليونانيين لا يقبلون بيسر أن

يؤمر أحد عليهم ولو خشوا غائلته. ولا يؤمرون أحداً على مجموع قواتهم ولو قدروا مواهبه ومهارته وراعوا مصلحتهم الخاصة إلا إذا أحسوا بأنه مدفوع بقوة ترغمهم على قبول سلطانه عليهم أو فى أفضل الحالات تخفف من اعتراضاتهم وتخوفاتهم.

ما أغرب ما أحس به من ثقة بالقوة الرابضة فى نفسي. إنها تفوق القوى البشرية وأن الثقة التى تبعث فيّ تسمو إلى مستوى النشوة.

أحاول أحياناً التخلص من ذلك الشعور وذلك عندما أخلو إلى نفسى أو عندما أجدنى أتضور من ألم الجراح التى أصبت بها أثناء المعركة مثل أيّ جندى من جنودى أو أى ضابط من ضباطي.

كنت أقول فى نفسي: إنّ ذلك الشعور ليس له أيّ سند منطقى ولا تستطيع عقولنا فهمه إلا إذا فحصته من الزاوية العقائدية الصوفية مثلما تصنع أولمبياس عندما تباشر الأحداث محاولة تفسيرها.

ورغم كل هذه الاعتبارات فإنى ما انتهيت إلى الشك المطلق فيما كنت أحس به من قوة خفية خارقة لجميع الحدود وربما لم أكن حريصاً على الوصول إلى الشك فيها.

وهنا فى مصر زال عنى وسواس الأسئلة التى كنت ألقيها على نفسى دون انقطاع وانطلقت بخطى ثابتة للقاء مصيرى وباشرت عن كثب صفتى الإلهية وانتسابى إلى الآلهة فى ذلك البلد الذى ازدهـرت فيه حضارة ضاربة فى القدم استطاعت أن تسير بعمق يتجاوز طاقة البشر الأسرار الكبرى أسرار الحياة والموت.

عندما قدمت القرابين بمعبد أبيس بعد دخولى المظفر مدينة هليوبوليس استقبلنى كهنة المعبد كما لو كنت إلهاً. وما كان هذا منهم تزلفا. كما استقبلنى قبلهم بنفس الحماس اليهود وحاخاهم الأكبر. وقد أعلن هذا الأخير أن الكتب المقدسة تنبأت بقدومى إلى بلادهم.

ومن الغد غشيتنى حمى شديدة دون أن أعرف لها سبباً. وأراد الأطباء قذفى برأيهم فقالوا انى حممت لأنى شربت من ماء مصر فى حين أنى استحممت بالماء البارد وأنا عرقان. كلامهم عين الخور لأنى كنت فى تلك اللحظات والرعدة تهز بدنى أستمع إلى صوت أولمبياس ينادينى ويكرر النداء ملحاحاً قائلاً لي: تأهب فى بلد الأسرار هذا إلى ملاقاة أبيك الحقيقي. لقد دقت الساعة التى قررها القدر.

ولما شفيت قررت الذهاب إلى معبد أمون فى صحراء سيوة. فحاول خلانى جهدهم ومن بينهم هفستيون صدى عن تلك الزيارة بمختلف الحجج. كانوا يقولون لى إنى أعرض بنفسى دون مبرر للخطر. ذلك أن المعبد الذى تلتمس فيه تنبؤات الإله يقع على مسافة بعيدة من مدينة منفس التى كنا نقيم بها وأنه ينبغى لى أن أقطع صحراء مصر كلها تقريباً لأصل إليه مع معاناة الحر الشديد. ولمحوا لى أن الحملة العسكرية التى قدتها والمرض الذى أصابنى أنهكا قواي. ونصحونى بأن أقلع عما عزمت عليه لأنى لم أفكر فى الأمر بروية ولم أقدر أخطار الرحلة حق قدرها.

كان كل واحد منهم ينمق حطابه ويطيل ويوضح الأسباب التى تجعله ينصحنى بالإقلاع عن عزمى ويبدى فى النهاية بالرأى «السديد». وكنت بينهم كالغائب عنهم. لقد انتقلت - وهم يتحدثون - هنالك فى معبد

الإله فى ذلك المعبد الذى هو معبدى أصالة وشعرت بأنى واقف أمام الباب الخفيّ.

وعندما أنهوا تقديم اعتراضاتهم على ما عزمت عليه لم أفه بكلمة واحدة ولم أكلف نفسى تأكيد عزمى على الذهاب إلى المعبد ولو عرضت بحياتى للخطر.

واكتفيت بأن طلبت ممن يريد أن يصاحبنى بأن يعرف بنفسه. ولم يكن فى لهجتى ما يوحى بأنى آمرهم أو أنصحهم أو أعبر لهم عن أمنية ينبغى أن يستجيبوا لها إذا أرادوا أن لا يغيظوني. كنت أثق بحصافة رأيهم وما كنت أشك لحظة فى أنى قادر على قطع الصحراء وحدى مشيا على الأقدام ليلاً ونهاراً حتى أبلغ الهدف الذى رسمته لنفسى وأنتهى إلى المكان الذى ألبى فيه رغبتي.

كان هفستيون أول من استجاب لدعوتي. وفحصته بدقة حتى أفهم ما الذى دعاه إلى اتخاذ قراره. هل كان حريصاً على أن لا يتركنى أواجه وحدى أخطار تلك الرحلة عبر الصحراء أم هل أدرك أن تلك الرحلة لها صبغة الضرورة التى تفرض نفسها بنفسها ولا تترك مجالاً للتملص. ولكن لم تكشف ملامح وجه هفستيون عن أى تأثر بل بقى ينظر إلينا بنظرته الصافية العذبة المعروفة لدى الجميع.

وتشاور جماعة من خلانى ممن كانوا أقرب إلى نفسى وأجمعوا على أن يصحبوني. فما ألقيت فيهم خطابا وانما اكتفيت بإعلامهم بأن رحلتنا ستبتدئ فى اليوم الموالى عند طلوع الفجر.

ربما كان ذلك السفر شاقّاً منهكاً ولكن لم أتذكر منه شيئاً. انمحى كل شيء فى ذاكرتى ما عدا ذكرى تلك اللحظة عند الأصيل وقد وصلنا إلى واحة سيوة فرأيت على خط الأفق معبد الإله أمون فنخست جوادى بوكيفالوس حتى يسرع فى العدو فنقطع المسافة التى كانت تفصلنا عن معبد نبوءة أمون فى شوط واحد.

كان الكهنة ينتظروننى على عتبة المعبد. وقال كبيرهم بكل بساطة:

- كنا نعلم أنك ستأتى فبقينا ننتظر قدومك.

وأدخلونى المحراب وشاهدت أمون جالساً على عرش من ذهب تحيط به أشجار من ذهب أيضاً. ولم يدخل داخل المعبد أحد غيرى وصحبنى الكهنة وهم يحلفون على كتمان السر. فلم يطلع أحد على ما جرى داخل الحرم ولم يشاهد أحد مقابلتى لأمون وسط عجاج من البخور الشذى المتصاعد من كل ركن من أركان المعبد.

كل ما سيقوله الناس أو يكتبونه بعد موتى عن هذا اللقاء سيكون صادراً عن افتراضات بسيطة يفترضونها أو يكون من صنع خيالهم لأنى أنا الوحيد الذى أدركت أبعاد ذلك اللقاء وأنا الوحيد الذى أحسست بأن ذلك المشهد بعث فيّ قوة استطعت بفضلها تجاوز قدرات طبيعتى البشرية لبلوغ الغاية التى حددتها لى طبيعتى الإلهية.

رفع عنى هذا اللقاء جميع الحجب. وزرع فى نفسى خشوعاً لا يفهم كنهه غيرى وقد يحاول بعضهم تحليل تلك الحالة النفسية. كل حسب رأيه وحسب قدرته على تجاوز الحدود الضيقة التى يفرضها المنطق

على الإنسان. ولكن لا يهمنى من أمرهم شيء بعد أن سعدت بذلك اللقاء السرى فى صحراء سيوة. لقد تمكنت هنالك من الدخول إلى المحراب من الباب الخفى الذى لا يسمح بولوجه إلا للكهنة وللآلهة الخالدين.

وفجأة شعرت لا بدافع الطموح أو التعنت المزرى بل بتأثير قناعة متغلغلة فى النفس أن جميع مشروعاتى قابلة للتحقيق وأن البشرية جمعاء - ولا أستثنى منها الأجيال القادمة - تنتظر منى جليل الأعمال. فعقدت العزم على القيام بالرسالة الملقاة على عاتقي.

عندما عدت إلى منفس حيث يعسكر الجيش داهمتنى مضايقات كثيرة. لقد لاحظت بوضوح فى كل حركة يقوم بها رجال الحاشية وفى كل كلمة ينطقون بها أن جميعهم وحتى أقربهم إليّ ينكرون حقيقة ذلك الكشف الذى غمر نفسى وذهب فيلوتاس ابن قائدى الجليل برمينيون وأعزّ خلانى إلى الاعتقاد بأنه قادر على تخليصى مما يعتبره وهما أضلنى ولكن لم يجرؤ على مخاطبتى فوجه إليّ رسالة قاسية اللهجة أراد بها إشعارى ولو من بين السطور بأن كافة الجنود يستنكرون إصرارى على الادعاء بأنى من سلالة الآلهة وبأنه هو شخصيّاً يأسف كثيراً أن يرأس اليونانيين إله بدل مقاتل بطل.

لم أستسلم للغضب كما وقع لى فى مناسبات أخرى لأنى كنت أجل برمينيون الذى عاملنى فى كثير من الأحيان معاملة الأب ولأنى كنت أنزل فيلوتاس منزلة الأخ. ولكن كنت أشعر مع ذلك بالألم لأن بعض خلانى وبعض ضباط الجيش كانوا يرموننى بالهوس ولا يتجاوبون مع شعور

عميق كنت أحس به لأن ذلك الشعور الذاتى آت من أغوار سحيقة لا يقدرون على تصورها.

كنت متألماً ولكن كنت مع ذلك أعتقد أنه لا يستطيع أحد فى الدنيا أن يسلخ عنى تلك القناعة أو إذا شئتم ذلك الوهم.

لا يهم غيرى ما طرأ عليَّ فى حين أن حالة التجلى التى عشتها أسعدتنى أيما اسعاد ومنحتنى قوة مضاعفة وشجاعة نادرة. فغدوت قادراً على بلوغ أقصى الأرض.

كان هفستيون هو الوحيد الذى لم يسخر بى ولم يستنكر سلوكاً أثار امتعاض سائر خلاني. وهذا أمر طبيعى لأن هفستيون كان عديلى وفلقة من ذاتي.

وقد حدثنا أفلاطون عن ذلك العديل المماثل لكل واحد منا الذى يتقمص أعز أصدقائنا. فإذا بالجزء من نفوسنا ومن أجسادنا الذى انعزل عنا يعاد إلينا بعد سنوات أو بعد قرون فى الساعة التى نلاقى فيها الصداقة.

كيف يكون لهفستيون شعور مخالف لشعوري؟ كيف يستطيع استنكار ما منحتنى السعادة المثلى وما كنت أحمله منذ نعومة أظفارى أى منذ حدثتنى أولمبياس لأول مرة عن نسبى الإلهي؟ كيف لخليلى هفستيون أن يستنكر شعوراً غرس فى نفسى منذ عهد الطفولة فترعرع وازدهر؟

إسكندريتى وبابل

حاولت الإغضاء عن الغضب الذى كان يتصاعد حولى يوماً بعد يوم. وقررت المضى قدماً لتحقيق أحد أحلامي:

بنيت فى كل قطر حللت به غازياً أو حليفاً مدنا أردت أن تبقى منارات على الطريق التى قطعتها فى غزوتي. وأصدرت تعليماتى إلى من كان معى من المهندسين المعماريين ومهندسى الأشغال حتى يشيدوا المدن الجديدة حسب الخطة التى كنت أتخيلها. فأمرتهم بأن يبنوا فيها مسارح لتعليم فن المسرح وملاعب لتدريب الرياضيين وساحات عامة لتمكين الخطباء من الاتصال بالجماهير والسياسيين من عرض نظرياتهم فى تنظيم المجتمع. ومنحت اسمى لأول مدينة أسستها بدافع طموح أراه مشروعاً فسميتها الإسكندرية.

وقد سبق أن سمى المهندسون المعماريون والصناع الذين صحبونى كثيراً من المدن باسمى تقرباً لي.

لقد أسست مدناً كثيرة تحمل اسم الإسكندرية وكانت جميعها تروق لى وكنت أحب جميعها بنفس القدر لأن بناتها راعوا رغباتى عند تشييدها. ولكن لم تكن إحداها مطابقة تماماً للصورة التى رسمتها فى مخيلتى مطالعاتى وأحلامي.

وهنا فى مصر كما لو كان نسبى الإلهى يلهمنى ويملى عليّ إرادته كنت مدفوعاً برغبة ملحة إلى أن أبنى مدينة تكون مطابقة تمام المطابقة للصورة التى رسمتها أحلامي.

لقد وضعت الخطوط الكبرى لمثالها . واخترت أيضاً موقعها وأصدرت تعليمات واضحة للمهندسين وأمرتهم بتنفيذها بدقة.

وأبدى مهندس من أثينة بعض الاعتراضات. كان يعارض اختيار الموقع وينصح بأن لا تجمع كثير من المنشآت العامة فى مكان واحد. فلم أترك له المجال ليدلى بجميع ملاحظاته وقلت له بلهجة صارمة:

- هذه المدينة مدينتي. هى إسكندريتي.

فسكت المهندس وبقى قابعاً فى مكانه يحرك رأسه كما لو كان مقتنعاً بقولي. وما كان ذلك الأحمق قادراً على فرض رأيه عليّ.

وأمرت المقاولين بأن يشرعوا فى الأشغال بدون تراخ لانى كنت أود أن أتمتع برؤية مشروعى مجسماً وأنا أشاهد إسكندريتى ترفع حسب مخططاتى وتستكمل بهجتها وإشراقها وتزدان بالمبانى العظيمة وقاعات الطرب يحيط بها البحر من كل جوانبها.

ولما وعدونى بإنجاز المشروع حسب رغبتى واصلت الحملة بعزم مضاعف ولكن لم يكن لجنودى نفس الحماس الذى كان يدافع بهم فى بداية الحملة لأن الشكوك بدأت تدب فى نفوسهم. ذلك أننا انطلقنا فى تلك المرة لغزو إقليم ما بين الرافدين وهو إقليم ازدهرت فيه عدة حضارات تأثرت بمناخه وطبعت بطابعه ولم تقدر على مقاومة الدهر

الذى نال منها ففتتها شيئاً فشيئاً والدهر يأتى على كل شيء.

وقبل أن نصل إلى إقليم ما بين الرافدين اصطدم جيشى من جديد بداريوس الذى حاول بشجاعة نادرة وبعنف شديد صدّنا عن ممتلكاته. ودارت المعركة بين الجيشين بقوقمالا.

إذا أخذت أعيد ذكرى الأحداث التى جرت مع ذكرياتى الشخصية مثلما أفعل الآن وإذا شرعت فى تعداد انتصاراتى فإنى أخشى الملل والسآمة. ولذلك أكتفى بذكر معركة قوقمالا دون أن أضيف إلى ذكرها شروحاً وتعليقات.

وسيكون ذلك دأبى بالنسبة إلى الانتصارات الأخرى فيما بقى من حديثى تاركاً للمؤرخين بعدى ولخبراء الحروب فرصة الاستيلاء عليها لتشريحها.

نفسى توّاقة إلى الوصول سريعاً عن طريق الذكرى إلى بابل ومشاهدة دخولى المدينة من باب إشتار البديع وأنا راكب العربة المصفحة بالذهب وهى عربة غنمتها من الفرس لا تقدر بثمن. أقفز بذاكرتى حتى أسمع مرة أخرى صيحات النصر وأشاهد الرهبان والكهنة ساجدين عند قدميَّ فى مدخل المدينة يحيوننى ويطلقون عليّ اسم «صاحب المعمورة». نعم. أنا صاحب المعمورة ومحررها فى نفس الوقت وكنت أحبّ أن يسموننى بهذا الاسم.

وما ان حللت بالمدية حتى أمرت بترميم معبد بابل الأكبر وإعادة بنائه فى شلكه القديم ذلك المعبد الذى خرّبه كسركسيس فى نوبة من الغضب الجنونى المقيت اعترته عندما أتاه نبأ الهزيمة النكراء التى

كبّدها اليونانيون لأسطوله وجيشه فى معركة سالامين.

وكان لقرارى أثر عميق لا فى نفوس الكهنة فحسب بل فى نفوس أعيان المدية وعامة الناس أيضاً لان جميع سكان بابل متدينون إلى أبعد الحدود. ذلك لأن أرض ما بين الرافدين المعرضة للفحات الشمس المحرقة قد شاهدت بزوغ أديان عديدة توالت على تربتها وغمرت ساكنيها نوراً أو غطتهم بالظلمات. وسواء أأنارت سبيلهم أم أضلتهم فإنها غرست فيهم إيماناً يفتقرون إليه مثلما يفتقرون إلى الماء والهواء.

وانتقدنى الناس مرة أخرى وقال بعضهم إنه كان ينبغى أن أتخذ قرارات أخرى تعود على الناس بالفائدة عوض أمرى بترميم معبد إله المدينة الأكبر وقالوا أيضاً إن قرارى صادر عن خدعة أرمى من ورائها إلى كسب نفوس السوقة المتشبثة بعقائدها الفاسدة التى تدفع بها إلى عبادة الشمس وإقامة طقوس دينية سرية للتقرب منها.

وأمسكت عن تلك الانتقادات وما كلفت نفسى دحضها. كنت مُصرّاً على أن لا أجيب وأن لا أبرر ساحتى أمام هذا السيل من الشكوك التى تتعمد استنقاص كل بادرة تصدر عني. كنت أحس بضرورة ملحة استولت على كيانى وكانت تدفعنى إلى أن أجعل من بابل مركز القيادة.

وها أنا عدت من جديد إلى بابل فى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه السطور لأروى مراحل حياتى وأكشف عن النوايا الكبرى التى أردت تحقيقها. وأنى أدرك الآن بأكثر وضوح ما الذى شدنى إلى هذه المدينة وما يشدنى إليها مدى الدهر شداً وثيقاً ومفروضاً عليّ فرضا.

تشدنى عظمتها، ويستهوينى أفول نجمها، وأميل إلى تقى أهلها، ويهزنى ذكرى مجدها القديم.

فبابل ترمز فى مرارة إلى حظّ الإنسان الفانى فى دنياه هذه. ولو كان ذلك الإنسان عزيزاً مثل نبوكدونصر الذى أنشأ الحدائق المعلقة الشهيرة إحياء لذكرى زوجته وتمجيداً لسيد الأرض والعباد، القاهر الذى لا يقهره أحد، أعنى الموت.

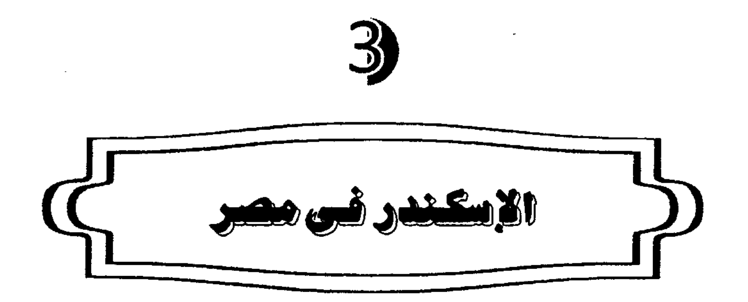
أما أنا فإنى أعتقد أن ليس الفناء نصيبي، ولست بشراً عادياً يهدده الموت فى كل خطوة يخطوها. تلك العقيدة انغرست فى نفسى فى مصر فى اليوم الذى وجدت فيه نفسى أمام أبى الهول وفككت لغز ابتسامته ثم ذهبت إلى معبد أمون فأيّد الكهنة قناعتي. ومازالت هذه القناعة تلازمنى وتراودنى هنا فى بابل.

لا، ليس من نصيبى أن يهب عليّ إعصار التاريخ المدمر فيتركنى تحت غشاء من الرماد والصمت. لقد قضيت على جموع من أعدائى لا يحصيها عدّ، وهزمت داريوس المرات العديدة. وصمدت أمام البرد والعطش وحرّ الهجيرة والمرض. وأسَّست فى كل مكان مدناً ستكون شاهدة إلى آخر الدهر على أنى عبرت يوماً بهذه الدنيا فغيّرت وجه العالم.

باسم الإله الذى فطرنى أعلن بأنه لا يستطيع أحد محو ذكري.

***

3



الإسكندر في مصر



فى خريف سنة 332 قبل الميلاد، غزا مصر جيش من المقدونيين والإغريق، عِدتُه أربعون ألف مقاتل، وكان «الإسكندر» مَلِك مقدونيا الحدث، على رأس ذلك الجيش يقوده، كما قاد قبل سنتين من ذلك التاريخ - وكان قائداً عاماً لقوى الدويلات الهلينية - جيشاً هاجم به القيصرية الفارسية العظيمة.

وقبل أن يصل مصر، هزم جيشاً جمعه الولاة الفارسيون على نهر «غرنيقس» فى آسيا الصغري، وجيشاً آخر فى «إسوس» على شاطئ سوريا، كان يقوده «دارا»، العاهل الأعظم بنفسه. وإذ ذاك، تقلص ظل القوات الفارسية عن شواطئ البحر المتوسط الشرقية كلها، ما عدا مصر، وكان يحكمها «مَزاكس» نائباً عن عاهل الفرس، أو بالأحرى نيابة عن «سباكس» والى مصر، الذى تركها ليلحق بالملك دارا فى إسوس. وأضحى من المحتوم أن يبسط الإسكندر سلطانه على مصر، وربما تطلع إلى امتلاك «قورينة» أيضاً، ليمعن نحو الغرب، قبل أن يتوغل فى فجاج الشرق وممالكه، ذلك بأن أعداءه كانوا لا يزالون أقوياء فى البحر، وليس له أسطول حربى يستطيع به مناجزتهم. فلم يكن له من خطة رشد، تُؤمّنُ قاعدته الحربية، إلا أن يملك كل الثغور الحافة من حول بحر الروم، فيذر الأساطيل المعادية هائمة ضالة، لا تجد ملجأ للترميم أو التموين. ومذ ذاك، بدأ جيش اليونان، وبالأحرى الإغريق كما كان يدعوهم المصريون يجوس خلال أرض الفراعنة القديمة.

ولم يكن الجند الإغريقى من المرائى الجديدة على المصريين،

ففى عهد «هيرودوتس»، أى قبل العهد الذى نتكلم فيه بقرن كامل، كان المصريون ينظرون إلى الأغارقة نظرة احتقار، على أنهم أجانب أنجاس، ولكن حدث فى مدى تلك الفترة، أن دارت المواقع الوطنية مع الفرس، فناصر مُلوكَ مصر الوطنيين، قواتٌ حربيةٌ أرسلت بها الدويلات الإغريقية، وحارب المصريون والإغريق متحدين، عدوهم المشترك.

وقبل أن يهبط الإسكندر مصر بعشر سنين، كان الفرس قد طردوا آخر ملوك الفراعنة، واسمه عند اليونان «نقطانيبو» ووطدوا حكمهم على ضفاف النيل. فلما وفد جيش «الإسكندر»، متوجاً بانتصاراته العجيبة، خُيل إلى المصريين أن الإغريق - كما عهدوهم - الأصدقاء الأقوياء المنقذون، وكانت الحرب مع الفرس تدور سجالاً، والمصريون واليونان لا يزالون الأحلاف الطبيعيين، ولم يَدر بخلد المصريين إذ ذاك أن اليونانيين قد هبطوا مصر هذه المرة غُزاةً لا أحلافاً، فى حين أنهم ما يمموا شطر مصر إلا ليخضعوها ويحكموها حكماً أحزم من حكم الفرس، وأطول مدى.

ولقد استطاع المصريون، عقيب كل غزو دهمتهم به أمة أجنبية «كالهكسوس» وغيرهم، أن يستردوا حريتهم المرة بعد المرة، وأن يقيموا على عرش بلادهم أُسراً من الفراعنة، تحيى تقاليد الحُكم والثقافة واللغة، تلك التقاليد التى نشأت وربت فى مدى عصور لا تعيها الذكريات. ولكن هذه الغزوة، كانت آخر عهد ملوك الفراعنة، الذين تجرى فى عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل، وإلى آخر الدهور، فمنذ فتح الإسكندر، خضعت مصر ألف سنة لحكام هلينيى الحضارة، من مقدونيين ورومان، وفى نهايتها صارت جزءاً من جسم الإسلام،

فبدلت تبديلاً، وأصبحت لها لغة أخري، ونظام اجتماعى لا عهد لها به، ودين جديد، ونُبذ الآلهة الذين عُبدوا فى مصر على أنهم آلهتها الخواص لآلاف من السنين نبذا أبديّاً ثم دُفنوا فى ثراها.

ولم يشغل المصريون أنفسهم بتوقع شيء من هذا، فرحبوا بالإسكندر فى سنة 332 ق. م ترحيبهم بالمنقذ المحرر، لهذا سقط الحكم الفارسى فى مصر من غير أن تدور موقعة واحدة. وكانت الحامية الفارسية من القوة بحيث استطاعت أن تقضى على جيش جمَعه أفاق إغريقى يُدعى «أمُنتاس»، كان قد حارب فى صفوف الجيش الفارسى فى إسوس، وبعد أن انتهت تلك المواقع أغار على مصر بثمانية آلاف مقاتل. والغالب أن الوطنيين تألبوا عليه فى النهاية، لكثرة ما أمعن نهباً وتخريباً. ولكن لم يفكر مصرى واحد فى منابذة جيش الإسكندر، حتى إن مزاكس، العامل الفارسي، قد أمر المدن المصرية مبتدئاً بمدينة «فلوسيوم» أن تفتح أبوابها للغازى الجديد، وبعد أن ترك الإسكندر حامية فيها، تقدم بجيشه على فرع النيل الشرقي، فبلغ «هليوبولس» أولاً، ثم ممفيس ثانياً. ويقول كيرتيوس: إن مزاكس سلم الإسكندر عندما هبط ممفيس ثمانمائة طالنطن، وكل نفائس القصر الملكي. ولأول مرة تربع مقدونى ملكاً فى قصر فرعون.

وتروى قصة - كُتبت فى مصر خلال القرن الثالث بعد الميلاد على الأرجح - أن الإسكندر قد احتفل بتتويجه فى معبد «فِتاح» بممفيس، أقيمت له الشعائر التى كان يقيمها فى مثل هذه المناسبات قُدامى الفراعنة. ويعتقد مستر «مَهَفي» أن هذه الرواية جزءٌ من تقليد قديم يتضمن حقيقة تاريخية لا شك فيها. ويحتمل أن تكون هذه الرواية

صحيحة، ولكن ينبغى لنا أن نعى أن هذه القصة قد لُفقت تلفيقاً إرضاءً لشعور المصريين القومي، وإظهاراً للإسكندر بمظهر الوارث الصحيح لملوك مصر الأقدمين. فقد لفق كاتبها، أو هو حاول على الأقل أن يروج أسطورة أن الإسكندر هو فى الحقيقة ابن «نقطانيبو»، الذى كان ساحراً فانسلخ فى صورة أفعُوان، ليتمكن من مخالطة زوج الملك فيلبس المقدوني. ومن هنا يُستدل على أن عبارته فى تتويج الإسكندرية بمدينة ممفيس تلفيق رمى به إلى غرض، يشابه غرضه الأول.

عندنا بجانب هذا ما يثبت أن «الإسكندر» قد أبدى احتراماً بيناً لآلهة البلاد، وكان سلوكه على نقيض سلوك غُزاة الفرس، الذى تحدوا الشعور القومى بذبح العجل «أبيس» المقدس. فإن الإسكندر عندما هبط ممفيس قرب للعجل المقدس قرباناً، وضحى لغيره من الآلهة. ولا ننسى أن دين الفرس كدين العبرانيين، جعلهم ينظرون إلى عبدة الأوثان من الأمم الأخرى نظرة احتقار، بَيْدَ أن الإغريق، مهما كان اعتقادهم فى تفوق ثقافتهم على ثقافة غيرهم من الأمم الهمجية، قد أخذوا بشعور عميق من الخشية والمهابة، إزاء تقاليد تبلغ من القدم مبلغ التقاليد المصرية، ولقد عودوا أن ينظروا إلى مصر نظرة أنها بلاد العجائب، وكانت أشعار «هُوميروس» التى تلقح بها عقولهم منذ الطفولة، قد وصلت مصر بعصر البطولات البائد الموغل فى القدم. فالإفراط فى القِدَم والآثار المهيبة، بَلْه عظمتها وضخامتها، والهياكل، ومظاهر العيش القديم واستمرارها، بَلْهَ ما يحوطها من الغموض والإبهام والغرابة فى كثير من مرائيها، ومَنظر البلاد، وما توحى به الأرض التى يغذيها النيل المحجوب الأسرار من

موحيات الفتح، [illegible] الفكرة فى مصر بمجموعة فذة من الملابسات، ثبتت فى عقلية الإغريق.. وها هم يجدون أنفسهم فوق تلك الأرض العجيبة أسياداً، يمرحون تحت أقبيتها، وفى ظلال نخيلها، وكان آباؤهم يظنون أنها أرض طروحٌ، جمة الغرائب، كثيرة الأعاجيب.

غير أنَّ «الإسكندر» - بالرغم من توسُّله بالقرابين لآلهة مصر - لم ينسَ أنه حامى حمى الثقافة الهلينية، فأقام فى ممفيس ملعباً رياضيّاً، وأحيا حفلاً موسيقيّاً على النمط الأغريقي، شهد مبارياته بعض من أشهر مشاهير الأغارقة، من الموسيقاريين والممثلين. ولكن لنا أن نتساءل: كيف اتفق أن يجد «الإسكندر» أولئك المُفتنين فى ذات الوقت الذى طلبهم فيه، وفى المكان الذى أعده لإقامة الزينة، على بضعة أميال فى مصر العليا؟

يقول «نييس» إنهم لابد من أن يكونوا قد نُدبوا سلفاً وفى زمن سابق، ويتخذ من وجودهم برهاناً على أن «الإسكندر» كان قد اتفق و«مزاكس» -الوالى الفارسي- على أن يسلم زمام مصر إليه، من قبل أن يبدأ غزوته. أما «مهفي»، فيظن أن وجودهم لم يكن إلا مصادفة، ويرجح أنهم ربما كانوا قد وفدوا - «ليحيوا فصلاً تمثيليّاً فى نُقراطيس» - عند أصدقاء لهم من الأغارقة، فكانوا على أهبة تامة لما دعاهم «الإسكندر» إليه. على أنَّ لنا أن نذهب مع التصور فى تعليل هذا الأمر كل مذهب، من غير أن نطمع فى أن نصل إلى معرفة حقيقته.

أمَّا أبقى أعمال الإسكندر فى مصر، وأعظمها شأناً، فتأسيس مدينة «الإسكندرية»، ففى صيف سنة 332 ق.م فتح الإسكندر مدينة صُور،

وهى أعظم الثغور التجارية فى شرقى البحر المتوسط، وخرَّبها. وقد يُحتمل أن يكون «الإسكندر» قد رمى من وراء تخريبها إلى تأسيس ثغر جديد فى مصر يكون بمثابة «صور المقدونية»، فيحل فى عالم التجارة محل تلك، أو يشرفها منزلة وقيمة. فاختار منزلاً يبعد أربعين ميلاً عن «نقراطيس»، المستعمرة المصرية الإغريقية، ويتصل وداخلية البلاد بفرع «كَنُوبَس» النيلي. أما اختيار الموقع الذى شيدت عليه المدينة، فقد بعث المؤرخين أن يتساءلوا: لم اختيرت القرية المصرية الحقيرة «رَقوطيس» لتعمر وتصبح إحدى عواصم الدنيا؟

كان مصبُّ «كَنُوبَس» النيلي، قد اتخذ مرفأ لتفريغ المتاجر القليلة التى كانت ترد مصر عن طريق بحر الروم، الخاضع لأمم أجنبية. ومن بين المصبات النيلية الأخري، كان المصبُّ «الفلوسي» دون غيره صالحاً للملاحة، ولكن لسفن لا تزيد عن سفن الصيد المعروفة حجماً، ولا يعزب عنا أن مصب «كنوبَس» كان يعتوره حاجز شديد الخطورة على الملاحة، فإذا أمكن للسفن التجارية أن تدخل مصب النيل لترسو، أمكن كذلك لسفن الأسطول الحربى المقدوني، أن تجد مرفأ أميناً ترسو فيه قطعه الكبيرة، وقد أصبح من واجبات ذلك الأسطول منذ غزو الإسكندر أن يحرس بحر الروم، غير أنَّ دخول السفن مصابَّ النيل وخروجها منها، والحالات التى كانت تقوم فى البرِّ، وكلها غير مواتية، لا من ناحية الصحة، ولا من ناحية الأمن، قد أدَّت إلى الإحجام عن اتخاذها قواعد بحرية، ولكن عند «رَقُوطيس»، وعلى بضعة أميال غرباً، وقع «الإسكندر» على مرتفع جافٍّ من الحجر الكلسيِّ، يعلو مستوى الدِّلتا، ويسهل تزويده

بمياه صالحة للشرب وافية بحاجات الملاحة، تأتى بها من داخل البلاد قناة يغذيها «النيل». وألفى أنَّ ذلك المرتفع لا يتأثَّر بالطمى الذى يأتى به فرع «شونس»، ويواجهه رأس «أبو قير» إلى البحر، ناهيك بأنَّ هنالك جزيرة إذا وصلها بالبرِّ حاجز خارجيٌّ أصبحت بمثابة مرافئ متصلة، تصدُّ الرياح البحرية عن الميناء، مهما اشتدَّ عصفها، وفى أى فصل عصفت، وكان هذا المنزل الموقع الأوحد، الذى يمكن أن يشاد من فوقه ميناء صحيٌّ سهل الاتصال بالبحر، تركن إليه الأساطيل المقدونية، وعلى الأخصِّ قطعها الحربية، وكان تفريغ حمولتها، وغاطسها المائي، قد أخذا يزيدان معاً فى ذلك الوقت.

وذكر «إسترابون» أن ذلك المرتفع كان يشغله، عندما وقع عليه «الإسكندر»، قرية من قرى الصيد. قال:

لمَّا كان ملوك مصر الأوَّلون قد قنعوا بما تغلُّ لهم الأرض، فلم يطمعوا يوماً فى الواردات الخارجية، وحملتهم هذه القناعة على أن ينظروا إلى الأجانب نظرة العداء، وعلى الأخص إلى الإغريق، إذ كانوا يعتقدون أنهم طلاب سلب، وبهم طمع فى استعمار البلاد الأخرى لضآلة ما بين أيديهم، وقلة ما عندهم من خيرات، أقاموا فى تلك البقعة نقطة عسكرية، تصدُّ غارات المعتدين، وأسكنوا الجند مكاناً يُدعى «رَقوطيس» (راقودة) هو الآن من الإسكندرية، ذلك الجزء الذى يشرف على أرصفة الميناء، ولم يكن إذ ذاك إلا قرية صغيرة، وعهدوا بالبقاع المحيطة بذلك المكان إلى رعاة، كانوا بدورهم ذوى قدرة على صدِّ هجمات الأجانب.

وكان هؤلاء الرعاة بطناً من البطون، عرفوا بقوة الشكيمة والوحشية،

بل كانوا قطاع طرق، وسفاحى دماء، إذا جارينا «إليوذورس».

تجاه الموقع الذى اختاره «الإسكندر» وعلى ميل من الشاطيء، كانت الجزيرة التى دعاها الإغريق جزيرة «فاروس» وطولها ثلاثة أميال، وكانت فى زمن غابرٍ سلسلة من الجزائر بعضها منفصل عن بعض، وذكرها «هوميرُوس» فقال: إنها مكان تألفه الحيتان، وتستلقى على شِطآنه، وأنَّ فيها مرفأً حسناً، بل قيل إنه فى الوقت الذى جاء فيه «الإسكندر» ليفحص عن الشاطئ، كانت فاروس مأوى لصيادين من الأهالي، وأن الإسكندر وأخلافه من البطالمة أول من جدد فى ذلك المنزل ميناء عالميّاً للتجارة.

ولكن حدث منذ عهد قريب أن زوَّد مسيو «جاستون جونديه» - كبير مهندسى الموانئ والفنارات فى مصر - مباحث التاريخ بمبحث جديد، أشكل على المؤرخين أمره، فقد استكشف تحت سطح الماء، وفى مواقع قد تبعد بعض الأحيان ربع ميل عن المكان الذى عُرِف أنَّ جزيرة «فاروس» كانت تشغله، بقايا عظيمة هائلة الضخامة من أبنية مرفئية، وحواجز لصدِّ الأمواج، وأرصفة مما يُبنى فى الموانئ البحرية، ولا يزال أمرها رهن البحث: أهى جزء من إسكندرية الإغريق، أم هى من أعمال عصر من العصور الغابرة، خربت وتساقطت بقاياها من قبل أن يهبط الإسكندر تلك البقعة بأزمان طويلة؟

ينزع مسيو «جونديه» إلى الظن بأن الميناء المغمور بناها «رمسيس الأكبر» ليتخذها قاعدة يدفع بها غزوات الدول البحرية، «فإن كتل المواد التى استعملت فى البناء ضخمة هائلة، شأن الكتل التى استُخدِمت فى كل الأبنية الفرعونية، ولا ريب فى أن نقلها إلى ذلك المكان، وبناءها

حيث هي، كان عملاً أشقَّ من ترصيص تلك الأحجار الضخمة التى يتألف منها الهرم الأكبر».

وعقب عليه باحث فرنسى آخر، هو مسيو «ريمون ويل»، فقال إن هذه الأبنية، بقايا أعقبتها دولة إقريطس البحرية التى نشأت فى الألف الثانية قبل الميلاد، وامتلكت فى زمن ما، على قدر ما يحدس، تلك البقعة من الشاطئ المصري، ولكنَّ الظاهر من الأمر أننا نكون أقرب إلى الرشد إذ تمهلنا فى الحكم حتى تُمتحن تلك الآثار، وتُبحث بحثاً أوفي. وعلى أية حال، فإن هبوط تلك الأبنية تحت سطح البحر، إنما يرجع إلى انخفاض الأرض فى تلك البقعة فجاءة، إمَّا باضطراب زلزالي، وإما بانخفاض عاديٍّ حدث فى وقت ما، فتناول مستوى الأرض.

ولقد حدث منذ العصر الإغريقى الرومانى انخفاض فى أرض الإسكندرية، بلغ سبعة أقدام ونصف فى المتوسط، فيغلب أن تكون بقايا المدينة التى شيَّدها «الإسكندر» والبطالمة من بعده، مغمورة الآن تحت سطح الماء، مما جعل مهمة التنقيب الأثرى عن تخطيط الإسكندرية القديمة أكثر صعوبة.

من المعروف أن «الإسكندر» قد أنشأ مدينته على نَمَط الزوايا القائمة المستقيمة، الذى كان طابع ذلك العصر فى تخطيط المدن الحديثة، وهو نمط ابتكره «هِفُّوذامُس» المليطيُّ قبل ذلك العصر بقرن كامل. ويستدل من القصة أن الإسكندر استخدم مهندساً من أهل جزيرة «رُودِس» يُدعى ذينقراطس فكانت المدينة كلها خططها مستطيلاً يمتد على طول البقعة الواقعة بين بحيرة «مَريوطس» (مريوط) والبحر، وكان

المهرجان بوضع أساس المدينة يقام فيما بعدُ فى يوم 25 من شهر «طوبي» ولذا يحتمل أن يكون قد أقيم فى يوم 21 من يناير سنة 331 ق. م.

وتروى أسطورة أن المهندسين خططوا المدينة ليشرف عليها «الإسكندر» بدقيقٍ أُخذ من مخصصات الجند، وأنهم تفاءلوا بما سوف يكون للمدينة من عظمة فى المستقل، مستبشرين بما حدث عند شروعهم فى وضع الدقيق من فوق الأرض. ولهذه الأسطورة روايتان، تخالف إحداهما الأخري، بل تناقضها.

لابدَّ من أن يكون أول من سكن الإسكندرية، خليط من المقدونيين والأغارقة، ولا علم لنا بالطريقة التى اتبعها «الإسكندر» فى جلب الأسَر التى كوَّنت النواة الأولى من سكان المدينة. وبعد فترة من الزمان، كان الوطنيون يؤلفون العديد الأكبر من مجموعة السكان، ولكنهم لم يتمتعوا بالحقوق المدنية، التى كانت من حق غيرهم. وفى رواية سوف نعود إليها بعدُ، أنَّ عدداً كبيراً من المصريين الذين كانوا يسكنون «كَنُوبَس»، قد ارغموا على الهجرة إلى المدينة الجديدة. وبالرغم من أنَّ عدد العنصر اليهودى فى المدينة أصبح كبيراً بعد قليل من الأجيال، فإنَّ من المشكوك فيه أن تكون العبارات التى أوردها المؤرِّخ «يوسيفوس» عن الإسكندر، وتشجيعه اليهود خاصة على سُكنى المدينة، بمنحهم حقوقها المدنية، صحيحة، فليس ثمة من سبب يحمل الإسكندر على العناية بأمر اليهود، فإنهم لم يكونوا قد أصبحوا - فى ذلك الوقت - ذلك الشعب المتفوِّق فى التجارة والمالية. فإن يوسيفوس قد قال عن أمته فى القرن

الأول بعد الميلاد: «لَسنَا أمَّة تجارية».

أما الحادثة الثانية التى تلى تأسيس «الإسكندرية» مكانةً وخطراً، والتى وقعت للإسكندر خلال إقامته الشتوية بمصر، فزيارته لمعبد «أمون»، كما يدعو الأغارقة الإله «آمن» فى الواحة التى تُدعى الآن واحة «سيوة». وأوَّل ما يصادفنا من المشكلات التى تحوم حول هذه الزيارة البحثُ فى السبب الذى جعل «الإسكندر» يختار السفر مجتازاً الصحراء إلى -- «المعبد المنفرد الذى يظلله نخيل سيوة» - على مسيرة خمسة عشر يوماً على الأقل، أو عشرين يوماً على الأكثر من وادى النيل، فى حين أن فى الوادى عدداً من معابد «آمن» المعروفة بضخامتها وقدمها.

من الأسباب التى يعلل بها ذلك أن «هاتف» «آمن» كان له فى تلك الواحة - منذ أزمان - منزلة كبيرة، واحترام خاصٌّ فى العالم الإغريقي. ولقد استهداه «إكرُوسس» كما استهدى غيره من الهواتف الإغريقية العليا فى القرن السادس قبل الميلاد، وألَّف الشاعر فنداروس نشيداً لأمون. ويروى عن كثير من الإغريق، منهم: «إلياويون» و«إسبرطيون» و«أثينيون» أنهم أرسلوا سفراءهم إلى المعبد الأقدس، ليستهدوا الهاتف فى أيام قبل عصر «الإسكندر». وتكلم أوريفيدس عن منزل «أمون» الذى لا يأخذه المطر، كما لو كان منزلاً معروفاً عند الإغريق. مشهوراً بينهم بأنه المكان الذى يؤمه كل الذين يشعرون بالحاجة إلى النصح القدسي، والهداية العلوية.

تروى الأساطير الإغريقية أن فرساوس وهيرقليس ذهبا ليستنصحا أمون قبل أن يقدِما على مخاطراتهما. ويقول: «قلثيس» الذى أصبح بعد تلك الفترة من خواصِّ الإسكندر وملازميه، إن ذكرى هذين البطلين،

كانت إحدى الأسباب القوية التى حملت «الإسكندر» على أن يُقدم على هذه الرحلة. وإنه لامتهان لتقدير رجل عملى فى العصر الحديث أن يُنسب إليه التأثر بمثل هذا السبب، ولكنَّ ذلك كان موائماً جدَّ المواءمة لمزاج «الإسكندر». ولا شك فى أننا إزاء مشكل تاريخي، غير أنه لا يرجع إلى السبب الذى من أجله أصبح هذا المعبد الأقدس - على بعد عن العالم المعمور، وصعوبة الوصول إليه - قبلةً يحجها الأغارقة؟

وغير خفى أن ما كان لأمون من جلالة فى العالم الإغريقي، إنما يرجع إلى نشوء مستعمرة قُورينة الإغريقية على الشاطئ الأفريقي؛ فبالرغم من اتصال قورينة اتصالاً تجاريّاً دائماً بغيرها من الدُّويلات الإغريقية، القائمة على شطآن البحر المتوسط، كانت تسير من قورينة سفن تُحاذى الشاطئ الأفريقي، فتصل بسهولة ثغر «فرطنيوم» على ثلاثمائة وأربعين وخمسة أميال شرقاً. ومنه يسهل على القوافل الصحراوية أن تبدأ رحلاتها من الشاطئ، موغلة فى الصحراء إلى سيوة، فتصلها فى سبعة أيام على ظهر الإبل.

ويظهر من هذا أن القورينيين كانوا حَلقة الوصل بين معبد أمون الأقدس، والعالم الإغريقي، وكان الطريق الذى يبدأ من ثغر فرطُنيوم هو الطريق الذى يسلكه الأغارقة إذا أرادوا الوصول إلى المعبد. ومما ينبغى أن نفطن إليه، أن هيرودوتس استقى معلوماته عن سيوة من القورينيين هنالك. وهذا يُبين عن مسألة تاريخية أخري، إذا تساءلنا: لماذا أمَّ الإسكندر فرطنيوم لما أراد الذهاب إلى سيوة، ولم يخترق الصحراء مجتازاً وادى النطرون، وهو الطريق الأقرب لمن يخرج من مصر إلى

سيوة رأساً، كما يقول «مَهَفي»؟

ينزع «هُوجرث» إلى القول بأن الإسكندر إنما هبط فرطنيوم زاحفاً من مصر ليمتلك قورينة، فلما وفد إليه رسل تلك المدينة، ومعهم بضع مئات من فحول الخيل الكريمة هدية وعنواناً على خضوع مدينتهم وولائهم له، عدل عن الزحف إليها، وضرب بحملته فى مجاهل الصحراء، ليزور معبد أمون.

غير أن الحملة الحرْبية على قورينة لم ينوِّه بها مؤرِّخ من ثقات الأقدمين، والرسل الذين وفدوا إلى «الإسكندر» من أهل قورينة لم يذكرهم أريان، وربما كان ذكرهم راجعاً إلى ما كتب إقليطرخوس الذى استمد منه كلٌّ من ديوذورس وكيرتيوس أكثر ما كتبا، وهو مصدر غير موثوق به. ولقد وثق «مَهَفي» بعباراته، حتى إنه اعتقد أن رسل «قُورينة» قابلوا «الإسكندر» بالفعل، وأنهم مُثُلوا بين يديه، غير أنه يحدس أنَّ هديتهم لم تكن خيلا، وإنما كانت بضعة رجال من العارفين بمسالك الطرق إلى سيوة.

وتروى كل الكتب القديمة أنَّ زحف «الإسكندر» إلى سيوة عن طريق الصحراء، قد صحبته عدَّة حوادث إعجازية، فقد هطلت على غير انتظار أمطار غزيرة، أنقذت زحف «الإسكندر» من آلام العطش الشديد، وتقدَّم الركبَ غرابان كانا يطيران هنيهة ثم يحطان، ليبينا عن الطريق الذى تحجبه الرمال السافية، وكان يتقدمه أفعُوانان مرسلان صوتاً خاصّاً، ولا شك فى أن هذه الروايات إنما رواها رجال رافقوا الإسكندر إلى الشرق.

أما أكثر هذه الروايات بعثاً على الحيرة، فرواية الأفعُوانين، وقد رواها «بطلميوس» بن لاجوس، وهو إن لم يكن قد رافق حملة «الإسكندر»

بالفعل - وليس لدينا ما يثبت أو ينفى أنه رافقهما - فلابد من أن يكون قد صاحب الذين رافقوها سنين عديدة. على أنَّ تعليل هذه الروايات تعليلاً معقولاً سهل هين، فنزول المطر لا يزال إلى الآن من الظاهرات النادرة فى تلك الأنحاء، وليس من المستحيل أن يصادف المسافر غرباناً وأفاعيَ فى عرض الصحراء، وإنَّ ركباً حافلاً يسير فى وحشة البيداء لابد من أن يثير الحيوانات التى تكون هنالك، ومن الطبيعى أن تَفِرَّ إلى الجهة التى يتقدم نحوها الزحف.

وقد نحصل على صورة، ربما كانت قريبة أو بعيدة بعض الشيء عن حقيقة الحالة التى كانت عليها واحة «هاتف أمُّون» فى ذلك العصر، إذا وعينا ما انحدر إلينا من روايات القدماء، وأكثرها استفاضة رواية ديُوذورس. وقسناها على الحقائق التى نعرفها عن سيوة فى عصرنا هذا: فإن هنالك قريتين: الأولى «قرية سيوة» والثانية «قرية أغورمي»، وتبعد إحداهما عن الأخرى ميلين، وتقوم كلٌّ منهما على صخرة، مشرفتين على ما يحيط بهما من غياض النخيل، ومزارع الزيتون، وفى «أغورمي» بقايا هيكل أمون، وعند إبط الصخرة التى تستوى من فوقها القرية، بقايا معبد آخر أصغر من الأول، يدعوه الأهلون اليوم «أم عبيدا»، ويقال إن هذه البقايا إنما تدل على أن المعبدين قد جُددَ بناؤهما فى خلال الحكم الفارسي.

أما معبد «آمن»، فإن المشاهد يستبين فيه حتى اليوم، وعلى مقربة من «نبع الشمس» آثار جدار لبناته حجارةٌ مربوعة، تسيج حظيرة طولها خمسة وعشرون يرداً، وعرضها ثمان وأربعون، أما الهيكل نفسه، فيحتوى على عدد من الأفنية والقاعات، بعضها يقوم على عَمَد، وبعضها لا عَمَد

له، والكل فى خراب شامل. وفى نهاية المربع الرئيسى يقع المحراب الأقدس، أما الحجرتان اللتان كانتا تسلمان إليه فقد بادت معالمهما، حتى ليصعب أن تُعيَّن مواقع الأبواب التى كانت تؤدى إليهما. أما المحراب والجزء الزمامى منه، فقد بقى منهما حتى الآن أجزاء كبيرة.

وكان المحراب حجرة يبلغ طولها ثلاثين قدماً، وعرضها يتراوح بين عشرة أقدام وثلاثة عشر قدماً، تحيط بها من الداخل كتل من الصخر هائلة الضخامة، ولا يزال عدد منها باقياً فى مكانه، وقد نُقِش عليها ثلاثة سطور من الكتابات والصور على ما يظهر.. وهنالك كان يعيش آمن، مُجللاً بالظلام، وزورقه المقدس مستوٍ على مذبح، أو بالأحرى على مكعب من الصخر أو الخشب، قائم فى وسط المحراب.

ووصف قُدامى المؤرخين الزورق فقالوا: «إنه من الذهب»، والمقصود بهذا أنَّه كان من الخشب، الموشى بصفائح من الذهب. ولا شك فى أن طوله كان أقلَّ من طول المحراب، بمقدار سبعة أو ثمانية أقدام. وقد يتخيَّل الإنسان صورة منه إذا نظر فى النقوش البارزة التى فى الأُقصُر والكرنك، والتى تظهر فيها زوارق «آمن» الطيبى نحيلة عالية، وقد ازدانت مقاديمها ومآخيرها برأس الكبش، ومَلاحوها من الآلهة، وبضاعتها من القرابين ونواويسها نصف مغطاة ببراقع بيضاء، والوثن محويٌّ فى داخل جدرانها الرقيقة.

وعن «قلثنيس» أن الوثن كان كتلة من الزمرد والأحجار الكريمة. ولنا أن نتصوَّره على مثال وثن من تلكم الأوثان المرصعة، التى كانت فى «دندرة» مثلاً، وذُكر أن ظاهرها يتألف من مواد مختلفةٍ، تُرصَّع من

فوق هيكل مصنوع من الخشب أو البرنز. ولم يكن الزمرد الذى ذكره المؤرخون عَيْنَ الزمرد الذى نعرفه، بل كان من الأحجار التى أطلق عليها المصريون اسم «مفقاط»، وعلى الأخص الفلسبار الأخضر، أو حجر الزمرد، وكان استعماله شائعاً فى خلال «العصر الصَّاوي».

وكان الوثن كغيره من أوثان التنبؤ، مجبولاً بحيث يُحدث عدداً من الإشارات، فيحرك رأسه، أو يلوح بذراعيه، أو يشير بيديه. وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذى يحرك الوثن، ثم ينطق بالنبوءة، وكان الكل يعرفونه معرفة تامة، ولكن لم يَدُر فى خلد أحد أن يتهمه بالغش، أو يرميه بالخداع، ذلك بأنه الأداة التى يستخدمها الآلة، وبالأحرى آلة مسيَّرة، وكان الروح يلبسه فى برهة خاصة، فيحرك الوثن، كما يحرك شفتى الكاهن بما يريد أن يقول، فالكاهن يعبر يديه وصوته، ولكن الإله هو الذى يقدر أعماله، ويوحى إليه بما يتفوه من كلمات.

أما حضور الإسكندر إلى الهيكل «وما حدث فيه»، فيصفه قلثيس بما يأتي: لم يؤذن لغير الملك بالدخول إلى المعبد فى ثيابه العادية، أما بطانته فأمِروا بتبديل ثيابهم، ووقف الجميع فى الخارج يستمعون الوحي، ما عدا «الإسكندر» فإنه دخل المحراب، ولم تكن النبوءات تُعلن بالكلام، كما هى الحال فى «دلفي» وبرنخيدا ولكن بالرموز والإشارات غالباً، لأن المنبئ انتحل فى هذا عادة زيوس أى آمن. أما الذى قيل للملك فهو أنه ابن زيوس.

هذه القصة التى نُقِلت إلينا عن إقليطرخوس، تنتهى بكثير من الإطناب والتنميق، فيسأل الإسكندر عما إذا كان الإله أبوه، سوف يهبه حكم الأرض

جميعاً؟ فيرد الجواب بأنَّ الإله سيحقق له هذا. فيسأل ثانية عما إذا كان الذين اشتركوا فى قتل أبيه فيلبس قد عُوقبوا؟ فيصيح المنبئ بأن هذا السؤال كفر، لأن الإله أباه لا يمكن أن يؤذي، على أن التوسع الذى نشهده فى هذه الرواية، قد يكون جزءاً من الأجزاء التى نمت بها أسطورة الإسكندر، تلك الأسطورة التى بدأت تنتشر وتذيع، حتى قبل موته.

ولقد يصح من جهة أخرى أن «الإسكندر» عندما قفل راجعاً، وتلقى من آمون استيضاحاً بأن يدلى بالسبب الذى حَمَله على أن يضحى لفئة خاصة من آلهة الهند أن مثل هذه الأوامر إنما صدرت عن الهاتف حقيقة، ومن المشكل علينا البت فى أمر هذه الاستيضاحات: أصدرت إلى «الإسكندر» حين زيارته التاريخية للمحراب الأقدس، أم تلقاها فيما بعدُ على يد رسلٍ أوفدت إليه؟ فإننا نعلم فيما يتصل برفع «هفسطيون» إلى مرتبة الأرباب أن الإسكندر استمر يستهدى الهاتف، فى أثناء سنين تالية، بوساطة سفراء يوفدهم إليه.

وليس من سبب يجعلنا نشك فى أن الإسكندر قد استقبله كاهن أمون استقبال من يعتقد أنه ابن الإله الأعظم، ولقد عرف الآن أن هذا كان قاعدة مرعية مع كل ملك يتبوأ عرش مصر، فإن كل الفراعنة منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد، كانوا بحكم الرسميات من أبناء «آمِن - رع». واتباعاً للقواعد المرعية، كان «آمن» يَهبُ أبناءه، رقاب كل الأحياء، وكل الممالك وكل الشعوب، وكل الأرضين التى تغشاها دورة الشمس.

ولا يبعد أن يكون المؤرخ تارن على حق، إذ يقضى بأن الإسكندر لم يقم بكل الشعائر إذا قصد بها العبارات الخاصة التى كان من المحتوم

على الملوك الوطنيين القيام بها، ولكن من الجليّ أنه كان من المتعذر أن يُستوحى الهاتف، من غير أن تُؤدَّى بعض الشعائر، وبخاصة تلك التى كانت تتضمن عبارات تخص الملك القائم على عرش مصر، بالنبوءة الإلهية وملكوت الأرض، جرياً على العادة التى كان يتبعها كهنة آمن، عندما يستقبلون الفرعون، إذا وفد إليهم.

وليس بذى بال أن ينعت كهنة مصر «الإسكندر» بأنه ابن «آمن» ولكن الأمر الذى يلفت النظر أن يستمسك الأغارقة - وعلى الأرجح أن يكون الإسكندر قد استمسك معهم - بهذا القول، وأن يصُرّوا على الأخذ بما فيه من ظاهر الجدّ أمام العالم.

ويقول «هوجَرث» إن الإسكندر مضى ينتحل أنه ابن آمن حتى فى البلاد التى لم يكن لآمن فيها من شأن، وليس واضحاً أن شعائر الديانات التى شاعت فى أواسط آسيا كانت تتضمن عبارات أو تقاليد، لها صور محدودة بينة، كالتقاليد التى تتضمنها العبارات المصرية، من حيث إثبات بنوَّة الملوك الفانين للإله الأبدى الأعظم.

ولكن الثابت تحقيقاً، وبالرغم من أن اتباع «الإسكندر» قد أمعنوا فى نسبة القدسية إليه تشريفاً له وتبجيلاً وهو على رأس زحفه، وبالرغم من أن نُقاده من الإغريق وغيرهم قد أمعنوا فى التنديد بهذه القدسية، والاستهزاء بها، أن وجه تقديسه قد ظل قائماً على بنوَّته لآمون.

على أن تأليه «الإسكندر» بعد موته، ذلك التأليه الذى روَّج له اتباعه، خدمة لأغراضهم ومراميهم، قد اعتبر فى آسيا الصغرى وسوريا وبابل - ومنذ أول القول به إلى نهاية الاعتقاد فيه - تأليهاً فى

الهيكل المصري. لا فى الهيكل الآسيوي، فقد كان من حظ الأغارقة، وبخاصة من حظ الأمراء المحبين لأهل الروم، أن يظهر الإسكندر على المسكوكات وله خصائص بطل كهيرقل مثلاً. أما إذا أريدَ أن يكون إلهًا كاملاً، فإن قرنى آمون الكبشيين، لابد من أن تبرزا من خلال شعره الجميل. ومن هنا ذُكر الإسكندر باسم ذى القرنين، فى القصص الشعبية التى ذاعت قبل الإسلام، ثم ذُكِر فى القرآن، وذاع فى المدونات التاريخية التى انتشرت فى نصف ممالك آسيا، وكثير من بقاع أفريقيا.

هذه الحقائق تحملنى على الظن أكثر مما يحملنى كثير من الشواهد الأخري، بأن الإسكندر مضى مصرّاً على بنوته لأمون، حتى بعد أن غادر مصر، وأنه اتخذ هذه البنوة شعيرة دينية، لازمته أينما حل وكان، ولكن أثرها كان يزيد قيمة أو يقل بحسب الأحوال.

وعاد الإسكندر ورفقته إلى مصر مخترقاً وادى النطرون إلى ممفيس على ما يروى بطلميوس غير أن أرسطوبولس يقول إنه عاد عن طريق فرطُنيوم متبعاً نفس الطريق الذى أتى منه. غير أن بطلميوس فى هذا أوثق رواية. وشُغل الإسكندر فى ممفيس باستقبال السفراء الذين وفدوا إليه من الدويلات الإغريقية، وتلقى المدد الحربى من مقدونيا.

هنالك رأى أبناء البلاد أسيادهم الجدد يستظهرون بثقافتهم الموسيقية والرياضية فى حفلات عظيمة، ويقدمون القرابين والضحايا إلى زيوس على النمط الهلينبي، ولكنا نعلم أن اليونان كانوا يعتقدون أن هذا الإله، باسمه الإغريقى وشعائره الإغريقية، نظير آمن المصري، الذى أعلنت بنوّة الإسكندر له.

فى ربيع سنة 331 ق. م وقد يكون ذلك بعد العودة من سيوة بشهر أو شهرين على الأكثر، غادر «الإسكندر» مصر ليشدَّ على ملك فارس فى «ما بين النهرين». وقد نعرف أن جيشه سوف يعود إلى مصر مرة أخري، أما الإسكندر نفسه فلن يعود إليها، والغالب أن الإسكندر لم يشهد كثيراً من مناظر وادى النيل جنوبى «ممفيس»، بالرغم من أن أثر الاحتلال المقدونى كان قد امتدَّ إلى الشلال الأول، بدليل ما يُروَى من أن الإسكندر قد أرسل أفلونيذس الخيوس وهو إغريقى مالأ الفرس، وسقط فى يد الإسكندر أسيراً إلى جزيرة إلفنتين ليُسجن بها.

وترك الإسكندر مصر مستعمرة من مستعمرات القيصرية المقدونية الجديدة، منظمة على قواعد ثابتة.

فنصب «الإسكندر» واليَيْن مصريين، يحكمان مصر كلها، أحدهما «ذُولاسِفيس»، والثانى «إفطِيسس»، وقسَّم حكم المملكة بينهما، ولكن الثانى استقال من منصبه، فتولَّى الأول الأمر كله. ونصب قواداً على الحامية المقدونية، فجعل فنطاليون الُذناوى فى ممفيس وفوليمون الفلاوى فى فلوسيوم، وأمَّر على الجيوش المرتزقة لوقيذاس الأطولى وأوغنوسطوس بن زينوفنطوس وكيلاً «Grammateus» - له عليها، وهو أحد الرفقاء. ومن فوق هؤلاء نصب أشيلوس وإيفيبوس الخلقيسى مشرفين، وعين أفولونيوس بن خرينوس حاكماً على لوبيا، وقليومينس النُقراطيسى على صحراء العرب المجاورة «لإيرونبولس» وأمره أن يترك الوُلاة المصريين يحكمون ولاياتهم بحسب القواعد والعادات القديمة، على أن يجبى منهم ما يفرض عليهم من الضرائب التى يجب أن يؤدوها

إليه. ونصب فيوقسطاس وبالاقروس، وهما من أشراف المقدونيين قائدين يقومان على شؤون الجيش الذى تركه فى مصر. ونصب فوليمون بن ثيرامينس أميراً على البحر. وقيل إنه عهد بحكم مصر إلى أيدٍ كثيرة، لأن طبيعة البلاد وقوتها الحربية التى بهرته جعلته لا يأمن حصر السلطة كلها فى يد رجل واحد.

فيما ذُكر صورةٌ من نظام يتعذر علينا أن ندلى بتفاصيله، فقد قُدِّر لهذا النظام أن يكون قصير العمر جهد القصر. والظاهر أن حكم البلاد الفعلى لم يلبث أن انحصر، حتى فى حياة الإسكندر نفسه، فى يدى قليومينس النقراطيسي، وكان قد أصبح من سكان الإسكندرية الجديدة، وأن النظام الذى وضعه الإسكندر قد بُدِّل، إن لم يكن قد تُرك جملةً، ولما أراد أخلافه مِن بيت بطلميوس أن يضعوا للبلاد نظاماً جديداً أقاموه على قواعد أُخَر. ومن مجمل مبادئ النظام الذى وضعه الإسكندر مستمدّاً من الوصف الموجد الذى خلفه «أريان»، ندرك أنه نظام ينطوى على كثير من التعقيد، فإن السلطة العليا وزعت بين فيوقسطاس وبالاقروس وعهد إلى قليومينس أن يتسلم الضرائب، فى حين أن أمر جبايتها قد تُرك للولاة الوطنيين. على أن المركز الرفيع الذى شغله اثنان من الوطنيين فى نظام «الإسكندر»، أمر لم يتكرر حدوثه فى حكم بيت بطلميوس، حتى أخريات أيامه.

كان قليومينس، على ما يظهر، من المهارة بحيث استطاع أن يستغل القوة التى استمدها من سلطانه الماليّ، فحصر السلطة الحقيقية فى يديه. ولقد اشتهر دِرَاكاً فى العالم الإغريقى بعدم أمانته، وابتزاز أموال الدولة، كما أنه أصبح مبغوضاً فى أثينا بسبب ما أحدثت نظاماته من

غلاء فى ثمن القمح. وتجد مثلاً من طرقه العنيفة فى كنز الأموال، مذكورة فى كتاب الاقتصاديات ينتحل خطأ على أرسطوطاليس. وقد جاء فيه:

لما وقع قحط شديد فى البلاد المجاورة، ولكنه كان فى مصر أقلَّ منه فى غيرها، منع «قليومينس» والى مصر تصدير الغلال، ولما شكا جباة الأقاليم من أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ما فُرِض عليهم من الإتاوة، نظراً لما يُحدِث هذا المنع من كساد فى الأسواق، عاد فأمر بتصدير الغلال، غير أنه فرض عليها ثمناً عالياً لم يسمح إلا بتصدير جزء قليل منها، فحصل بذلك على قدر كبير من المال، كما ردَّ بذلك حجَّة الجباة التى كانوا يحتجُّون بها.

وروى أنه كان مسافراً بحراً فى ولاية كان التمساح فيها إلهاً، فاختطف تمساح أحد عبيده، فجمع الكهنة فى جمهرة، وألقى إليهم بأنه لابد من أن ينتقم لنفسه تلقاء هذا التهجم الطائش، وأمر بأن يُصاد تمساح ليمثل به، فأجمع الكهنة أمرهم، عساهم يحولون دون التشهير بإلههم وتحقيره، فجمعوا كل ما استطاعوا جمعه من الذهب وأعطوه له، فأرضوه بذلك، وأمنوا شرَّه.. ويقال إن الإسكندر لما أمره أن يشيد مدينة عند فاروس «الإسكندرية»، وأن يُنقَل إليها السوق التجارية التى كانت فى «كَنوبَس»، هبط تلك المدينة وأخبر كهنتها وأثرياءها أنه إنما وفد إليهم ليخرجهم من أرضهم، فجمعوا قدراً كبيراً من المال وأعطوه له، ليبقى على سوقهم التجارية، فغادر المدينة ومعه المال، ولكنه عاد إليهم بعد فترة جهَّز خلالها كلَّ المواد اللازمة للبدء فى بناء المدينة الجديدة، وطلب أن يعطوه قدراً من المال أكبر مما أخذ أولاً، بدعوى أنه وزن الفرق بين

إبقاء السوق بمدينتهم أو نقلها إلى الإسكندرية بذلك القدر، فلما علم أنهم عاجزون عن ذلك نقلهم إلى المدينة الجديدة.

ويروى أيضاً أن القمح كان يباع بسعر عشر درخمات لكل «مِدِمْنُوس»، فجمع الزراع فى جمهرة وسألهم على أية قاعدة يستطيعون العمل؟ فأجابوه بأنهم يبيعونه القمح بثمن أقل من الثمن الذى يبيعون به للتجار، فقال لهم إنه يفضل أن يبيعوه بنفس الثمن الذين يبيعون به بقية الناس، غير أنه حدد ثمن القمح بعد ذلك، فجعله 32 درخمة، وأخذ يبيع ما اشترى بهذا الثمن، ثم جمع الكهنة وقال لهم إن نفقات معاهد الدين فى الدولة باهظة، وإنه لذلك يجب إلغاء عدد من الهياكل ووظائف الكهنة، فسارع الكهنة إلى المال يبذلونه له من مواردهم الشخصية، أو من مخصصات هياكلهم، إذ تبادر إليهم أنه سوف يختزلهم، وكل منهم حريص على الاحتفاظ بهيكله وكهنوتيته.

ومهما يكن من أمر ذلك، فليس فى مقدورنا أن نحكم فى حقيقة ما يستحقُّ «قَلَيُومينس» من سوء السيرة، فإنه من الهيِّن - بقليل من المهارة فى قلب الحقائق - أن تظهر أية إدارة حكومية، فيها قليل من الشدَّة والعنف، مجلوَّة فى ثوب من الظلم والاستبداد، كما أن مصلحة بيت «بَطلميوس» بعد موت الإسكندر كانت تتجه - كما لا يخفى - إلى تشويه سُمعة قليومينس، ونحن نعرف أن الإسكندر لم يشأ أن يُقصيه عن السلطة. وقد نقل المؤرخ أريان من كتاب يقال إن «الإسكندر» بعث به إلى قليومينس العبارات الآتية:

أما إذا وجدت معابد مصر، وبخاصة «مقصورة هفسطيون» معنيّاً

بها، فإنى سوف أصفح عن خطيئاتك السابقة، وكل خطيئة تأتيها من بعد ذلك سوف لا ينالك عليها سوءاً مني.

غير أن «مَهَفي» قد أظهر أن هذا الكتاب موضع شك، فقد ذكر منارة «فاروس» البحرية، وهى لم تُبنَ إلا بعد موت «الإسكندر» بسنين عديدة، بأن يوجِّه عنايته خاصة إلى الأشياء التى يعرف أن الإسكندر يُعنى بها، كتعمير الإسكندرية، ومقصورة «Heroon» «هفسطيون». ومما يجدر بنا ملاحظته أن قليومينس قد قُرِن اسمه بمدينة الإسكندرة فى القصة المصرية التى أشرنا إليها فى بداءة هذا الحديث، وبالأحرى قُرِن بتقاليدها المحلية مدى ثلاثة قرون بعد ذلك العهد.

4



الإسكندر في بلاد الفرس



ها قد أتى اليوم الذى أقسمت فيه بالإيمان المغلّظة أن أثأر لليونانيين الذين أذاقهم الفرس ألواناً من العذاب طوال عشرات السنين ستظل خالدة.

مررت سريعاً بمدينة السوس وأنزلت عائلة داريوس مكاناً يليق بمقامها وهو قصر ملوك فارس. رأيت أن أضع حدّاً لتسيارها وراء جندي. ولم أمسّ المدينة بسوء.

فخفّف ذلك العمل الكريم من قسوة القرار الذى وطّنت عليه نفسى منذ اللحظة التى انطلقت فيها لخوض هذه المغامرة وهو تقويض برسيبوليس وتسويتها بالأرض لأنها كانت رمزاً لكبرياء الفرس ومجد ملوكهم. فهى تشهد لزائرها عندما يلقى عليها أول نظرة على صلف من بناها. وقد كانت الوفود تفد عليها من جميع أصقاع العالم ومن ضمنها وفود اليونانيين. وتقف عند بابها الرئيسى لتبلغ ملك الملوك آيات ولاء شعوبها. وأن الرسل الذين قدموا إلى بلاد يونان مطالبين أهلها بأن يهبوا لملك الفرس الأرض والماء ليقوا أنفسهم من غائلة جند فارس انطلقوا من تلك المدينة الطاغية.

حقّاً إنّى لم أشعر بأية شفقة نحو مدينة برسيبوليس عندما أمرت بإشعال النيران فى جميع أرجائها حتى لا يبقى منها أى بناء قائماً. واختطفت مشعلاً وذهبت إلى القصر الذى دبرت فيه الخطط التى تولدت عنها العديد من الكوارث التى انصبت على الشعب اليوناني. ووقفت عند بابه. ورميت بالمشعل وطلبت من الضباط الذين كانوا

يصحبونني أن يقتدوا بي فيرموا القصر مثلي بالمشاعل.

وحاول برمينيون مرّة أخرى أن يثنيني عن عزمي قائلاً إن ذلك القصر أصبح ملكي وفي يدي فلا فائدة إذاً في إحراقه لأني إذا أحرقته أضعت ما غنمت. وتركت نصيحته جانباً لأنها كانت تتنافى مع ما عزمت عليه وتناقض ما كنت أراه واجباً مفروضاً عليّ فرضاً.

كان ذلك القائد الشيخ يرى الأمور من وجهة منطقية ضيّقة تدفع به إلى محاولة صدي عن صنيع سيعتبره الناس في الحاضر وفي المستقبل أيضاً عملاً وحشيّاً لا يليق بمقام ملك مقدوني حظي بالتشبع بتعاليم أرسطوطاليس.

ولكن في تلك اللحظة التي كنت فيها أمام القصر لم تكن لي إلا غاية واحدة وهي إنصاف اليونانيين الذين سبقوني ولو بتلك القسوة. وهم أهل لذلك لأنهم وقفوا في وجه داريوس وجيوشه الغاشمة ببطولة نادرة وخاضوا لصدّه حروباً طاحنة.

كنت أنظر إلى النيران تلتهم القصر وأستمع إلى أزيز الحريق وأحسّ بأن لحظة الانتقام والتدمير التي كنت أحياها كانت أيضاً لحظة لها أبعاد روحية.

كان الحريق الذي أضرمته بمثابة طقس ديني وقف أثناءه الإسكندر المقدوني خاشعاً متضرعاً أمام الآلهة يريق الخمر من الأكواب قطرات متوالية تقرباً للآلهة حتى يباركوا أرواح أولئك الذين ضحوا بحياتهم وهم يكافحون الفرس.

ان الحريق الهائل والدخان المتصاعد إلى كبد السماء لدليلان على أن الحملة التى شنها اليونانيون على الفرس قد بلغت ذروتها ومنتهاها. فقد قضى يومها على إمبراطورية فارس قضاء يكاد يكون مبرماً وحررت المدن اليونانية فى آسيا الصغرى وطهرت البحار من أسطول فارس الذى كان يوالى الغارات علينا فأمست تلك البحار مجالاً لليونانيين يرتعون فيه متى شاءوا ويعبرونه كما شاءوا ليتموا صلاتهم مع سائر أقطار العالم.

قد بلغت يومها الهدف الرئيسى الذى رسمته. وما كان حلفائى الذين تبعونى إلى برسيبوليس ينتظرون منى أكثر من ذلك.

فدعوت رؤساءهم ودار بيننا حديث طويل. وكنت قد أرسلت إليهم قبل قدومهم الغنائم الضخمة التى غنمناها من الفرس حتى يعودوا بها إلى ديارهم ويوزعوها بين مواطنى مدنهم. تفطنت إلى ذلك لأنى كنت أعلم أن مثل تلك الهبات إذا سبقت محادثة مهدت لها الجو المناسب وخولت لواهبها القدرة على تغليب رأيه.

وفعلاً أنصتوا إليّ كامل الانصات وسروا عندما علموا أنى أسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم وقد قاسوا عديد المحن وتصدوا لمغامرات لا تحصى وشاركوا فى كثير من المعارك الطاحنة. وكان فرحهم يعظم عندما يفكرون أنهم سيعودون إلى المدن التى انطلقوا منها فائزين مظفرين ومحملين بغنائم وافرة وبنصيبهم من مجد اكتسبوه عن قدرة وجدارة.

واستأذننى خطيب من أثينة حتى أسمح له بأن يلقى على مسامعنا خطاباً موجزاً يستخلص فيه العبرة من تلك اللحظة التاريخية. وأعطيت

له الكلمة ولو أنى أمقت خطب الفخر والتباهى التى تشبه خطب التأبين التى يستأجرها لها الناس الخطباء. وشرع ذلك الخطيب فى خطابه. وكان مهذاراً طليق اللسان. وكم كان الاثينيون مهرة فى هذا الضرب المزيف من الخطابة. وضرب صفحاً عن الشتائم التى صبها ديموسثينيس عليّ وعلى أبى مدعياً بالخصوص أننا من قوم همج بل فضل أن يدعى أن شعب أثينة يحبنى حبّاً جمّاً وأنه سيعتبرنى من اليوم فصاعداً سيده الشرعى بعد الانتصارات الباهرة التى أحرزت عليها.

كنت أبتسم ابتسامة ساخرة طوال الفترة التى دام فيها خطابه ولكنه كان يجتنب تحديق النظر إليّ حتى لا يتعثر فى كلامه فيفسد خطاباً نسجه بدقة لهذه المناسبة.

وبقيت منذ ذلك اليوم وحدى لا يصحبنى إلا جنودى المقدونيون وحلفائى الذين اختاروا أن يواصلوا الحملة معى كمرتزقة ويتصدوا معى للمجهول.

كنت أحس بأنى أستطيع أن أتصرف بأكثر حرية وأنى أقدر على مواجهة الاخطار وخوض المغامرات الجريئة لبلوغ هدفى ومواصلة سيري.

وقال لى هفستيون فى حديث طويل جرى بيننا فى مساء ذلك اليوم إنه لا ينبغى أن أكون واثقاً بنفسى هذا الوثوق. وقد تسرعت فى رأيه عندما سمحت لحلفائى أن يتركونى لأن داريوس مازال حيّاً يرزق وهو قادر على حشد جنود جدد يأتى بهم من مملكته الشاسعة الأطراف وقادر أيضاً على أن يدعو لنجدته الشعوب المجاورة له. فإذا وفق فى سعيه شن علينا هجوماً واسعاً فنجد أنفسنا منعزلين عاجزين فى ظروفنا الحالية على التغلب عليه.

استمعت إليه بعناية. وهكذا كنت أفعل دائماً عندما لا أكون متفقاً معه فى الرأي. وحاولت تهدئة خاطره قائلاً إن داريوس بعد أن كبّدناه الهزائم الكثيرة وبعد أن أحرقنا برسيبولويس أصبح شبح ملك. همّه الوحيد هو الفرار إلى أقصى الأرض. وأضفت إلى قولى هذا:

إن المصاعب التى ستعترضنا لن يسببها لنا داريوس، ولن تكون ناتجة عن المعاركة الجديدة التى ينبغى أن نخوضها لنتوغل فى أصقاع الأرض. فحملتنا قد كللت بالفوز من الوجهة العسكرية، وكان النصر حليفنا، فالمشكلة الأساسية المطروحة علينا من اليوم تكمن فى أنفسنا. أتساءل هل سنجد فى أنفسنا القوة الكافية لا لمصارعة الأعداء أو لبلوغ هدف معين بل لمواجهة المجهول.

وكانت مواجهة المجهول هذه تبعث فى نفسى بالفعل الفزع والحماس فى آن واحد. وتركت برمينيون بإكبتانا وعيّنته حاكماً عسكريّاً للمدينة. كنت أكنّ له كما قلت سابقاً كثيراً من التقدير والمودة والاحترام. وإنما بدأ يضايقنى لأنه لا يزال يخاطبنى من منطلق الحنكة وبلهجة المربّي، كما لو بقيت فى نظره وليّ العهد المراهق الذى تعرف عليه فى مدينة بيلا. كان ذلك القائد الشيخ مليئاً بالحكمة، ولكن حكمته كانت من النوع البسيط ضيق الأفق الذى يكبح العزائم ويعاكس الأحلام الطموحة. لو عملت بالنصائح التى كان يسديها إليّ بإخلاص ومودة منذ بداية الحملة لانتهت المسيرة بفتح مدينة صور.

تركته باكبتانا مؤكداً له أن المدينة فى حاجة إلى حاكم عسكرى موهوب ورشيد. لم يبد على ملامح وجهه أنه صدقني، ولكن لم يستطع

إلا الخضوع لأمري، وقد فطن أنى عازم على مواصلة مغامرتى الجريئة دون أن تعرقل سيرى نصائحه وحثه على الحذر.

كان من المتوقع فى المرحلة الموالية أن أتصارع مع داريوس. ولكن القدر أراد خلاف ذلك. لم أبارزه إلا مرة واحدة فى معركة إسوس فى تلك اللحظة القصيرة التى بارزته فيها وجهاً لوجه فقدحت عيناه وعيناى معاً وأرسل سيفانا المشتبكان الشرار.

ولما رأيته للمرة الثالثة كان ذلك العدو العظيم ميتاً. سقط أسيراً - ويا للمهانة - بين أيدى بسوس فقتله هذا الأخير لأنه كان ينوى اعتلاء عرش إمبراطورية وقع محوها من الخريطة.

كان داريوس مطروحاً فى بركة من الدماء، قد مزّقت جسده طعنات عديدة سددها له غلمان بسوس عندما رفض أن يمتثل لأمرهم فيتبعهم - وهو الرهينة الغالية - إلى حيث كانوا يحثون السير للنجاة من جنودى الذى كان يلاحقهم بعنف ودون هوادة.

لم تزل عيناه مفتوحتين وكان يخال لى أنه يسألنى فى حيرة لماذا لم أرض باقتسام الدنيا معه لحقن أنهار من الدماء المراقة من الجانبين والكف عن خوض المعارك المبيدة.

وأحسست بشعور غريب يهزني، فنزعت معطفى الأرجوانى الذى لا يرتدى مثله إلا الملوك وطرحته على جثة داريوس الملطخة بالدماء.

اختفت فى ذهنى صورة العدو اللدود. ولم أر أمامى إلا ملكاً صريعاً. كان ملكاً متجبراً متكبراً حقوداً شرساً، ولكنه كان مع ذلك ملكاً شجاعاً.

الإسكندر الأكبر ملك الملوك
وصاحب إمبراطورية الفرس

أُسند إليّ لقب ملك الملوك وأصبحت صاحب إمبراطورية الفرس مترامية الأطراف. استوليت على كثير من أقاليمها خطوة خطوة وبمحض قوتي. ووهبتنى الآلهة ما لم يسقط منها فى قبضتى بفضل تلك الميتة غير المنتظرة، ميتة داريوس التى كنت أتخيل وقوعها فى ظروف مخالفة تماماً للظروف التى وقعت فيها. كنت أتوقع أن يصرع فى معركة حامية مثل التى دارت رحاها فى إسوس عندما يبلغ هيجان الجنود المتقاتلين أوجه فتتعالى صيحاتهم داوية فتغمر الأذهان والأرواح بنشوة عارمة شبيهة بتلك التى يحدثها خمر جبل أولمبوس المعسل. ولكن صرع داريوس غدراً لقد خانه أولئك الذين يدعون أنهم من حزبه. اغتاله بسوس ذلك القزم المغرور. وهو يطالب الآن -ويا للحماقة!- بعرش فارس.

وأمرت بنقل جثمانه إلى بسرقاديس بعد أداء جميع المراسم اللائقة بمقامه تحية منى لجلده ومصرعه الأليم. وأذنت بأن يوارى فى قبر منقور فى صخر الجبل بجانب قبور أجداده. كانت ميتته تفرض عليّ رغم ما كان يفصل بيننا ورغم أنهار الدماء التى أريقت فى كثير من المعارك الطاحنة أن أنسى جميع نزاعاتنا. أن أنسى كل شيء.

وعزمت على تصفية الحساب مع بسوس. ولم أكن فى الحقيقة أعيره كثيراً من الأهمية لأن أولئك الملوك الأقزام الذين تأتى بهم الصدفة يجرؤون على اغتصاب مناصب ليسوا لها أهلا. فيعجزون عن حفظها لأنهم يحملون فى نفوسهم بذور فشلهم.

واختار بسوس المسالك الوعرة فاقتحمها لينجو من مطاردتنا له. وكان يدمر ويحرق كل شيء حوله أثناء انسحابه. ظنّاً منه أنه يستطيع إرغامنا على الكف عن ملاحقته وحملنا على التقهقر بإزالة مصادر الميرة.

وقطعنا ونحن نلاحقه منطقة جبال القوقاز الهندى وسلكنا مسالك جبلية تعلوها قمم كللتها الثلوج. وكانت تلك المغامرة من أشق المغامرات التى أقدمنا عليها ولكنها زودتنا بتجربة غالية كسبناها بباهظ الثمن. ولاح لنا بعد لأى إقليم باكترياني.

كانت الاستراحة ممكنة فى مدينة باكترا خاصة بعد أن قبضنا على بسوس فوجدناه غلاماً هزيلاً يرتجف خوفاً. وكان جنودى المقدونيون المدربون يطالبوننى بالاستراحة ويلحون فى الطلب لأن عبور القوقاز الهندى أنهكهم. وقد جرى فى ظروف مناخية بلغت ذروة القسوة. وكان الكثير منهم مرضي. فاقمت لهم مستشفى فى عاصمة اقليم باكتريانى حتى يستطيع أطباء الجيش معالجة المرضى والجرحى الذين تنذر حالتهم بالخطر.

أما أنا فانى كنت عازماً على مواصلة سيرى ومصمماً على التوغل فى الأصقاع. لا أرمى من وراء ذلك إلى احتلال أقطار جديدة وتوسيع رقعة ملكى كما سيدعيه فى المستقبل من سيعتنون بدراسة تأريخ حياتي.

استوليت بقوة السلاح على جميع ما كنت أطمح إليه. فكسبت مملكة شاسعة. ودان لى المصريون وأطلقوا عليّ لقب فرعون. ودان لى الفرس ولقبونى بلقب ملك الملوك. وحملت تاج ملوك الفرس العظام الذين زين جبين كورس الحكيم أول ملوكهم. وسعدت بما هو أخطر من كل ذلك حيث كنت أضع نفسى فى منزلة أسمى من المنزلة التى تحددها الألقاب الشرفية التى أسندت لي. وقد استولى عليّ هذا الشعور ابتداءً من اليوم الذى زرت فيه معبد أمون فى صحراء سيوة. فتجلت لى فيه الأسرار.

هل من مزيد بعد أن استوليت على ما استوليت عليه وشددت ما شددت بيد من حديد؟ هل من مزيد بعد أن انكشف لى ما انكشف فحافظت عليه فى أعماق النفس كالسر المكنون؟

أنا الغالب الذى لا يُقهر. أنا صاحب أعظم مملكة فى العالم. وأنا فوق صروف الدهر التى تنال البشر فتودى بالملوك وعروشهم. أنا خالد.

ما هذه الرغبة فى مواصلة المسيرة؟

كان فى وسعى أن أشيّد عاصمة جديدة لملكى تكون ساطعة وفخمة مثلما كنت أتصورها فى أحلامي. كان من اليسير عليّ أن آمر المهندسين الذين كانوا يصحبوننى ببناء مدينة المدن تحت رقابتى الدقيقة أى المدينة المثلى التى تكون مقرّ إله رضى أن يكون فى نفس الوقت ملكاً على البشر.

كنت أجمّع فى تلك العاصمة التى قد تسمّى الإسكندرية -ولِمَ لاَ؟- كلّ كنوز ملوك الفرس التى أمست فى عهدتي. كنت أبنى أبهى قصر فى العالم لأقضى فيه آخر أيام حياتى البشرية هادئاً مطمئناً بعيداً

عن الأخطار والمحن والمخاوف. أنعم بالسعادة صحبة أحبائى وحيرة جنودى المقدونيين أولئك الجنود القدامى المدربين الذين رضوا طائعين أن أقودهم عندما اقتحمنا هذه المغامرة بمعية اليونانيين جميعهم.

لو بنيت تلك المدينة لاعترف جميعهم بألوهيتى ولسلمت من احتجاجاتهم واعتراضاتهم التى كانت تؤلمنى أيّما إيلام.

لو بنيت تلك المدينة لاتكأنا كل مساء على الارائك الوثيرة فى قاعة المآدب الفسيحة لنحتسى الخمر الحمراء القانية التى سريعاً ما تصعد إلى الدماغ فتملأ النفس حبوراً دون أن تلعب برأس شاربها، ولسكبنا خمرتنا فى أكواب من ذهب مرصعة بالأحجار الكريمة وكم هى كثيرة فى خزائن الفرس، ولترنمنا على نغم مقطوعات موسيقية إيونية يشنف بها أسماعنا عازفون على المزامير، ولأنصتنا إلى الرواة يلقون علينا فقرات من ملحمة الإلياذة. وإذا انتشينا قليلاً باحتساء الخمر وسماع الإلياذة وانكببنا على الموائد قام هفستيون وانتصب وسط القاعة وهو يعدل إله الشمس أبلّون جمالاً وألقى علينا بصوته العذب الذى يثلج الفؤاد فى أشدّ حالات العسر أبيات هوميروس التى تلذّ لى أكثر من سواها، وهى تلك التى تعظم العاطفة البشرية الوحيدة التى تحمل - كما قلت سابقاً - بشرى الخلود وهى عاطفة الصداقة. والصداقة التى مجّدها هوميروس هى الصداقة التى كانت تربط بين أخيلوس وباتروكلوس، فبلغت ذروة من السموّ لم تبلغها أية عاطفة مماثلة فأثارت حسد الآلهة.

لو تحقّق ذلك لبلغت من السعادة قمّة لا يتمنى تجاوزها أيّ إنسان

سوى أنا. ذلك لأنى كنت أعتقد أن لا سبيل إلى بلوغ النهاية ولا سبيل إلى بلوغ الكمال.

فإذا انتهت معركة تهيأت الأسباب للدخول فى المعركة الموالية. كنت أحسّ دائماً بأنى صاعد سلما درجاته لا تنتهي. لابد لى أن أصعد كل مرة على درجة دون أن أفكر لحظة فى التوقف قائلاً:

- كفانى صعوداً. تلك نهاية المطاف.

كان خلاّنى لا يفهمون موقفى هذا ولو أنهم شاركونى حماسى الفياض منذ بداية الحملة. أما جنودى فكانوا أعجز من أن يصلوا إلى مستوى الفهم والإدراك. كانوا ينظرون إليّ مبهوتين وهم عاجزون عن إدراك مقاصدى إذ أنى بلغت فى نظرهم الأهداف التى رسمتها لنفسي.

وكنت فى حالات الهدوء والسكينة أبرّر فى قرارة نفسى شكوكهم واعترافاتهم. ولكن إذا تغيرت حالى أحسست بأن ضيق آفاقهم ونظرتهم البسيطة للأمور يضيقان صدرى فاستسلمت أحياناً إلى نوبات من الاستتكار والغضب ما كنت قادراً على كبح جماحها.

وها أنا أفكر الآن والنفس حزينة فى ما آل إليه أمر فيلوتاس أحد خلاّني. كان يعارض دائماً مشروعاتي. وهو غير قادر على استيعاب كنهها وإدراك مراميها أى المرامى التى أحمّلها إياها.. وكم حاولت أن أفهمه أن من يطبق الآراء والأفكار التى كان يصدح بها لا يمكن له فى أحسن الظروف أن لا يطمح إلا إلى الأحراز على منصب موظف عاطل فى إحدى الولايات الآسيوية الضائعة. وكنت أضيف قائلاً إن السيطرة

على الدنيا لا يظفر بها ذو العقل السليم والمزاج المعتدل.

ما كان فيلوتاس يريد أن يفهم وما كان يحاول.. وآل به الأمر إلى أن أسرّ إلى قوّاد الجيش بأنه أصبح يخشى عواقب سيرتي.

كان يقول لهم إنى سأجد دائماً أعذاراً مقنعة حتى لا نعود أبداً إلى أوطاننا. وإنى اخترت أسلوب عيش فارسى وفضلته على أسلوب عيش المقدونيين. وذلك لا يتجلى فحسب فى طريقة المخاطبة ونوعية الأعمال بل أيضاً فى نوع اللباس الذى أصبحت أرتديه.

لو واصل فيلوتاس التشنيع بى بهذه الصورة لاقتدى به آخرون وسرت العدوى فى الجيش. فأرغمت على التخلص منه كلف نفسى هذا القرار ما كلف.

وطغى عليّ حزن عميق بعد أن أمرت بقتله. ولكن ما وجدت لردع صنيعه أيّ حل آخر. وحافظ فيلوتاس على منزلته فى قلبى لأنى ما زلت أعده من بين خيرة حلانى الذين شاركونى مغامراتى وأعزّهم لديّ. وإنما أتت الساعة التى فقد فيها مكانه بيننا.

أخشى أن ينحرف هذا الحديث إلى مرافعة للدفاع عن نفسي. وهذا منافٍ لطبيعتى تمام المنافاة. إذ صنعت خيراً فى حالات هدوء وسكينة - وكم كانت قليلة - أو اقترفت شرّاً فى حالات غضب - وكم كانت كثيرة - فقد قمت بهذا أو ذاك عن دراية. فلا أكترث بحكم الآخرين على تصرفاتي، وقد صرحت بذلك مراراً ولا أبالى بحكم التاريخ لى أو عليّ، لأن أحكام التاريخ كما يعلم جميع الناس أحكام نسبية ومشبوهة.

كيف يستطيع الكاتب الرديء الذى سيتناول حياتى بالدرس بعد مضيّ بضعة قرون أن يطلع على حالتى النفسية، فيكتشف الدوافع الخفيّة التى أدت بى فى كل مرة إلى إصدار حكم قاس لا رجوع فيه على مساعدين لى أكنّ لهم المودة مثل فيلوتاس وبرمينيون؟

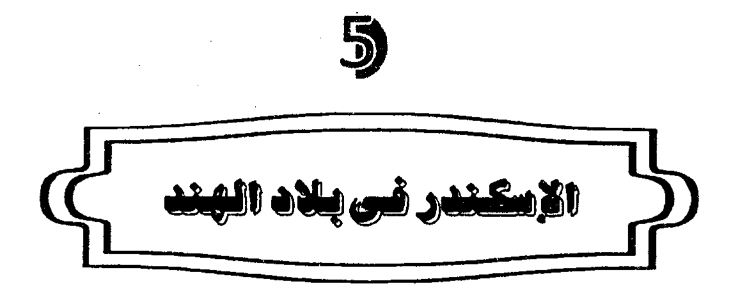
من أتاه بعد قرون نبأ حريق فاجتهد للتعرف عليه عن طريق مطالعة الكتب وجمع المراجع الأخري، لا يشبه من وجد نفسه محاطاً بنيران ذلك الحريق. فأول الرجلين عاجز عن ادراك ضوئه الساطع وقوته المدمرة.

لا يستطيع أحد ادراك كنه الحريق الذى كان يضطرم فى قلبى وفى فكري، لأنى أنا وحدى الذى غمرنى ضياؤه ولفحتنى نيرانه.

***



5





حقاً، لقد فقدت كثيراً ممن كنت أكنّ لهم المحبة. وكنت إلى التوادد حولى فقيراً ولو لم أصرّح بذلك لأيٍّ كان. فكان الفراغ يتّسع حولى شيئاً فشيئاً كلما أصابت أصدقائى نوائب الدهر. وكان يسيطر عليّ ذلك الشعور بالعزلة عندما أمرت بمواصلة المسيرة فى اتجاه أصقاع جديدة غير عابئ باعتراضات المقدونيين.

لم تكن المسيرة التى أمرت بها حملة عسكرية بالمعنى الدقيق للكلمة بل رحلة لسبر المجهول. كان الهدف فى تلك المرّة هو الهند. وكنت أعلم أن تلك الحملة الاستطلاعية ستكلفنا تضحيات جديدة حيث إننا سنواجه فى معارك طاحنة دامية أقواماً عقدوا العزم على الاستماتة للدفاع عن أنفسهم.

لا أستطيع عدّ الجراح التى أصبت بها أثناء المعارك التى خضناها. وكان الجنود المقدونيون أثناء المعارك الأولى التى واجهنا فيها الهنود يصارعون الأعداء بضراوة أخذت تتصاعد على مرّ الأيام حتى أصبحوا يعاملون المهزومين بدون شفقة وبدون رحمة.

وعندما بلغنا ضفّة نهر السند ذلك النهر الذى كان بلوغه من بين الأهداف التى رسمتها للحملة فى مرحلتها الاستكشافية أجبرت على مواجهة جيش بوروس المنظم أحكم تنظيم والخوض معه معركة سميت بمعركة الفيلة.

ورغم المحن التى كابدتها والنوائب التى واجهتها ورغم الجراح

التى أصابتنى فى كل موضع من جسمى اشتبكنا مع العدو بقرب نهر هوداسبيس أحد روافد نهر السند. وكانت معركة عظيمة تعدّ من بين أضرى المعارك وأجملها.

دحرنا العدوّ دحراً فى معركة فاصلة غيرت مجرى الأحداث تغييراً كليّاً لأنها ثبطت عزائم ملوك الهند الآخرين الذين كانوا يتوهمون على غرار بوروس أنهم قادرون على صدى وإيقاف مسيرتي.

ولكن نشوة ذلك الانتصار الذى أثبت مرة أخرى أنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تصدنى عن غاياتي، قد كدرها فقد رفيق لى صاحبنى فى كل لحظة من حياتى وشاركنى ساعات انتصاراتى وساعات محنتي. ذلك الرفيق هو حصانى بوكيفالوس.

ما كنت حريصاً على كتمان لوعتي، لقد فقدت حبيباً عزيزاً لم يسئ إليّ قط بل لم يأل جهداً ليوصلنى دون كلل أو ملل إلى هدف يتباعد دوماً عني. وذلك بفضل قدرته على تحمل المتاعب ومهارته فى العدو.

تراودنى ذكرى أول لقائى به. قال جماعة من أشهر مروضى الخيل وأمهرهم لأبي، إن ذلك الحصان المتوحش إلى حد انه لا يستطيع أحد ركوبه. وكان الحصان قد بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. وعندما طلبت من المروضين أن يقدموه لى حتى أحاول بدورى ركوبه أطلق جيمع الحاضرين ومن بينهم أساتذتى ضحكات عالية. فلم تثن ضحكاتهم عزيمتي. فاقتربت من الحصان الذى كان يهتز ويصهل ومددت ذراعى كأنى أريد أن ألامس عرفه بيدى مهدّئاً إياه وملاطفاً. وفطنت بغتة أن

ذلك الحصان البديع خائف من ظله الممتد على الأرض. فدفعت رأسه بحركة سريعة حتى يواجه أشعة الشمس. فهدأ روعه. ووقفت بجانبه ونظرت إليه كما لو أصبح لى صديقاً عزيزاً. ونظر إليّ بدوره. وعلمت أنه أدرك جيداً منذ تلك اللحظة أننا سنكون متلازمين فى ساعات النصر وساعات البلوي.

نعمن. لقد فقدت يومها صديقاً مخلصاً له من الخصال الإنسانية ما لم يتوفر فى أى صديق عاشرته باستثناء هفستيون الذى كان عدلي.

فأصدرت قراراً بأن يدفن كما يدفن أى صديق من أصدقائى وافته المنية، وأن تقام بمناسبة مأتمه جميع الطقوس التى يستحقها، وهو الصديق الذى برهن لى طوال سنوات عديدة عن وفائه وإخلاصه، وساعدنى فى صمت وسكينة، وأسهم اسهاماً فعالاً فى جميع انتصاراتي. ولبست ثياب الحداد، وحزنت لفقده حزناً مخلصاً. وبنيت مدينة حملت اسمه وهى مدينة بوكيفاليا.

لا سبيل إلى مواصلة الزحف. فإذا ما فتئت أحنّ بكل جوارحى إلى استكشاف أقاصى الأرض وما وراءها فإن جنودى المقدونيين امتنعوا عن مواصلة المسيرة. لقد أطلعونى بعد أن قطعوا مسافة طويلة على ضفة نهر السند أنهم أقرّوا العزم على أن يعودوا على أعقابهم. وأصرّوا على ذلك.

فاستنجدت بقوّاد الجيش، ظنّاً منى أنهم يستطيعون إقناعهم بأن لابد من إتمام احتلال الهند قبل العودة إلى الوطن. فرفض الجنود الخوض فى هذه المسألة. فأعلنت لهم عند ذلك عزمى على مواصلة

السير لوحدي.. فلم يهزهم حديثي.

كانوا يستطيعون أن يدلوا إلى بما يبرر موقفهم تبريراً قطعيّاً. لقد برّح بهم الحنين إلى أوطانهم، وزلزلهم شوقهم إلى أقربائهم الذين حرموا من رؤيتهم مدة طويلة، وأطاح بهم تعب شديد بلغ حد الإنهاك.

ولكن رغم ذلك كله كنت أشعر بأن حماسى مازال يدفعنى إلى الأمام وأنا أفكر فى العوالم المجهولة التى لم تدسها حوافر خيلي.

كنت أريد أن أتوغل فى الجزيرة العربية وبلاد الحبشة بعد احتلال الهند لأن تلك الأصقاع كانت تفتنني. وكنت أريد أيضاً أن أخضع قرطاج وأتجاوزها لأصل إلى قادس حيث يشاهد عمودا هراكليس اللذان انتهى إليهما اديسيوس فى تجواله عبر البحار كما حدثنى بذلك العلماء الذين انضموا إلى ركبي. ولربما توجهت بجيشى بعد ذلك إلى أصقاع مناخها أطيب وأرحهم وشمسها أقل قسوة أعنى بذلك جنوب إيطاليا وصقلية.

إن العالم ينتهى فى إحدى تلك المناطق التى لم أبلغها. فإذا بلغت خطاى إلى تلك النقطة بالذات كان بوسعى أن أعلن عن يقين أن الإله الجديد الذى تقمص جسمى ظفر بملك البشرية جمعاء، وبسط سلطانه على كامل المعمورة بحد سيفه وبفضل إرادته الصماء. وحق لمثلى أن يكون ملك البشرية عذابه ومحنته.

ما ألذّها رؤية. وما أروع المشروع.. ولكن فى تلك الساعة كان لزاماً عليّ أن أسلك مسلكاً آخر لأن جيشى كان مصمماً على العودة تصميماً لا رجوع فيه.

كنت آنذاك أفكر وأعيد التفكير فيما جرى عندما قابلت نساك الهند. قابلتهم قبيل انتفاضة جندى عندما كان كل شيء ينبئ بأنى على وشك تحقيق مشروعاتي. تعددت انتصاراتى وأخضعت معظم الأراضى الهندية لسلطاني. فكنت متيقناً أن العالم بأسره بأصقاعه المعروفة وبأصقاعه المجهولة أيضاً يوشك أن يسقط فى قبضتي.

لاقيت أولئك النساك فى مرح غمرته الشمس بأشعتها. كانوا فى شغل شاغل عنا فلم يلتفتوا إلينا عندما اقتربت أنا وقوادى منهم. كانوا يقفزون قفزات قصيرة على الأرض العارية وعلى إيقاع غريب. كانوا يقفزون دائماً فى نفس المكان كأنهم لا يريدون أن يبرحوه مهما كلفهم ذلك ما كلف.

كانت وجوههم هادئة ونظراتهم ثابتة مسددة إلى الفضاء. وراقبت حركاتهم طويلاً. ثم طلبت من رجل يعرف لغتهم أن يسألهم عن معنى تلك الطقوس التى كانوا يقومون بها دون انقطاع على نفس الإيقاع.

فأجاب أكبر الجماعة سناً وهو لا ينفك عن دق الأرض بقدميه فى الساحة الضيقة التى اقطتعها لنفسه قائلاً:

- أيها الملك العظيم. انتهيت إلى أقصى الأرض وامتلكت الشعوب والأقاليم ولكنك لم تقدر على ادراك حقيقة هى أبسط الحقائق وأهمها فى هذا العالم الفاني.

- وما هى أيها الشيخ؟

- فى هذه الحياة القصيرة التى لا تدع لنا فسحة لمعرفة غيرنا ولا لمعرفة أنفسنا لا يملك كل إنسان من هذه الأرض سوى هذه القطعة

الضيقة التى ندوسها الآن بأقدامنا كما تري. ولا سبيل إلى كسب مساحة أكبر. وأنت أنت الملك العظيم المنصور قد سارعت باحتلال الأرض كلها. فغادرت وطنك وشققت عدداً كبيراً من الأقطار وعبرت الصحارى وكبدت نفسك وصحبك الكثير من المحن. ولا أدرى لاية غاية قمت بكل هذه الأعمال. يا جلالة الملك ستموت مثل كلّ واحد منّا. ولا تحتاج يومها إلا إلى جزء ضئيل من الإمبراطورية التى تتباهى بالسيطرة عليها. وهذا الجزء من الأرض هو بالضبط مكان قبرك. تلك هى الحقيقة التى نعيدها إلى أذهاننا جاهدين حتى لا ننساها. فندقّ بأقدامنا كل يوم ومدة ساعات طويلة ذلك الشريط الضيق من الأرض الذى يحتاج إليه كل واحد منا يوم مماته. هى حقيقة بسيطة جدّاً ولكنها ذات وزن كبير لأنها تجنب كثيراً من الزلات. وأثقل الزلات جميعاً هى تلك يقع فيها الإنسان عندما يطغى عليه طمعه وطموحه فينسى أن «الحياة الدنيا متاع الغرور».

هكذا تحدث الناسك الشيخ ثم أعرض عنا وعاد إلى تعاطى قفزاته القصيرة، تمنيت لو أتاح لى الحديث معه فأصغى إليه وهو يجيبنى بصوته الهادئ عن الأسئلة الخطيرة التى كانت تختلج فى نفسي. وإنا بدا لى أنه لم يعد يهتم بحضورى بين يديه.

وأدركت أن الشيخ مصيب فى قوله. والصواب عنده هو الإعراض عن سلوك الطرق الواسعة المؤدية إلى جليل الأعمال ومقت المرور تحت أقواس النصر لإحساسه العميق بأن كل شيء فى الحياة الدنيا ضئيل وتافه. كما شعرت بأنى أنا أيضاً على صواب. والصواب عندى هوالميل

إلى سلوك الطرق الواسعة وحب المرور تحت أقواس النصر تدفعنى إليهما حيرة دائمة ويهزنى شوق عارم شبيه بالذى يدفع العقاب إلى ذلك الجهد للسموّ حتى يبلغ أعلى القمم وأقربها إلى الشمس ولو جرّ توقه إلى الأعالى كسر جناحه وهبوطه على الأرض.

هل أحسّ جنودى إحساساً قويّاً ملك منهم النفس بتفاهة ما كنت أرنو إليه؟ هل كان هذا شعورهم كلما طالبونى بأن آذن بالعودة؟

لا شك فى أن هذا الشعور طغى على أنفسهم حتى أصبحوا يصغون إلى أيّ حديث يرمى إلى إقناعهم بمواصلة السير. لقد أحسوا بعد خوضهم تلك المغامرة الطويلة بالحاجة الملحة إلى العودة إلى بيوتهم وبالحنين إلى حياة يومية هادئة لا إزعاج فيها «امتلك جميعهم الشوق إلى رؤية أقربائهم.. كانوا يحنون جميعاً إلى زوجاتهم وأبنائهم. كانوا يحنون جميعاً إلى أوطانهم..»[1].

سيكتب كتبة الديوان فى «اليوميات الملكية» على هذا المنوال عندما يحاولون تبرير قرارى المفاجئ بالعودة وذلك بأسلوب رقيق ملمّحين إلى الاعتبارات الإنسانية التى دعتنى إلى إصدار هذا القرار. وهذا الأسلوب فى تسجيل الأحداث ضرورى أحياناً عندما يبحث المرء عن المبررات التى تتيح له اقتراح تفسير مقنع لسلوك غابت دوافعه.

وهكذا عدنا أدراجنا. وكان الجنود يعتقدون أن الحملة بلغت منتهاها. وكان يشعر جميعهم بالفرج بعد الشدة وهم فى طريق العودة إلى أوطانهم

(1) أريان، حملة الإسكندر الجزء الرابع 7 - 1، 13.

وأهليهم. ووصلنا إلى نيكيا بعد أن قطعنا أقاليم كان سكانها مناوئين لنا ومناهضين وأقاليم أخرى كان سكانها موالين لنا ومحبين.

لقد أمرت بأن تشيّد مدينة نيكيا تلك على ضفة نهر هيدسبوس لتخليد ذكرى معركة الفيلة.

وعندما غادرنا تلك المدينة قررت أن تجرى عودة جنودى لا حسب ما كانوا يتوقعون ولكن حسب خطة رسمتها تقضي. بأن يسلكوا طريقاً غير التى سلكوها عندما قدموا إلى الهند.

أردت بهذه الطريقة أن أترك لجنودى المقدونيين القدامى فرصة حتى يفكروا فى الأمر فيقتنعوا بأن المشروع الذى طمحنا إلى تحقيقه لم يكتمل بعد. وإذا لم يقتنعوا بذلك فلا ضير لأنّ الخطة التى رسمتها ستفتح لهم أو بالأحرى ستفتح لى أقطاراً جديدة أولاها ذلك الساحل الهندى الذى يحدّه محيط تصل مياهه إلى العالم الآخر الذى كم كنت أودّ أن أبلغه.

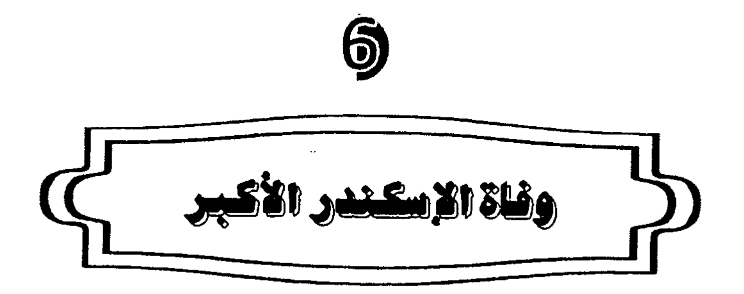
***

امبراطورية الاسكندر الأكبر

البحر الأسود
آسيا الصغرى
بحر قزوين
اسبرطة
بوابات كيليكيه
البحر المتوسط
جو جاميلا
سوسا
(شوشن)
بكتريا
نهر السند
صور
الاسكندرية
بابل
برسيبوليس
مصر
هرمز
الهند
بلاد العرب
البحر الأحمر
نهر النيل
المحيط الهندي



6



وفاة الإسكندر الأكبر

كان متعبا جدّا لما أشرف على تقديم القرابين لآخر مرة فى حياته. وبعد أن أتم القيام بالطقوس الدينية التفت إلى الضباط السامين المحيطين به على اختلاف درجاتهم واختصاصاتهم وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم والكف عن الظهور بالقصر. كانت هذه الكلمات التى خاطب بها الضباط السامين للجيش آخر أمر تفوه به.

وحمل إلى قصره لأنه عجز عن المشي. وكانت حالته الصحية سيئة للغاية.

ولازمته حمى عاتية جعلته عاجزا عن التلفظ ولو بحرف واحد. ولكن الناظر إلى تقاسيم وجهه يفطن بأنه مازال يستطيع أن يميز بين أقربائه.

وقد سجلت «اليوميات الملكية» تفاصيل كل ما جرى بمنتهى الدقة. وهى المرجع الذى أقتبس منه الآن ما سأورده من معلومات حول الظروف التى أحاطت بوفاته.

عندما بدأ نبأ موته ينتشر بصورة غامضة بين الناس هرع الضباط والجنود إلى القصر فى جموع غفيرة. وولجوا الأبواب عنوة. وهم عاجزون عن كبح الرغبة التى كانت تدفعهم إلى رؤيته ولو ميتا.

ولكن عندما دخلوا عليه لاحظوا أنه مازال حيا ولكنه فقد القدرة على الكلام. فكان ينظر إلى جنوده وهم يمرون الواحد تلو الآخر صامتين وهو لا يقدر على مخاطبتهم.

كان ينظر بحسرة إلى أولئك المقاتلين الأشاوس الذين شاركوه المحن

والانتصارات. وكانت نفسه تتوق إلى مخاطبتهم ولكن لم يستطع التعبير عن ذلك الشوق الذى كان يهزه إلا بحركة لعينيه يكاد لا يدركها النظار إليه. وكانت حركة عينيه تعبر عن مدى حبه لرفاقه فى القتال.

وسهر بعض أقربائه ليلة كاملة فى معبد الإله سيرابيس كما جرت به العادة فى مثل تلك الحالات. كانوا يريدون أن يعلموا فى تلك الساعات الحرجة هل أن الإله يوافق على نقل الإسكندر إلى المعبد حتى يقوموا بمحضره بالدعوات والابتهالات للتعجيل بشفائه، ولكن رفض الإله طلبهم قائلا:

- ليبق فى مكانه فذلك خير له.

ولفظ الإسكندر بالنفس الأخير بعد ذلك بقليل. وربما كانت تلك حسن الخاتمة التى أشار إليها الإله.

أن أرسطوبولوس وبطليموس أوردا نفس التفاصيل حول موت الإسكندر ولكنهما يضيفان ما يأتي: عندما سأله أصدقاؤه وهو فى النزع الأخير عن خليفته أجاب بلهجة مريرة: «إلى الأقوي».

تنبأ الإسكندر فى جوابه المقتضب بأطماع خلفائه الجارفة التى سوف تفضى بسرعة إلى تمزيق مملكته التى كونها بعناء شديد بعد خوض حروب طاحنة لا تعد ولا تحصي.

راجت بين الناس كثير من الشائعات حول سبب موت الإسكندر السابقة لأوانها.

فمنهم من ادعى أنه مات من أثر سم ناوله إياه أنتيباتروس. وقيل

إن أنتيباتروس هذا تسلم السم من يد أرسطوطاليس الذى حقد على الإسكندر منذ اليوم الذى ثار فيه نزاع شديد بين الملك وكاليستان أودى بحياة هذا الأخير.

ومنهم من اتهم كاسندروس بن أنتيباتروس. وقيل إنه هو الذى أتى بالسم إلى مدينة بابل.

ومنهم من وجه التهمة إلى إيولاس أخى كاسندروس لأن ايولاس كان يسقى الشرب فى المأدبات فكان فى إمكانه أن يصب السم بكل يسر فى قدح الملك. خاصة أنه كان حاقدا على الإسكندر لأنه غضب عليه غضبا شديدا قبل أيام من إحدى نوباته العصبية وأهانه بالغ الإهانة.

واتهموا أيضا ميديوس خليل إيولاس. قيل إنه كان شريكا فى الجريمة. وهذه الإشاعة تعتمد على الأمور التالية: دعا ميديوس الإسكندر إلى مواصلة مجلس الأنس فى بيته. وعندما حل بالبيت قدم ميديوس إلى الإسكندر أنواعا متعددة من الخمور فتناولها. وأحس بعد تناولها بآلام شديدة كانت فاتحة للأعراض التى قضت عليه.

وقد تجرأ أحد مذيعى هذه الشائعات المتضاربة إلى أن ادعى أن الإسكندر أحس بأنه لم يبق له أمل فى الحياة فتوجه إلى الفرات عازما على الإلقاء بنفسه فى اليم ليغرق فيه. وكان يريد من وراء ذلك الانتحار المحجوب عن العيان أن لا يترك أثرا لموته حتى يرسخ فى أذهان الأجيال القادمة أن الآلهة رفعوه إلى السماء وأنه ابن أمون حقا. ولكن فى آخر لحظة وفى الوقت الذى خرج فيه الإسكندر متسللا من القصر

قاصدا النهر لمحته زوجته روكسانا فتعرضت له وصدته عما عزم عليه. وأنبها الإسكندر أشد التأنيب بعد ذلك قائلا لها إنها حرمته من مجد خالد لأنها منعته من الالتحاق بالآلهة وهو من سلالتهم.

ليست هذه الإشاعات مقنعة تماما. ومعاذ الله أن أطلب من القراء تصديقها. وإذا أوردتها هنا وقدمتها كمجرد أقاويل فحتى لا يظن أحد ممن سيقرأون «غزاة الإسكندر» هذه أني أجهلها.


7
ملاحظات
حول مخطوطة بابل

لعل الكاتب والمؤرخ اليونانى (أريان) الذى أحب الإسكندر وأدرك مقاصده أكثر من غيره ممن اعتنوا بتاريخ حياته لم يدرك هذه الملاحظات التى أدركها المؤرخون من بعده، وإنى أريد أن أقول هنا مجدّدا إن ذلك الرجل الشهم الذى نشأ فى نيكوميديا من إقليم بيثونيا كان له إحساس مرهف يسّر له فهم شخصية الإسكندر. وكانت له المؤهلات الكافية لترجمة حياته وذكر بطولاته. كان يقتدى فى كتابة التاريخ بكسينوفون المؤرخ العظيم. وكان بفضل إحرازه على درجة عالية من الثقافة قادرا على النفاذ إلى لبّ الأمور من وراء الأحداث التى تغطّيها مثلما يغطّى اللحاء الشجرة.

إذن أرى من الضرورى اللجوء إلى أرّيان لإعادة الاستمرارية لسرد الأحداث.

فى هذا المخطوط أيضا نواقص لها علاقة بالعمليات العسكرية التى قادها الإسكندر العظيم. ولكن من المتوقع أن يكون هذا الإسكندر نفسه قد كتبه وهو يشكو حالة من الحيرة القصوى جعلته لا يقف إلا عند ذكر الأحداث التى تركت أثرا عميقا فى نفسه أو حرّكت شعوره. ولذلك لم أر من المفيد سدّ تلك الثغرات التى لها صلة بالأعمال العسكرية الصرف. وذلك بالرجوع إلى مؤلّفات بلوتارخوس وأرّيان نفسه لأن الإسكندر قد رسم لنفسه فى مذكّراته غاية معاكسة تماما للغايات التى نزع إليها المؤرّخون الذين تناولوا حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والذين وصفوا لنا بدقّة معاركه والأحداث التى رسمت مراحل حياته.

الملاحظة الأولـي: وحيث إنّ الحديث أدّى بنا إلى الظروف التى أحاطت بقطع صحراء قدروسيا رأيت أنّه من الضرورى أن أورد هنا فقرات مقتطفة من كتاب «غزاة الإسكندر» لأرّيان:

«كان نيارخوس قائد القوّات البحرية ينتظر الإذن بالإقلاع. وغادر الإسكندر بتاله حيث حطّ الجيش رحاله وتقدم صفوف جنوده قاصدا نهر أرابيس. ولمّا بلغ النهر انتخب لمصاحبته من بين فيلق الرماة نصفهم ومن بين الضباط المنقطعين لخدمته نصفهم أيضا واصطحب جميع سرايا الخيل وفى ضمنها سرايا الخيل التى كان يقودها الخلان يصحبها فيلق الرماة الراجلين التابع لها. وسار فى اتجاه يتيح له أن يجعل البحر دائما عن يساره. وأمر أثناء المسيرة بحفر صهاريج حتى يضع على ذمّة الجنود المشاركين فى العمليات كميّات كبيرة من الماء. وفى نفس الوقت شنّ هجوما مفاجئا على قبيلة الأوريت الهندية التى صدحت منذ زمان بعزمها على البقاء حرّة ولم تكن تضمر للإسكندر ولجنده إلا الشرّ، وعيّن هفستيون واليا على الإقليم وعلى من تبقّى من الأوريتيين بعد الزحف.

ثم أرغم على مقاومة قبيلة الأرابيين وهم قوم رحّل مضاربهم على ضفّة نهر أرابيس. وكانوا هم أيضا حريصين على البقاء أحرارا. وما أن علموا باقتراب الإسكندر حتى فرّوا ملتجئين إلى الصحراء لأنهم أبوا أن يخضعوا له وأحسوا فى نفس الوقت بأنهم عاجزون عن مقاومته بصورة ناجعة.

وعبر الإسكندر نهر أرابيس، وكان مجرى النهر ضيقا ومياهه ناضبة ثم واصل سيره ليلا عبر الصحراء فقطع معظم المسافة المرسومة.

وعندما طلع الفجر وجد نفسه فى أراض عامرة بالسكان. فأمر المشاة بأن يسيروا وراءه صفوفا متراصة. وتقدم لقيادة الخيل فوزعها كواكب حتى تنتشر فى السهل إلى أقصى ما يمكن الانتشار. واحتل الإسكندر كامل إقليم الأوريتيين بهذه الطريقة. فمن حاول منهم المقاومة تعاورته سيوف الفرسان أو سقط أسيرا.

ثم ضرب خيامه فى منطقة لا ماء فيها، ولمّا التحق به هفستيون مع بقيّة الجيش واصل السير من جديد.

وبلغ الجيش بعد مرحلة فقط قرية رموكبة وهى أهمّ قرية فى إقليم أوريت.

كانت المنطقة تروق للإسكندر وكان معجبا بموقعها الجغرافى فكان يشيد بها دائما ويعتقد أن ذلك الموضع صالح لبناء مدينة وأن تلك المدينة إذا أنشئت تكون آهلة بالسكان ومزدهرة.

فترك هفستيون هنالك وأمره باتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق ذلك العزم.

كان الإسكندر يرغب فى مواصلة رحلته الاستطلاعية. فاحتفظ معه بنصف عدد الضباط المنقطعين لخدمته ويسمّون أقريانيس وبنصف فيلق الخيالة وبنصف فيلق الرماة الراكبين على الخيل وبلغ أقصى حدود الأوريت وقدروسيا».

الملاحظة الثانية: حول مناجاة الإسكندر

هنا نعود إلى مناجاة الإسكندر.. نشعر أنها أمست من الآن فصاعدا مناجاة لاهثة مرتبكة يطغى عليها الجزع أكثر من ذى قبل.

أقر الإسكندر العزم على أن لا يقف فى طريقه ما دام جنوده قادرين على تحمّل المشقة وحتى لو لم يكونوا قادرين. وإنما كان يشعر فى نفس الوقت بحزن عميق ومرّ كأنه كان يتوقع قرب وقوع أحداث مهولة ويوقن بأن العزلة هى نصيب الناس جميعا فى نهاية المطاف ونصيب الآلهة أيضا. ولا يقدر أحد مهما كانت سطوته أن يسلم من تلك العزلة القاسية التى لا ترحم.

نستطيع قراءة بعض الكلمات فى هذه الفقرة التى امحت حروفها بعامل الزمن. أنقلها هنا علّها تثير اهتمام من سيقومون بدراسة المخطوط والتعليق عليه.

غابوا جميعا.. جميعهم سيغيبون.

كان أمّون وحيدا فى معبد الصحراء.

قريبا سيأتى دور هفستيون فيغيب.

بابل بعيدة بعيدة والعالم أيضا بعيد بعيد.

أرى ثغرات عديدة فى صفوف الخلاّن.

قتلوهم.. فارقونا ويفارقوننا.

الآلهة لا يخشون الموت.. إنما يزعجهم الفراغ.

هذه الجمل المقطوعة تفزعني. كنت أودّ أن لا أدمجها فى هذه السيرة. ولكنها ليست ملكي. هو كاتبها ولذا نقلتها بكل أمانة.

الملاحظة الثالثة: حول موقف الإسكندر من الصحاري

الصحراء! كم من مرّة طلعت على فى بهجتها وجمالها الرتيب أثناء مسيرتى عبر الاصقاع النائية.

قطعت صحارى شاسعة فى مصر وسوريا وسيناء وفارس وأنا أعدو على صهوة حصانى حصانى العزيز بوكيفالوس.

ما كنت أخشى الصحارى ولكن كنت أشعر عندما أقطعها مع جيشى بتأثر عميق ومرح غريب ناتجين عن توقى إلى استكشاف المجهول. وكثيرا ما كنا ننتهى فجأة إلى واحة فندخلها منتشين لنرتوى بماءها ونرتاح فى ظل نخيلها.

ولكن المحنة التى كنّا نعانيها فى هذه المرة كانت من نوع آخر. إن صحراء قدروسيا هى أقصى الصحارى وأجدبها وأعطشها. كانت تبعث فى النفس وحشة تتحول أحيانا إلى هوس.

أعترف دون تردّد أن إصرارى على قطعها خطأ بعينه وأخطر خطأ ارتكبته فى حملتي.

ما هو الداعى إلى ارتكابه؟ ربما لم أوفق فى تقويم حجم الصعوبات المتوقعة أو لربما كنت أبحث عن صدمة عنيفة تنسينى جميع المحن التى أصابتنا فأقدمت على هذه المغامرة الجديدة ظنّا منى أنها ستكون لى متنفسا.

ومهما يكن من أمر فبعد أن قمنا بمسيرة متواصلة دامت أياما توغّلنا فى صحراء كانت تضاعف مخاوفنا كلما تقدّمت بنا المسيرة. ففطنت أنّى وقعت فى المحظور لأنى اخترت أشقّ طريق لعودتنا.

فكنت أحاول تسلية نفسى فأذكر لها خبر سميراميس التى غامرت فقطعت بجيشها تلك الصحراء قبلي. ولكن سميراميس كانت امرأة قادرة على تحمّل أقسى المحن والتغلب على العطش والحرِ الجهنّمي. وقد قطعها أيضا كورس بن قمبيز لما رام احتلال الهند ولم يقوم قدرات القوات التى جندها تقويما صائبا فخاب فى مسعاه.

وعندما كنت أعيد فى ذاكرتى مغامرتيّ سميراميس وكورس كنت أحاول أن أجد عزاء لنفسى بالنظر إلى محنة من سبقانى على هذا الدرب. وأنا وجندى فى أشد الحاجة إلى هذا العزاء.

ولكن استولت على الوحشة من جديد عندما تذكرت أنه لم ينج من جيش سميراميس الوافر العدد والعدّة إلا عشرون رجلا قذفت بهم الصحراء فى حالة رثة. أما جيش كورس المغامر فكان فشله أفظع حيث لم ينج منه إلا عدد ضئيل. كانوا سبعة وسبعة فقط.

من سينجو منّا فيخرج من هذا المكان الجهنّمي؟ وما هو الثمن الذى ينبغى أن ندفعه للظفر بالنجاة؟

مازلت أشعر إلى اليوم بالاحباط كلما ذكرت تلك المحنة.

كان العطش عدوّنا اللدود. وكان يقسو علينا أكثر مما قست علينا حشود داريوس. وكنا نسير دون هوادة ليلا ونهارا فى برية شاسعة قاحلة لا نبت فيها ولا عيون ماء. وكانت المحطات التى اختزنا فيها المؤونة متباعدة لا تفى بحاجتنا إلا بقدر ضئيل.

وتجرعنا الأمرين من الرمال. كانت فى بعض البقاع تسيخ تحت

أقدامنا. وكم من جنود انخسفت بهم الرمال فابتلعتهم ومطاياهم دون أن يستطيع إسعافهم أحد لسرعة اختفائهم تحت سطح الأرض.

كلما توغلنا فى الصحراء اشتدت الحرارة وأصابنا عطش لا يطاق وتناقص زادنا. فانضاف عذاب الجوع إلى عذاب العطش. فأرغمنا على التضحية بخيلنا وبغالنا. فذبحنا منها لنقتات بلحومها فنبعد عنا ولو لحين شبح هذه المحنة الجديدة.

لقد حاول ضباط حاشيتى أول الأمر منع الجنود عن ذبحها لافتين انتباههم إلى أننا سوف لا نقدر على مواصلة السير إذا فقدنا دوابنا. ونحن لا نعلم عدد الأيام والليالى الباقية لقطع تلك المفازة. ولكن سرعان ما فطن الضباط بأن مساعيهم ذهبت سدي. فبلغ بهم الضنك إلى أن أصبحوا يأكلون من لحوم الدواب التى يذبحها جنودهم.

وكنّا نقول لأنفسنا: إذا استطعنا أن نتغلب على الجوع فلابد أن نعثر قريبا على إحدى العيون التى تنبع فى الصحراء فتؤمها القوافل لإطفاء عطش المسافرين وعطش إبلهم. فكان ذلك الأمل يشدّنا إلى الحياة.

من بين التدابير التى اتخذناها لتيسير قطع صحراء قدروسيا فك الأفراس والبغال عن العربات المحملة بالعتاد وكسر العربات وترك حمولتها مهملة فى قلب الصحراء غايتنا الوحيدة النجاة من ذلك الفضاء المحترق الذى ما كنا نرى له نهاية.

وبلغ ببعض الجنود الإجهاد والعطش حدا جعلهم يخرون على الأرض وينامون نوما عميقا حيث سقطوا. فلم يستطع رفاقهم إيقاظهم فيرغمون

على تركهم وهم يعلمون أن لا أمل فى أن يعثرو عليهم أحياء فى يوم من الأيام.

كنت أجهد نفسى حتى أبقى دائما فى طليعة الجيش راكبا جوادى رافعا رأسى وثابتا على السرج.

لم يفطن أحد ولو كان من أقرب الناس إليّ بأن حلقى مسدود من شدة الظمأ وجفنيَّ ثقيلتان من أثر الأرق وبأنى كنت أهب راضيا بنصف ملكى مقابل نومة هادئة وجرعات من الماء.

وكان الجنود يشعرون بقليل من العزاء وبضرب من الاطمئنان عندما يشاهدون أنى أعانى من نفس المحن وأشاركهم عذاب العطش وأقتسم معهم بنفس القدر ساعات الألم.

وشاهدت يوما جماعة من الجنود المقدونيين القدامى الذين صحبونى منذ يوم انطلاقى من مدينة بيلا وبقوا لى أوفياء دون سآمة أو ملل مثل حصانى بوكيفالوس الذى أخاص لى إلى يوم مماته. شاهدتهم يقتربون منى وفى يد أكبرهم سنا خوذة فيها قليل من الماء. لقد طافوا طويلا فى الأماكن المجاورة بحثا عن الماء وعثروا على عين ماؤها على وشك النضوب فما كان ينبع منها إلا بعض القطرات فامتاحوا ما قدروا عليه وصبوه على قعر خوذة وأتونى ليقدموا ما أحرزوا عليه.

ومدّ إليّ الشيخ الخوذة قائلا:

- هذا ما قدرنا عليه بعد طول الطواف. هو ماء قليل ولكنه كاف لإطفاء عطشك.

أمسكت الخوذة بيدى وأحسست بارتعاشهما لشدة رغبتى فى بل شفتي.

فكأن تلك الخوذة التى كنت ماسكها أثمن ما كسبت فى الدنيا. كانت فى نظرى أثمن من تاج داريوس الفاخر ومن صولجان الملوك العظام.

فشكرت للمقدونيين لفتتهم الشخصية وأكبرت إهداءهم لى ماء امتاحوه بعد كبير عناء ولكن لم أقرب الخوذة من فمى بل رفعتها بيدى فوق رأسى حتى يشاهدها الجميع ثم أرقتها فى حركة سريعة إلى آخر قطرة من مائها.

لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وفى اللحظة التى قمت فيها بهذه الحركة شعرت بأن جميع جنودى كانوا يحسون بما يشبه الارتواء وهم ينظرون إلى ذلك الماء الذى أريق إلى آخر قطرة فى الرمل الملتهب.

وتابعنا السير والجنود عاقدون العزم أكثر من ذى قبل على مغالبة المحنة بقلب واحد. كانوا يتقدمون بخطى أكثر سرعة وثابتا. وهم ينظرون أمامهم بنظرات واثقة.

نعم.. لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وكانت الصحراء لا تزال تطبق علينا دون رحمة.

وأعلمنا الرواد أن الآثار التى تركتها القوافل فى الرمل قد عفّتها الرياح. وأنهم أصبحوا عاجزين عن التعرف على الطريق التى ينبغى أن نسلكها.

لم يبق لى إلا حل واحد. سأواصل السير وحدى مصحوبا فقط بكوكبة من الفرسان بحثا عن طريق نسلكها. فإذا وجدناها أعلمنا سائر الجيش حتى يلتحق بنا.

وهكذا انتهيت إلى ساحل البحر مع خمسة فرسان. وعثرت قريبا من الشاطئ - يا للأعجوبة - على عين من الماء الزلال.

نجونا.. وكانت خسارانتا أقل بكثير من خسارات سميراميس وكورس. وأيقنت مرة أخرى أنى الأقوي.

الملاحظة الرابعة: حول الدعوة لصالح الأعمال

كم من مرة أحسست أثناء مسيرتى فى الصحراء أن جميعهم تخلوا عنى عندما نزلت بى المحنة حتى الإله الذى بعثنى إلى الوجود!

والآن وقد عثرت من جديد على الطريق التى رسمتها لى (أقصد بالطريق لا تلك التى تشق الأرض فحسب بل أيضا تلك التى أسير على هديها فى أعماق نفسي) فإنى أدرك أن لابد لى أن أبادر بإيجاد حلول سريعة للمسائل البسيطة حتى أعتكف على إعادة صلتى بالمشروعات العظيمة التى لا بداية لها ولا نهاية.. فإنها هى الوحيدة التى تستحق أن أتفرغ لها.

كنت كثيرا ما أحادث أستاذى أرسطوطاليس فى مدينة نمفايوس عن ذلك النداء الذى لا يفتأ يدعونا إلى صالح الأعمال ولو كنّا متيقنين أننا قمنا بواجبنا.

هذا النداء له صيغة الأمر الذى لا يردّ ولا يدفع وكلما لبيناه علا نداء آخر ثم آخر وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية له.

كنت كثيرا ما أتحدث مع أرسطوطاليس عن مختلف الأجناس البشرية التى تعمر الأرض من أقصاها إلى أقصاها فتلتئم فى ممالك دول متفاوتة فى الحجم والقوة. فمنها الدول العظيمة ومنها الضعيفة

ومنها التى تميل إلى العدوان ومنها التى تميل إلى الدعة والدفاع عن الحمى عند الاقتصاء. جميعها محتجزة ومتربصة تنتظر كل واحدة منها اللحظة السانحة التى تنقض فيها على عدوتها. مثلها مثل البزاة التى يستعين بها سكان آسيا فى صيدهم. إنها تنشر أجنحتها الكبيرة وتنقض على الفريسة ولا تترك لها مجالا للإفلات من مخالبها.

كنّا أمام إحدى خيارين: إما الزحف على غيرنا أو الركون إلى الدفاع عن أنفسنا.

أرى اليوم أن هناك خيارا ثالثا وهو وضع جسر يصل بين ضفتين وييسر للناس التلاقي.

يرى أرسوطاليس أن أسمى رسالة ينبغى للغازى أن يتحلى بها هى سعيه لعقد جسر يصل الشعوب بعضها ببعض مهما كانت السبل التى يسلكها لبلوغ هذه الغاية وبقطع النظر عن أساليب العنف والقسوة التى يعامل بها أعداءه.. والمعاملة بالعدل والحسنى والاستقامة فى السلوك التى يقابل بها حلفاءه.

كلما تقدم بى الزمن ألح عليّ هذا اللون من التفكير وطغى على نفسى فأقول: أرى اليونانيين قد انتحوا ناحية، وأرى الأعاجم قد انتحوا ناحية ثانية. ولكن ما الفرق بيننا معشر اليونانيين وبينهم؟ تقاليدنا أى المظاهر الخارجية لطرق عيشنا مختلفة ولغتنا تختلف عن لغاتهم ولون بشرتنا مخالفة للون بشرة بعض طوائفهم. وفى ما عدا ذلك ليس بيننا وبينهم اختلاف. فقد وهبنا نفس الخصال وأصبنا بنفس النقائص. نواجه بنفس

القدر الحب والخوف والموت والجوع.. جميعنا يضاجعون زوجاتهم في الفراش وجميعنا يحلمون وجميعنا يموتون. إن المجهول الذى يحيط بنا من كل جانب ويحاصرنا يبث الروع فى نفوسنا بنفس القدر فنحاول أن نتغلب على روعنا بالإيمان مهما كان الدين الذى نعتنقه.

إذن لماذا نبقى على ضفتى النهر المشترك بيننا، كل منا ينظر إلى الآخر ويضمر له العداء؟

لماذا لا يكون هذا العالم الرحب دولة واحدة وهو الآن منقسم إلى ممالك ودول تتنازعها الطموحات المتصارعة؟

لماذا لا توجد لغة واحدة تفهمها جميع شعوب الأرض وتتكلم بها؟

إذا استطعنا تذليل عقبة اللغة - والأمر هين فى نظرى - تيسرت لنا إقامة جسر يصل جميع شعوب الأرض واستطاع الناس أن يتخاطبوا ويتفاهموا بلغة واحدة وتقترب كل ضفة من الضفة المقابلة.

وإذا لم نفلح فى سعينا لقد قضت على البشرية الطموحات وعسر اتصال الناس بعضهم ببعض، وأن الخيبة فى هذا المجال أشد نكالا على البشر من الأوبئة والحميات.

فأدتنى هذه التأملات إلى القيام بمبادرة طالما كانت محل تعليقات الناس. ولا شك أن المؤرخين فى المستقبل سيقولون كلمتهم بشأنها وسيحكمون لها أو عليها كل حسب نوعية تحليله للأوضاع المتأثر بالحالة النفسية التى يعيشها فى الساعة التى يتناول فيها القضية بالنظر.

عندما حططنا الرحال بمدينة السوس زوجت ضباطى ومساعدى

الأفريين ببنات أساورة فارس وأقمت لهم حفلة زفاف جماعية. وتزوجت أنا أيضا بستاتورا بنت داريوس الكبرى حتى يقتدى بى الناس فيدركوا أن تلك العلاقات الزوجية التى حثثت على إيجادها هى الأس الأول للتصالح مع شعوب حاربتنا طوال قرون.

اقترن ثمانون من قواد جيشى ومن خلانى الأعزاء بأنبل فتيات الطبقة الأرسطوقراطية الميدية والفارسية. فكانت تلك الحفلات البهيجة التى انتظمت بعد المحن المتوالية التى أصابتنا وبعد المعارك الطاحنة التى خضناها وخاصة بعد قطعنا لصحراء قدروسيا مناسبة طيبة شعر فيها جنودى بالغبطة والراحة والطمأنينة وأنهم لأهل لذلك.

أظن أن جميع الجنود باركوا تلك المبادرة إما لأنهم رحبوا بحفلات ساد فيها اللهو والمرح أو لأنهم شاركونى شعورى وأيدوا الهدف البعيد السامى الذى أصبو إليه من وراء تلك الحفلات[1] وكنت أعتقد - وقد سبق أن قلت ذلك - أن ما بادرت به هو المرحلة الأولى فى طريق ما أتوق إليه وهو امتزاج عالمين.

إن أبى أيضا - رغم نقائصه وطبعه الحادّ - كانت تحدوه رغبة ملحة فى توحيد اليونانيين الذين مزقتهم - طوال سنوات عديدة - الفتن التى غذتها حقارة قادتهم وخبث خطبائهم الذين كانوا يدعون دائما إلى التمرد فى الساحات العامة للمدن. لم يكن فيليبوس راضيا بذلك الوضع. كانت نظرته إلى الأمور أبعد من نظرة أولئك الساسة التافهين

(1) ملاحظة مالك المخطوط.

قصيرى النظر. فأدرك أن الحضارة اليونانية مهددة بالزوال إذا لم يقدر أصحابها على تحقيق الوحدة بينهم.

أما أنا فإن الهدف الذى أصبو إليه أوسع وأرحب: أريد أن أجمع شمل أبناء يونان فى كنف عالم موحد قادر على احتضان خصوصياته وتجاوزها فى آن واحد.

حيث إن الإسكندر يركز فى حديثه على أعماله وعلى الظروف التى أثرت فى سير حياته فإنه يهمل ذكر جزئية ذات أبعاد أقتطفها من جديد من تأليف أريان:

«جرت حفلات الزفاف الجماعية حسب الطقوس والتقاليد الفارسية. نصبوا الآرائك - لكل عريس أريكته. وعندما تمت وليمة العرس واتباعا للتقاليد الفارسية دخلت العرائس فى القاعة واتجهت كل واحدة إلى عريسها وجلست بجانبه فاستقبل كل عريس عروسه مقبلا إياها. وكان الإسكندر أول من استقبل عروسه. جميع حفلات الزفاف جرت بنفس الطقوس. وهذا دليل على ما كان يمنحه الإسكندر من الحظوة لصحبه. وكانت لهذه المعاملة أثرها الطيب فى النفوس، ثم ذهب كل عريس إلى بيته بعد أن استلمت كل عروسة مهرها من الإسكندر. وبصورة مجملة سلم الإسكندر لجميع المقدونيين الذين تزوجوا بنساء من آسيا هدايا ثمينة. ويقدر عدد الزواجات من هذا النوع بما يفوق العشرة آلاف زواج».

الملاحظة الخامسة: حول وئام وتداول السلطة بين المقدونيين والفرس

عندما أعود بذاكرتى إلى تلك الساعات أقتنع بأنه لو خول لى أن أعيد

حياتي من أولها لسلكت نفس السبيل ولارتكبت نفس الأخطاء. ولكنى أكثر اقتناعا بأن أصدقائى ومساعدى وحلفائى وخلانى لو أعيدت الكرة لن يؤيدونى عن طيب خاطر ولن يغفروا لى أخطائي.

أذكر حفلة الزفاف الجماعية فتجول بخاطرى ذكرى مريرة. اندلعت الأحداث التى سأذكرها بعيد ذلك الحفل العظيم عندما أطفئت المشاعل وخمد صخب المحتفلين.

كنت أسند الألقاب إلى مساعدى وأوزع عليهم تيجانا من ذهب. وكان أول من حظى بنعمتى - وهو أهل لذاك - نيارخوس الكريتى قائد قواتى البحرية الذى عاد منذ مدة قصيرة من جولته البحرى فى عرض سواحل الهند وفى المحيط الهندي. وقد قدم إلى السوس أيضا لحضور الاحتفالات الولاة الميديون والفرس الذين عينتهم لإدارة شؤون المدن الجديدة التى شيدتها. واصطحبوا ثلاثين ألف شاب جندوهم وجهزوهم بالسلاح المقدونى ودربوهم على أساليبنا فى القتال.

وقابلت هذا المدد العسكرى الذى أتوا به بالغبطة والابتهاج إيمانا منى بأنهم سيساعدوننى مساعدة هامة على تنفيذ مخططاتى الجديدة.

كان أولئك الشبان المراهقون يتقدون حماسا - شأن من كان فى سنهم - كانت ملامحهم تدل على أن لهم ثقة راسخة فى انهم سيكونون فى مستوى الرسالة التى حملوها. وكنت أنا أيضا فى حاجة إلى إسهامهم فى المغامرة لأنى كنت أعتقد اعتقادا راسخا أن استكشاف آسيا ليس موكولا إليّ وإلى من صحبنى من جنود مقدونيا القدامى فحسب بل موكولا أيضا

إلى العالم بأسره. فلابد إذن أن يفوض الأمر فى المستقبل إلى رجال جدد سواء أكانوا يونانيين أم فرسا حتى يواصلوا المسيرة التى بدأناها.

هذا ما كنت أحاول أن أفسره للمقدونيين مع الإشارة إلى أنى لا أمانع من يريد العودة إلى أهله لأنى أعلم أنه يوجد من بينهم من يحس بثقل عبء السنين فيحن إلى قضاء الأيام الأخيرة فى حياته فى دعة وبعيدا عن المخاطر والمحن. فأنا أسمح لهؤلاء أن يتركوا الجيش وسأعطيهم من الذهب والهدايا الثمينة ما يضمن لهم رفاهة العيش والأمن من غوائل الدهر.

كنت أخاطبهم مخلصا لأنى كنت أحب جنودى المقدونيين حبا جما لشجاعتهم النادرة وجلدهم الذى لا يزلزل.

ولكن لم يصدقونى بل ظنوا أنى كنت أخدعهم لأتخلص منهم إذ أنى أصبحت قادرا على القيام بالغزوات التى كنت أهيئها بفضل ما أعددته من جنود جدد.

وأحسست بثورة من الغضب تهزنى خاصة أنى علمت أن بعض المقدونيين كانوا يقولون علانية إنى بصدد تكوين جيش جديد من المرتزقة الميديين برعاية أبى أمون.

إذن آن الأوان لتوضيح الموقف بصورة نهائية وتصفية الحساب بمواجهة صريحة مع أبناء وطنى المقدونيين.

فذهبت إليهم واخترقت صفوفهم بدون كلفة كما فعلت معهم أثناء احتفال الزفاف الجماعي. وحرصت بادئ ذى بدء على أن أؤكد لهم أنهم مدينون لفيليبوس بدين عظيم فقلت:

-لما ضمكم إلى جيشه كنتم قوما من البدو الرحل وكنت أناسا معدمين تسترون عوراتكم بجلود الخرفان. كنتم تقضون حياتكم فى خوف دائم من غارات الطراقيين والآليريين. فاجتهد أبى لتغيير عيشكم ببث الثقة فى أنفسكم حتى تقاوموا أعداءكم ندا لند. وخلصكم من حياة الترحال. وأنزلكم السهول الخصبة فتمتعم فيها بحياة أرحم.

كانوا منصتين إلى مؤيدين لما كنت أقوله عن فضل أبى عليهم. ولكن غضبهم كان موجها إليّ وإليّ وحدي. وأحسست فى تلك اللحظة برغبة تدفعنى بقوة إلى أن أذكرهم أيضا بالدين الذى أخذوه منى فبقى فى رقابهم.

- نعم.. وجدت خزائن الدولة فارغة بعد موت أبى وشرعت فى شن غزاتى هذه بإمكانات تافهة.. فما هى النتيجة التى أحرزنا عليها؟ إنها جلية بادية للعيان. لقد أعدت لكم كرامتكم التى داسها الفرس كما أعدتها لليونانيين جميعا. ألم يذلكم الفرس مرات عديدة؟ ألم يبيدوكم كما أبادوا أيضا اليونانيين جميعا؟

فتحت لكم طريق آسيا عبر بحر الهلسبون وضممت إلى قطرنا أقطارا لا تحصى بقوة السلاح وذلك من آسيا الصغرى إلى الهند. ملكتكم مصر وما بين الرافدين وقورينا وسوريا وفلسطين. ووهبتكم بلخ والسوس. ووزعت عليكم كنوز فارس والهند. كل خيراتهم أصبحت ملكا لكم. ووهبت لكم أيضا المحيط ذلك المحيط الذى لا تحده حدود.

وماذا أبقيت لنفسى من كل هذا وأنا ملككم وقائدكم؟ هذا المعطف الأحمر القانى وهذا التاج.

وإذا لم تقدروا كل ما ذكرت حق قدره فاذكروا لى وضعا حرجا لم أعشه معكم أو محنة واحدة لم أقاسمكم أهوالها. هل من بينكم أحد يدعى أن جراحه أكثر من جراحي. لم يصبنى العدو ولو مرة واحدة فى الظهر. قابلت العدو فى كل مكان وجها لوجه. لم أول قط الدبر. ولم أتخلف قط عن أداء مراسم التكريم للجنود الأبطال الذين سقطوا فى ميدان الشرف. أقمت المشاهد على أضرحتهم وكنت حريصا على تبليغ أقرباء أولئك الأبطال الذين بقوا فى أوطانهم آيات التقدير الذين هم لها أهل.

لا أرضى بأن يبقى أحد بجانبى رغما عنه. اذهبوا فأنتم طلقاء. اتركوا ملككم وقائدكم. إن الأعاجم الذين هزمتهم سيسهرون على حياته. وإذا عزمتم على الذهاب فلا تخجلوا بل عليكم أن تقفوا وقفة الكرام وتطالبوا الآلهة باحترام قراركم. أعلنوا عن عزمكم وعودوا إلى أوطانكم.

وبعد ذلك الخطاب انعزلت فى قصرى مدة أيام وصرفت عنى جميع الزائرين. ولكن خطابى فى تلك المرة ترك أثرا فى النفوس: أتانى جنودى المقدونيون القدامى متضرعين. يطلبون منى أن أنسى خطيئتهم ويقولون: لنا عليك مأخذ واحد وهو أنك تعامل الفرس والميديين كما لو كانوا لنا نظراء فى حين أننا نحن صحبك الأولون انضوينا تحت لوائك من اليوم الأول.

لم يسمعوا منى جوابا ولكن دعوتهم إلى وليمة انعقدت فى مساء ذلك اليوم وأجلستهم بجانبى وأمرت بأن يجلس الفرس وممثلو مختلف الأقطار على مقاعد وضعت بعيدا عني.

وأرقنا الخمر تقربا للإلة الأعظم مديرين نفس الكأس. وعندما آلت

الكأس إليّ وأرقت منها قطرات من الخمر الحمراء نهضت وطفت عليهم جميعا دون استثناء أى طائفة من طوائفهم وتمنيت لهم بكل جوارحى أن يكون الحظ حليفهم فى المعارك التى سيخوضونها معا ببسالة وأن يوفقوا إلى خلق جو من التعاون السلمى بينهم وتمنيت بالخصوص أن يكون تضامن اليونانيين والفرس تاما يوم أموت وتدق ساعة تعيين خلف لى على العرش. فلا يمكن الحفاظ على وحدة العالم وهو أعز مطمح لدى إلا إذا رضيت جميع شعوب المملكة بدفع ذلك الثمن.

وكان لهذا الخطاب الذى ألقيته فى وليمة أخوية صداه البعيد فى النفوس. لقد عبرنا جميعا عن نفس الأمنية ونحن نتوسل إلى الإلة ونريق الخمر تبركا وقربي. كنا ندعو الآلة الأعظم حتى يجعل الوئام سائدا بيننا ويوحد نفوسنا لبلوغ نفس الأهداف وللظفر معا فى نفس المعارك.

الملاحظة السادسة: حول غيبة إله

كانت تلك الوليمة آخر حلقة من سلسلة من الاحتفالات أدخلت على نفسى الفرح والابتهاج. لا أدرى كيف انطلقت ولماذا تواصلت مدة طويلة وكم تمنيت أن لا أحتفظ بأية ذكرى لها. ولكن لا أستطيع أن أصرف عنى الأطياف التى تزوروني من حين لآخر ولا أن أنفض عنى تلك الكآبة الثقيلة التى أطبقت على بعد انتهاء الألعاب الرياضية والحفلات الموسيقية التى أمرت بتنظيمها فى مدينة أكبتان.

تعود إليّ ذكرى بادرة تنظيمها. أمرت بإقامتها بدافع غامض يشبه وخز الغريزة كما لو كنت أتوجس وقوع أحداث مأساوية وأحس بأن

ظلاما دامسا أخذ يغطى الأفق. وتحسبا لما كنت أحس بقرب وقوعه أمرت بأن يبذل كل الجهد حتى تكون الحفلات أجمل وأروع ما يكون. وكنت أقيم فى كل مساء بعد الإعلان عن أسماء الفائزين فى المسابقات الرياضية أو الفنية وليمة يسودها المرح والانشراح أدعو إليها جميع المشاركين فى المسابقات.

وفى إحدى تلك الولائم وفى الوقت الذى كنا نشرب فيه على نخب الأله ديونيسوس للإشادة بانتصارات المصارعين الأقوياء الميديين منهم واليونانيين على حد سواء مرض هفستيون فجأة. ولم يبح لى على عادته بما كان يؤلمه حتى لا يزعجنى بل ادعى أنه يشعر بالتعب وغادر القاعة.

ومن الغد لم نلاحظ حضوره فى الاحتفالات ولم نره أيضا فى الأيام الأخرى وذلك إلى يوم اختتام المهرجان. ونحن نعلم أنه هو الذى اقترح تنظيم تلك الحفلات لأنه كان يؤمن بأن المنافسة الشريفة السليمة بين الشبان للفوز فى ميادين الألعاب الرياضية تشحذ العزائم وتقوى القلوب.

وكنت كلما أتيته عائدا قال لى إن حالته الصحية فى تحسن ولكن يريد أن يرتاح أكثر حتى يكون مستعدا تمام الاستعداد للمشاركة فى الغزوات الجيدة التى ستبدأ بعد انتهاء الحفلات.

وكان الأطباء يؤيدون قوله حتى الطبيب قلوكياس الذى كان يعالجه ليلا نهارا. والحق يقال إنى ما وثقت قط بكلام الأطباء.

هل كان هؤلاء يطمئنوننى على صحة هفستيون لشعورهم القوى بأنهم قادرون على إنقاذه من الموت أو هل كانوا يخشون سطوتى لو تجاسروا

على إفشاء الحقيقة المرة وهى يأسهم من شفائه؟

وأمرت بأن تذبح القرابين تقربا للآلهة وطلبت من العرافين والكهنة أن يتقدموا أمام المذابح ويتوسلوا إلى الآلهة فى تلك الساعات الرهيبة. وتوجهت أنا أيضا بدعائى إلى الآله أمون وذبحت له القرابين حتى يسعفنا. كما أمرت أحسن الأطباء التابعين «للدائرة الصحية الملكية» أن يبذلوا كل ما فى وفسعهم لإنجاء هفستيون من الموت. وتقدم إلى قلوكياس وخاطبنى باسمهم جميعا مطمئنا. وأبدى زملاؤه موافقتهم على تشخصيه للمرض وعلى تفاؤله بالشفاء.

وصادف اليوم السابع من مرضه أهم المباريات فى برنامج المهرجان. وكانت تحتوى لأول مرة فى التاريخ على مباريات بين أطفال يونانيين وأطفال من الفرس.

كانت مدارج الملعب ملأى بالنظارة وكان الأطفال يتبارون فى الساحة بحماس فياض. وفى الوقت بالذات الذى تعالت فيه هتافات الجمهور تحيى فوز الأطفال اليونانيين أتانى رسول يعلمنى بأن حالة هفستيون تدهورت.

فغادرت الملعب بسرعة. وذهبت إلى بيته. فوجدته ميتا. لم يسمح لى الحظ بأن ألحق به وهو ما زال بقيد الحياة. كانت عيناه مفتوحتين ملتفتتين إلى الباب كأنه كان ينتظر قدومي. يداه مازلتا سخنتين ووجهه قد حافظ على تلك المسحة من الطيبة والتألق التى ألفها الناس عنده وعرفتها منذ عهد بعيد عندما كنا طفلين نمرح معا فى عاصمة بيلا.

لم يمت هفستيون! ليدع غيرى أنه مات. وليقل الأطباء أنهم بذلوا

أقصى الجهد لإنقاذه من الموت. لم يمت هفستيون لأنه التحق بالآلهة وانضم إليهم.

سيبقى هنالك معهم إلى الأبد. سيبقى جميلا وعزيزا وشابا إلى أبد الآبدين، كما لو كان إلها. لا بل هو إله سيستقبله الآلهة كما لو كان واحدا منهم. هذا اليقين عندى محا جميع الاعتبارات الأخري.

لا يحق لهفستيون إلا أن يسمو إلى درجة الآلهة.

الملاحظة السابعة: مالك المخطوط يدل كيف أغفل الإسكندر ذكر أحزانه فى فترة الحداد لموت هفستيون ولماذا أغفلها

ونعثر من جديد على فجوة فى سياق مخطوط بابل.. يقطع الإسكندر سير الأحداث فجأة عند موت هفستيون ولا يعود إلى سرد سيرته إلا ابتداء من اليوم الذى عاد فيه إلى بابل ودخلها فى موكب حافل لاستقبال سفراء أتوه من عدة أقطار.

لا أظن أنه لم يحدث شيء بعد موت هفستيون ولكن الإسكندر أغفل الحديث عما عقب وفاة هفستيون عن قصد.

أليس من الطبيعى أن يحجم الإسكندر عن التوسع فى الحديث عن حداده وعن الحزن العميق الذى غمره لفقدان صديق عزيز؟

إنى أميل إلى هذا الافتراض ولا أجزم بأنه أصدق الافتراضات. وأجدنى أكثر تعلقا بهذا الرأى عندما الاحظ أن سير الأحداث فى هذا المخطوط الذى أودعه الإسكندر وصف حالاته النفسية ينقطع عند هذا المنعطف الخطير بالذات. لكأنى بالإسكندر يفطن بأنه عاجز

عن التعبير عما أحس به من ألم لفقدان صديقه لأن جسامة المصاب تتجاوز قدرات القول.

أتصور الإسكندر عندما أتم تحرير الفقرة التى تختم الباب السابق والتى يقول فيها إن الآلهة استقبلوا هفستيون وأوسعوا له مكانا بينهم يحاول أن يتحدث عن فترة حداد دامت شهورا وشملت كامل الجيش وتميزت بكثرة مواكب التأبين فلم يقدر على ذلك كما لم يقدر على التغلب على حزنه فعرته نوبات من الألم الجارف الذى أفضى به أحيانا إلى الهذيان.

ولربما آثر ايقاف حديثه عند هذا الحد حتى لا يعاوده الهذيان. واسمحوا لى أن أضيف هذا الرأي: كان الإسكندر يعتقد أن حزنا مثل حزنه لا يعبر عنه بالألفاظ بل بالصمت المطلق.

وأرى أنا أيضا أن الصمت وحده هو الذى يليق بالمقام ولو أنى رجل بسيط وعادي. وقد لاحظت - كما سبق لى أن قلت - إن المخطوط الذى أملكه يصف فى مجموعه ما كان يجرى فى نفس الإسكندر طوال مغامرته. ولذلك تميز المخطوط بتلك الحيوية التى نعهدها فى أغلب المؤلفات التاريخية التى تتناول ظواهر الأحداث فحسب دون أن تبحث عن الرجل الشاب الذى أثارها فتخرجه من مكمنه وتجعله ماثلا أمام أعيننا متألقا فى أيام النصر وكئيبا فى أيام المحنة.

لذا أتوجه من جديد إلى أريان رفيق الدرب فى هذه الرحلة الاستطلاعية التى أقوم بها متتبعا خطى الإسكندر حتى أسد تلك الثغرة

التى تخفى حلقة من حياة الإسكندر مفعمة بشعور إنسانى رقيق.

لقد خصص أريان فى السفر الأخير لكتابه عن «غزاة الإسكندر» بعض الصفحات الرائعة روى لنا فيها الأحداث التى تلت موت هفستيون المفاجئ.

استقى مادته من «اليوميات الملكية» التى كانت ولا شك زاخرة بالمعلومات المتعلقة بتلك المرحلة بالذات من حياة الإسكندر. وأضاف إليها وهو المؤرخ الجاد معلومات انتقاها من مؤرخين آخرين ووضعها تحت محك النقد حتى أدت به الدقة فى التمحيص إلى أن رمى بعضهم بالوقاحة عندما فطن أن كل كاتب يتبع هواه فى ذكره للأحداث ويتأثر بما يضمره من حب أو كراهية لهفستيون عندما يصدر أحكامه لتزكية سلوك الإسكندر أو للتفنيد به.

إليكم جزء مما أورده أريان عن تلك الفترة بسداد رأيه المعهود. أقدمه إليكم بشيء من التصرف الحييّ مع المحافظة على لبّ الخطاب.

الملاحظة السابعة: حول وفاة صديقه هفستيون

لكل كاتب تناول حياة الإسكندر رأيه الخاص بشأن الحزن الذى ألم به بعد موت هفستيون. ولكن يقر جميعهم بأن حزن الإسكندر كان مفرطا. ولو اختلفوا فى تعليقاتهم على تلك الظاهرة متأثرين حسب الحالات بحبهم أو كرههم لهفستيون وبما يضمرونه أيضا من تشيع للإسكندر أو نقمة عليه.

ينقسم الذين شوهوا الحقائق فى كتاباتهم إلى فريقين: فريق ظن أن التأكيد على عمق حزن الإسكندر وإبراز مدى ما يكنه للفقيد العزيز من

تقدير ومحبة عن طريق الوصف الدقيق لظواهر حزنه هو ضرب من المدح والتمجيد وفريق ثان ادعى أنه لا يليق بملك خاصة إذا كان ذلك الملك هو الإسكندر أن يتجاوز الحدود فى إظهار حزنه ولو كان الفقيد أهلا لذلك.

ولكم بعض ما روى عن تلك الأحداث:

«كتب بعضهم أن الإسكندر عندما نعى له هفستيون ارتمى على جثة صديقه وهو ينوح ويعول فأجبر الحاضرون على أن يفتكوا الجثة من بين ذراعيه».

وأضاف بعض الكتاب الآخرين أنه بقى يبكى كامل يومه وكامل ليلته وهو ملقى على الجثة يغطيها بجسمه.

وقال بعضهم أنه أمر بشنق قلوكياس زاعما أنه ناول هفستيون دواء غير ملائم لمرضه ولم يمنعه من شرب الخمر. وجميع من يعرفون هفستيون يعلمون أن الخمر مضرة له جدا خاصة فى الفترة الأخيرة من حياته.

ثم إن الإسكندر قص شعر صديقه تكريما له وذلك دليل على فرط جزعه.

وأنا أرى أن هذه الروايات المختلفة التى أوردتها والروايات الأخرى الشبيهة بها التى تصور مدى جزع الإسكندر هى روايات مقاربة للحقيقة. إذ ينبغى أن لا ننسى أن الإسكندر كان منذ صباه يعتبر أخيلوس مثله الأعلى وقد اقتدى به طول حياته. فكانت الحركات التى قام بها تكريما لهفستيون وتعبيرا عن حزنه هى نفس الحركات التى قام بها أخيلوس لما قتل باتروكلوس.

وقد قال بعض الكتاب أن الإسكندر نفسه جر العربة التى كانت تحمل جثة خله المحبوب.

وأمر كذلك بأن تذبح القرابين العديدة التى تليق بمقام ذلك البطل.

إن جميع الكتاب مجمعون على ما سبق من معلومات. وأضاف بعضهم أنه أرسل رسولا إلى معبد أمون يطلب من الإله أن يسمح له بتقديم قرابين لهفستيون حسب الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة أو بعبارة أخرى أن يسمح الإله بأن ينزل هفستيون منزلة الآلهة فلم يسمح له أمون بذلك.

وأورد أحداثا يتفق عليها جميع المؤرخين: لم يتناول الإسكندر أى طعام مدة ثلاثة أيام ولم يصلح من حاله. وبقى جامدا لا حراك له ينوح حينا ويصمت صمتا رهيبا حينا آخر. ثم أمر بإضرام النار فى كدس هائل من الأخشاب أعد لإحراق جثة صديقه. ورصد لهذا الغرض ستة آلاف تلانتون. وأصدر أمره بأن يشمل حداد مطلق كامل أرجاء المملكة.

وإضافة إلى كل ما قام به الإسكندر فإن صحبه الذين شاركوه حداده وحزنه كرموا الفقيد بتقديم النذور ترحما على روحه. وكثير من هؤلاء الناس نذروا أسلحتهم للفقيد ومن بينهم أومينوس الذى كثيرا ما تخاصم مع هفستيون. أراد أومينوس بهذه المبادرة الحكيمة أن لا يظن الإسكندر لحظة أنه شمت بهفستيون.

وأصدر الإسكندر أمرين إتماما لتكريمه لروح الصديق المفقود.

لم يعين خلفا على رأس فرسان الخلان وأبقى اسمه على رأس قائمة أعضاء تلك السرية المختارة، وأصدر أمره بأن لا يحدث أى تغيير فى

المراتب العسكرية التى أسندها لهفستيون عندما كان قائد السرية المختارة: «سرية الألف فارس».

وكان القرار الثانى الذى أصدره يتعلق بتنظيم ألعاب رياضية وحفلات موسيقية إحياء لذكرى هفستيون. وأوصى بأن تكون تلك الحفلات ذات بهاء منقطع النظير وأوكل إلى أكثر من ثلاثة آلاف رياضى مهمة الاستعداد للمشاركة فيها.

ما أشأم تلك الاستعدادا! جرت تلك الحفلات بعد مدة قصيرة لا لإحياء ذكرى هفستيون ولكن ترحما على روح الإسكندر الذى وافته المنية.

الملاحظة الثامنة: حول المراحل الأخيرة لحياة الإسكندر

شرح موجز يقوم به مالك المخطوط

لا أضيف شيئا إلى ما رواه لنا أريان عن مراسم الحداد التى دامت طويلا ولا عن الظروف المحيطة بها. وقد كان المؤرخون يجمعون على هذه وتلك.

أعود الآن إلى مخطوط بابل الذى يقص علينا بصورة مكثفة من الآن فصاعدا المراحل الأخيرة لحياة الإسكندر وهو مصاب بالحمى وما يتبعها من هذيان.

كان الإسكندر يحس ولا ريب بأن الأفق بدأ يضيق من حوله رغم ما كان يبذله من جهد لمواجهة مصيره. فأخذ يركن شيئا فشيئا إلى الوحدة ويهجر أصحابه ومساعديه الأقربين ويهجر نفسه أيضا. فانغمس فى

تصوف غريب مليء بالأوهام وأصبح يصدق تنبؤات العرافين والكهنة عندما يطلب منهم كشف الغيب له.

هل كانت الغيبيات ملجأ له وطريقا للخلاص؟

نعم.. لأن المخطوط لا يترك أى مجال للشك فى ذلك: إن بذور التصوف التى زرعتها أولمبياس فى نفسه فى عهد الصبا عندما كان يقيم بمدينة بيلا ثم غذتها فى معبد دودونا عندما كانا منفيين فى إقليم إبيروس قد نبتت وترعرعت وبلغت أوجها فى تلك المرحلة بالذات من عمره.

ومن أثر ذلك أنه كان يعتقد أن العالم الخارجى ظاهر لا جوهر له ولا عمق وعرض لا طائل من ورائه. فهو شبيه بالأحداث السطحية التى تكتسب «حقيقتها» بصورة متفاوتة من الظروف المحيطة بها فتسمح للمؤرخين أن يكتبوا التأريخ. وهناك ظواهر أخرى تكشف من ورائها عن عظمة أسرار عالم بعيد وغامض لا يستطيع إدراك وجوده إلا قلة اصطحبتهم الآلهة ولقنوهم أسرار الوجود.

وها هو الإسكندر يتابع فيما يلى سرد حديثه.

ثناء اليونانيين

كان الشتاء قاسيا ومتعبا. وروحنا على أنفسنا بشن غارة على الكوسيين وهم معشر من المقاتلين الأشداء الأباة اعتصموا فى منقة جبلية وعرة. واستطاع جيشى أن يتغلب عليهم دون كبير عناء رغم البرد القارس.

وعند عودتى إلى بابل قدمت سفارات من مختلف الأصقاع المعروفة منها والمجهولة تخطب ودي. ومن بينهم أناس سلتيون وإيباريون أثار لباسهم الغريب دهشة جنودي.

واستقبلتهم جميعا مبديا لهم عطفى ومعبرا لهم عن ترحابي. وقد تأكد عندى أن التعاون المخلص بين الدول أمر يمكن تحقيقه وأنه يجب على كل أمة أن تسهم فى توحيد العالم بما أوتيت من قوة وما أحرزت عليه من معرفة.

ثم أمرت بأن يشرع فى صنع أسطول عظيم لاستكشاف نواحى بحر قزوين وأوصيت بأن تجرى دراسة عن إمكانية ربط ذلك البحر بالبحر الأسود أو بالمحيط الهندي.

وعندما كنت سائرا فى طريقى إلى بابل حيث كنت أنوى تقديم قرابين للآلهة اعترضنى وفد من الحكماء والعرافين الكلدان ورغبوا فى أن يقابلونى لوحدى وبمعزل عن مساعديَّ ورجال حاشيتي.

وأعلمنى كبير العرافين أن عودتى إلى بابل تصحبها فى هذه المرة دلائل طالع نحس. قد أوحى بنبوءة هذه الإلهة بال.

وصدقت هذه النبوءة التى كنت أنتظرها منذ زمن بعيد أو بالأحرى كان توجس حدوث المكروه ساكنا فى نفسى وإنما لم أتأثر بما أسروه لى وواصلت مسيرتى طبق البرنامج المسطر لإظهار جلدى للكلدان فحسب بل أيضا لأغالب نفسي. وذكرتهم ببيت أوريبيديس الذى يقول:

أفضل العرافين من تنبأ بالخير.

ودلنى الكلدان على باب المدينة الذى ينبغى أن أدخل منه على رأس جيشى حتى أتقى سوء الطالع. وما كان يهمنى فى ذلك الوقت بالذات من أمرهم شيء.

كنت أريد الوصول فى أقرب وقت ممكن إلى المدينة حيث كان أعيان اليونانيين فى انتظاري. كانت نظرتى للزمن والأحداث التى يولدها مخالفة لنظرة العرافين. وعندما وصلت إلى بابل وجدت بها رسل اليونانيين. وسررت لأنى كنت أنتظر منذ سنوات وفودهم عليّ.

وسلموا إليّ تيجانا من ذهب قرر مواطنو مدنهم بالتصويت إهداءها إليّ. وقرأوا نصوص الثناء الموجهة إليّ والتى صادق عليها مواطنو كل مدينة. وكانت جميعها تمجد الانتصارات التى أحرز عليها جيشى فى زحفه الهائل الذى انتهى به إلى أعماق الهند.

إن اليونانيين يشحون بالثناء على القادة العسكريين ولو قاموا بخوارق البطولات. فهذه المجموعة من النصوص التى كانت تثنى على أعمالى سكنت قليلاً آلام المحن التى قاسيتها منذ زمن بعيد. وضمدت الجراح

التى أصيبت بها أثناء معارك عديدة.

لو فطن اليونانيون بمدى تأثير الثناء فى نفوس المقاتلين لما شحوا به ولما تمادوا فى عدم الاعتراف بجليل الأعمال وعدم تقدير من يقومون بها. ولكن إذا استثنينا بعض المناسبات القليلة مثل التى أتت بوفودهم إلى بابل فإنهم عاجزون عن إدراك معنى البطولة أو محجمون عن الاعتراف بها. فهم إلى توجيه اللوم أميل. وأنا متيقن من أنهم سيسلكون دائما ذلك السلوك لأنه مطابق لمزاجهم ومساير لمصيرهم. وأنا أعلم علم اليقين أنهم سيعودون إلى نقد كل ما قمت به من أعمال بعد زوال هذه النوبة التى جعلتهم يثنون عليّ.

كأنى أسمع من الآن بعض خطبائهم فى الساحة العمومية يصيحون فى جلسة عامة قائلين:

- بلغ الإسكندر أقصى الأرض؟ هل هو أمر عجيب؟ ما هى أهمية ما قام به إذا أردنا أن نفحص الأمر.

كنت أود أن أبوح بكل هذه الخواطر للرسل ولكن أمسكت عن ذلك لعلمى أن قولى سيذهب سدى ولن يغير من الأمر شيئا.

استقبلتهم استقبالا حارا وشكرتهم وأمرت بأن تعاد لهم التماثيل والنصب التذكارية ونذور العباد للمعابد التى نهبها كسركسيس فى مدنهم ومعابدهم. ووزعها بين بابل وباسرقادس والسوس. وكان من بين الغنائم التى غنمها الفرس فى بلاد يونان تمثالا هدموديوس وارسطوقيتون الذين اغتالا الطاغية هبارخوس.

الملاحظة التاسعة: حول الإسكندر فى بابل

أحس الآن وأنا فى بابل بأن الزمن أخذ ينقضى بسرعة هائلة كأنه ينتظر بلهفة طلوع اليوم الذى يشهد فيه نهاية العالم أو بداية عالم جديد.

تقلع أساطيلى باستمرار قاصدة أصقاعا بعيدة. ثم تعود إلىّ. ويأتينى أمراء البحر بأنباء بكر عن الأقطار التى اكتشفوها والبحار التى شقوا عبابها. وهم الآن بصدد تهيئة رحلة استطلاعية جديدة إلى الجزيرة العربية تلك البلاد التى لا يعبد سكانها إلا إلهين أورانوس وديونيسوس.

يزعم علماء حاشيتى الذين مازلت أتحمل خيلاءهم أن العرب يعبدون أورانوس لفرط بهائه ولأنه يحوى النجوم الزاهرة فى الليل والشمس الوهاجة التى تمنح العباد الدفء والنور. ويعبدون ديونيسوس لقيامه برحلته الشهيرة إلى الهند.

يعبدون إلهين فقط. فهذا قليل. تعبد الشعوب الأخرى آلهة كثيرين ويقدمون لهم القرابين. ربما يليق بالعرب أن يعبدوا إلها ثالثا قام بكثير من الأعمال الجليلة وهو ابن للإله أمون. وهذا الآله حوى الأزل ولم تشبع طموحه الأقطار الشاسعة التى استولى عليها.

قام قائد الأسطول هيارون الصولى برحلة استكشف فيها كامل سواحل شبه الجزيرة العربية على ظهر السفينة التى أمرت بصنعها لهذا للغرض وسلمتها له. وعندما عاد إلىّ قال لى إن بلاد العرب تحتل مساحة شاسعة من الأرض تجعلها تعادل الهند فى اتساعها وعظمتها. ودعانى إلى تهيئة حملة جديدة لغزوها. وما استطعت بعد الاستماع إلى

حديث هيارون الطويل أن استخلص أية معلومات مفيدة عن ثروة جزيرة العرب. وما عرفت هل لسكانها استعداد للاعتراف بإله ثالث يعبدونه بجانب إلهيهم.

بدأنا فى صنع سفن جديدة أعظم من السفن التى كنا نركبها حتى نستعملها للمهمات الاستطلاعية التى خططنا لها.

سوف لا نحدد فى هذه المرة هدفا لكل رحلة بل نترك الملاحين يكتشفون ما استطاعوا اكتشافه دون تقييدهم بمسار أو زمن. فالبحار وحتى المحيطات أرحم من الصحاري. وملاحونا مهرة فى ركوب البحر يعرفون كيف ينجون من الأعاصير.

أما أنا فقد قررت المكوث ببابل تأتينى إليها الأنباء فى كل يوم يحملها إليّ قادة أساطيلى وأعضاء البعثات الوافدة على أعتابى والرسل الموفدون إلـيّ. وأقـول فى نفسى كم كان خطأ حكماء بلاد الكلدان وعرافيها جسيما عندما نصحونى بعدم العودة إلى هذه المدينة لتوقى النحس الذى ينتظرنى بها.

يغمرنى سرور عظيم عندما أحس بشعور راسخ فى النفس يجعلنى أعتقد أنهم مخطئون وأن تنبواتهم المشؤومة كذب وبهتان وعندما أتذكر بهذه المناسبة أنى أجبرت كاهنة أبولون على مباركة الحملة بعد أن رفضت البوح بنبوءة الإله وأعلنت أنها لا تضمن لنا النصر.

لو كانت لى الآن تلك القوة! لو كنت أستطيع إرغام الحكماء والعرافين والكهنة على أن لا يعلمونى إلا بما أتمنى أن أسمعه بدل أن يقذفونى

بتنبؤاتهم المشؤومة التى لا تنذر إلا بالشؤم!

لا تطاوعنى نفسى على ارغام هؤلاء حتى يتنبأوا بما يوافق هواى ولو قدرت على ذلك لوجدت متعة فى إخضاعهم. لم هذا الإمساك؟ أجيب ببساطة: لأنى أمسيت أنا نفسى لا أثق فى مستقبل الأيام.

عندما سألت كاهنة أبولون بدلفى عن مصير الحملة التى كنت أزمع شنها كنت متيقنا أنه لا يوجد إنسان أقوى منى وأنه لا يستطيع أحد أن يغلبني. ولكن فقدت اليوم تلك الثقة، بنفسى ولو أنى استعد لاكتشاف أقطار وبحار عديدة. لم تبق أمامى جيوش داريوس المدججة بالسلاح التى هزمتها ولا الهنود البواسل الذين أخضعتهم رغم كفاحهم المستميت. فقدت الثقة بنفسى لأن عدوا جديدا ومستترا أخذ يقتفى خطاى ليلا ونهارا ويتبعنى كظلي. إنه أقوى منى وأقوى من أعدائى الآخرين الذين قضيت عليهم. يسلط عليّ قوته فى كل لحظة ولو أنى أتظاهر بعدم الإكتراث به أو أرفض الاعتراف بسطوته. لا يفطن الآخرون بما يجرى بينى وبينه. لا يستطيعون فهم ما يجرى ولن يستطيعوا ذلك. لأن العدو الجيد لا يفرض وجوده إلا عليّ وعليّ وحدي.

بانت لى منه إشارة منذ أيام قليلة. كنت راكبا على متن السفينة الملكية وكانت تطوف بنا فى النقع الذى توجد فيه قبور ملوك أشور. فهبت ريح قوية قلعت قبعتى من فوق رأسي. وقد اخترت يومها أن أضع على رأسى قبعة شبيهة بتلك التى كان يلبسها أجدادنا فى مقدونيا.

لن يمحى اسم هفستيون. سأبذل قصارى جهدى لأجل ذلك. سيبقى

اسمه منقوشا على جميع واجهات المعالم فى الإسكندرية وينبغى أيضا أن يذكر اسمه فى جميع العقود التى يبرمها تجار المدينة.

وافق الإله على إحلاله منزلة الألوهية فعليّ أن أقوم حالا بما تعهدت به.

الملاحظة العاشرة: حول موقف الإسكندر الأكبر من الخمر

لما شرعت فى كتابة هذا النص الذى يسوده الهذيان ماكنت أتوقع أنى سأصل به إلى هذا الحد. كنت أنوى البوح فقط ببعض مشاعرى فى بعض ساعات من حياتي. كنت أريد أن أحيا من جديد تلك الساعات مع الفسحة الزمنية التى توضح الرؤية. فالبعد الزمنى ضرورى عندما يعزم الإنسان على كتابة وقائع حياته ومغامراته ولو كان ما يكتبه - كما هو الحال هنا - معدا للمطالعة الشخصية.

وما كنت أتوقع أنى سأكون قادرا على مواصلة الجهد بهذه الصورة حتى أصل إلى هذه المرحلة من مغامراتى خاصة بعد تدهور حالتى الصحية.. فى هذه الأيام الأخيرة.

لا أثق مطلقا بأطباء دائرة التطبيب المنقطعة لخدمتي.. فهم يقدرون على كل شيء سوى معالجة المريض بصورة تؤدى به إلى الشفاء. مقدرتهم على الكلام عجيبة وتشخيصهم للأمراض دقيق ومقنع. ولكن مواهبهم غير نافعة إذا حل الأجل المحتوم. ولذلك قررت الاستغناء عن خدماتهم إذا استفحل سقمى لأنى أفضل أن أتحمل وحدى المحن التى كتبها الآلهة لى دون أن أشغل نفسى بعلاجهم.

وجدت فى هذه الأيام سلوى فى تناول الخمر ولم يكن هذا دأبى من

قبل. ما كنت أترفع عن شرب الخمر ولكن أشربها بالخصوص لبعث المسرة فى قلوب ضباطى وخلانى عندما ينتظم سلكنا فى مأدبة نقيمها ليلا بعد معركة ضارية.

إن المقدونيين مولعون بالخمر الجيدة. فكنت حريصا على أن أثبت لهم أن ملكهم قادر على التبارى معهم فى احتساء الخمر. وكنت أبزهم فى بعض الأحيان حتى أصبحوا لا يجرؤون على مباراتى فى هذه المضمار.

فقدت الآن قدرتى على التبارى وأمسيت لا أشرب إلا بمحضر أصدقائى المقربين فأحس بالانفراج وبسكون الهواجس المفزعة التى أخذت تتضخم يوما بعد يوم.

وكان ميديوس أحد الخلان يحذق توخى الطرق الكفيلة بخلق جو مرح أثناء المأدبات لأنه يستطيع أن يتحدث فى شتى المواضيع دون عناء أو تكلف ويقدر على مشاركة الندمان فى شربهم طول السهرة دون أن تبدو على ملامحه علامات السكر المفرط.

لم يلفت انتباهى من قبل. وما اعتنيت بطلب معلومات عنه. ولو كنت أجد لذة فى الاطلاع شيئا فشيئا على حقيقة شخصية جنودى سواء عندما أختبر سلوكهم فى ساحة القتال أو أراقب حركاتهم فى مجالس الشراب.

واليوم أمسيت لا أهتم بذلك إما لضيق الوقت أو لأن حب الاطلاع الذى يدفعنى من قبل قد خبا فى نفسي.

المهم وأنا أعود إلى الحيث عن ميديوس هو أنه يعرف متى ينبغى أن يتحدث ومتى ينبغى أن يسكت. ويحسن كذلك إلقاء القصائد الشعرية

فلا يتصنع التفخيم ولا يبالغ فى الحركات المعبرة التى تفسد المعنى.

لم أسمح له بإلقاء مقاطع من الألياذة ولو أنه استأذن منى أن يلقيها مرارا عديدة. وهذا أمر طبيعى لأنى خصصت هفستيون وحده بإلقاء شعر هوميروس بمحضرى لأنه هو الوحيد الذى يدرك معنى ذلك النوع من الصداقة التى تتحدى الموت نفسها فلا تستطيع هذه إخمادها.

كان ميديوس ينشد قصائد لشعراء آخرين. ويستطيع عندما يرانى مهموما أن يرتجل أبياتا مرحة فى الخمر وأثره فى النفس فيشيد بفرحة الحياة وبالنشوة العذبة التى تستولى على الرجل البسيط فتجعله يحس بأنه ارتقى إلى سرير الملك.

وعندما تنتهى المأدبة الرسمية يدعونا ميديوس إلى خيمته. وفيها نواصل مجلس الشراب ونفرط فى الشراب. وعندما نمسك عن الشراب يقدر دائما على فسخ قرارنا قائلا إن الآلهة أنفسهم يلجأون إلى احتساء الخمر لترويح أنفسهم رغم رصانتهم وعظمتهم وهم لا يخشون شيئا حتى الموت الذى لازم البشر الفانى كالظل. فترانا نقتنع بقوله ونشرب جميعا إلى طلوع الفجر.

ما استهوتنى قط الحلول السهلة ولذلك أشعر الآن تمام الشعور بأنه من المضحك والمؤسف معا أن أبوح بهذا السر: إذ لم أكن مشتغلا مع ولاة الأقاليم فى جلسات عمل لتهيئة الزحف على شبه جزيرة العرب الذى نشرع فيه بعد أيام قليلة قضيت الوقت فى حضور تلك الولائم التى كانت تساعدنى على استعادة الطمأنينة التى كانت تملأ نفسى فى السنين الماضية عندما

كنت أنفرد بصنع القرار وعندما كانت الظروف دائما مواتية.

ها أنا أنتظر الحملة القريبة.. أتانى نيارخوس طالبا التعليمات وهو من أشجع أعضائى وأخلصهم إليّ. وكان قبيل كل زحف جديد يعرف متى ينبغى له أن يطلب تعليمات منى ومتى ينبغى له أن يقوم وحده بمبادرات. وجرى نقاش بيننا ودارس النقاش فى تلك المرة حول الزحف على بلاد العرب الذى تقرر. وتبادلنا الرأى حول جميع النقاط المطروحة للدرس. وسررت لذلك. أمنيتنا فتح طريق تصل بانتظام البحر الأحمر بالخليج العربي.. وبرما نستطيع تحقيق أعمال أخري.

أنصت إلى نيارخوس باهتمام. وكان يبدى من حين لآخر ملاحظة دقيقة تكشف عن حصافة رأيه وعن تجربة عميقة اكتسبها من قيادة الأسطول مدة طويلة فى مجاهل البحر.

وكان يعلم ونحن على أهبة الانطلاق أن هذه المغامرة الجديدة ستستغرق وقتا طويلا وتستدعى منا تنظيما محكما. ولذلك كان يطلب منى أن أصحب الأسطول الغازى ويصر على الطلب.

ولم أجبه بالسلب ولا بالإيجاب. وربما كنت أحس أنى غير قادر على تحمل متاعب تلك الرحلة الطويلة. ولكن لم أمتنع صراحة حتى لا أحزنه.

لم يزل يعرض عليّ مشروعاته. وكان يعدّ ما أعددناه لاكتشاف سواحل شبه جزيرة العرب أهم رحلة بحرية استطلاعية قمنا بها. وكان يقول لي: حالما نجد الموقع المناسب نشيد إسكندرية جديدة ستكون أعظم وأوسع من سمياتها التى تحمل نفس الاسم. ونقيم فى وسط المدينة نصبا لتمجيد السلطة المقرونة بالإيمان بقدرة البشر التى

تستطيع السيطرة على الطبيعة مهما قست واستعصت والارتقاء إلى منزلة الآلهة.

كنت أجد متعة فى الاستماع إليه. وكنت عندما يعرض عليّ مخططاته المطابقة لتعليماتى أصحبه بفكرى فى تلك الرحلة التى لن تكون لها نهاية.

ثم دعوت أعز خلانى وشربنا ونحن نستمع إلى ميديوس يحضنا على الشرب بقوله: «لتكن هذه الأغنية بلسما لقلوبنا».

وفى تلك اللحظات كنت ألبى ذلك النداء لأنه هو النداء الصالح فى الوضع الذى كنا نعيشه.

الملاحظة الحادية عشرة: حول حديث الذكريات والنصر

تقض هذه الرحلة مضجعى لأن المشروعات الجديدة التى ينبغى إنجازها حسب التراتيب التى ضبطت جزئياتها مع أعضادى تخامر ذهنى ليلا ونهارا. زودتهم بتعليمات مدققة. ولكن تبرز فى نفسى من حين لآخر نقطة تحتاج إلى مزيد من التدقيق.

أظن أننا قاربنا بلوغ الهدف العظيم الذى رسمته منذ بداية المغامرة. وذلك بفضل الوحدة بين شعوب يونان والشعوب الأخرى التى بدأت تتدعم يوما بعد يوم.

ومن حسن الحظ أن جميع تلك الشعوب أصبحت تؤمن بضرورة الوحدة حتى أننا أمسينا لا نستطيع إحصاء عدد الفرس والميديين والهنود الذين أصبحوا يفهمون لغتنا خاصة من بين الشبان. وإذا استثنينا الذين مازالوا متعلقين بعاداتهم ومتمسكين بلهجاتهم.

لا أعتنى إلا بالشباب لأنه هو الذى سيواصل المعركة التى بدأناها ويحقق الحلم الذى لازم أذهاننا بفضل ما يتمتع به من قوة وعزيمة صماء.

ودعوت الناس فى كثير من الأقاليم الخاضعة لنفوذى إلى اقتناء الكتب اليونانية إيمانا منى بأنهم سيجنون منها الفوائد الجمة ويحذقون عن طريقها لغتنا.

وأمرت الأساتذة والعلماء اليونانيين الذين يصحبوننى بالتفرغ لدراسة علوم الشرق وترجمة مؤلفات علمائهم إلى لغتنا لأنى أعتقد أننا سنفيد منها جم الإفادة.

ولو أننا نزعم أننا ألممنا بجميع المعارف. أظن أن ذلك التبادل فى ميدانى الفن والفلسفة الذى يجرى فى مناخ يسوده السلم والوئام بين الشعوب سيساعد على المضى قدما لتجسيم مشروع حضارى شرعت فى وضع أسسه بقوة السلاح. ولا شك أن المرحلة التالية التى بدأنا نقطعها لم تتيسر لنا لو لم نقطع المرحلة الأولي.

صرعتنى حمى استعصت على كل علاج. وأنا أحاول مغالبتها حتى لا تغير شيئا من مظهرى لأن عامة الناس وخلانى أيضا لا يقبلون أن يبدو الغضب على ملامح الملك. فهم يفرضون عليه أن يظهر فى كل لحظة قوة لا تزحزحها العوارض وأن يخط دائما الطريق الذى ينبغى سلوكه وأن يستنبط باستمرار مخططات جديدة للقيام بعمليات حربية مجددة.

فكنت أجنح أكثر فأكثر إلى الوحدة حتى لا يلاحظوا وهنى ونظراتى التائهة.

وفى اللحظات التى أعيد فيها ذكرياتى وأحيى ماضى برسم صوره

على البردى أعود بمهجتى إلى دودونا فأسمع حفيف أوراق شجرة السنديان المقدسة التى علمتنى أولمبياس تأويل همسها وأتذكر بعض نصائحها. كانت تقول لى إنه ينبغى للإنسان كلما قارب مرحلة أساسية من مراحل حياته أن يستعد لها بتجميع شتات فكره وشعوره فى عملية تركيز سرية تجرى فى أعماق النفس. هدفها إنضاج الروح حتى تكون قادرة على مواجهة المرحلة الجديدة.

وأجدنى فى معبد أمون أمام الباب السري. لا أرى الإله كما رأيته عندما زرته فى معبده. ولكن أرى عمودا من النور الساطع متغير الحجم والمظهر ألمح فيه حينا فيليبوس بملامحه القاسية الضارية التى عهدتها فيه فى ساعات القرارات الحاسمة وحينا هفستيون بجماله الرائع ورصانته وحينا آخر خلانى الذين سقطوا فى ساحة الشرف.

وأسمع فى تلك الحالات جلبة النصر تلك الجلبة التى طرقت سمع ديونيسوس عندما توغل فى أعماق القارة الهندية بعد أن احتل معظم القارة الآسيوية. فأطلق عليه لأجل ذلك كله لقب المنصور.

ولكن النصر الذى ظفرت به لا يشبه نصر ديونيسوس. إنه نصر يشاركنى فيه أعز خلاني. وأنا اعتقد أن الجلبة التى أثارها ستبقى داوية إلى آخر الدهر ولو مزق ملكى خلفائى وتألب عليّ أعدائى وحلفائي.

سوف لا يتعالى نشيد النصر لتمجيد إمبراطور ملك البر والبحر ولكن سيتعالى نشيد لتمجيد إله لا يقدر بشر على تشويه سمعته ولا يمحو ذكره أى حدث عارض ولو بعد عدة قرون.

المــلاحظة الثانية عشرة: حول موت الإسكندر العظيم

ما هى الظروف التى أحاطت بموت الإسكندر العظيم؟ وما هى أسباب ذلك الموت المفاجئ عندما بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة وهو متمتع بجميع قواه العقلية؟

لم نعثر على جواب مقنع عن هذا السؤال. وأقول بكل تواضع إن الأسئلة الهامة المطروحة بخصوص حياته ومعاركه ومشروعاته بقيت بدون أجوبة موثوق بها.

لا شك أننا نجد عددا كبيرا من الأجوبة فى الكتب الكثيرة التى تناولت حياته وأعماله بالدراسة والتحليل أو بالأحرى شوهت حياته وأعماله. ولكن نفتقد الجواب الموثوق به.

ويتوه كثير من الناس عند الحديث عن الإسكندر فى خضم من التخمينات ويسبحون بخيالهم فى شتى الاتجاهات.

ولو عثرنا يوما على «اليوميات الملكية» التى سجلت تفاقم مرض الإسكندر يوما بعد يوم لانكشفت لنا الحقيقة وأعنى بها الحقيقة المجردة. وهى الحقيقة الوحيدة التى ترفع الستار عن الأسباب الحقيقية لموت الإسكندر المقدوني.

سألجأ مرة أخرى إلى كتاب أريان لإزالة هذا الخلط. قد يدعى بعض الناس أنى أجنح إلى الحل الأيسر. ولكن ليست لدى طريقة أفضل لأن مخطوط بابل ينتهى عندما يلاحظ الإسكندر أن إحساسه بدأ يضعف وأن العالم المحسوس انغلق فى وجهه ليترك مكانه عوالم الأسطورة والحلم.

فإن أريان لا يقتصر على إبداء آرائه الشخصية بل يضيف إليها مجموعة من الاحتمالات توضح نوعا من الأسباب التى أدت إلى موت

الإسكندر الكبير فى بابل وهو فى سن الشباب.

ولذلك أعود إلى ما كتبه صديقى أريان النيكوميدى وأنقل بشيء من التصرف الفقرات التى أوردت بعض الأجوبة عن الأسئلة الخطيرة المطروحة بشأن موت الإسكندر ابتداء من اليوم الذى قام فيه آخر مرة بتقديم القرابين للآلهة (أو بالأحرى للإله الواحد الفرد الذى لا يتجزأ وقد كان يهيء تجليه فى الكون كما لو كان ينتظر فى أعماق نفسه إشراق عهده).

لقد نشر الإسكندر اللغة اليونانية فبلغت فى انتشارها أقصى الأرض. وقد كانت هذه اللغة وعاء لآراء الكتّاب القدامى ولمعانى الرحمة التى أتى بها السيد المسيح.

امتزج الشرق والغرب فى فكر الإسكندر وفى وجدانه وأصبح لا يفرق بين الشعب اليونانى وغيره من الشعوب بل يرى أن البشرية جمعاء هى شعب واحد.

تلك هى الشرارة المقدسة التى أضاءت وأحرقت العباد والشعوب والأمم والأفكار.

أقول عمدا أضاءت وأحرقت لأن الأحداث الجسام ذات الأثر البعيد تنير وتحرق فتصهر العباد والشعوب وتيسر الامتزاج والتآلف بين الأفراد والجماعات والأمر يختلف طبعا باختلاف تأثيرها فى البشر وتأثر البشر بها.

لا أريد أن أقص ما جرى ولا أن أصدر أحكاما بل أفسح المجال لرفيق الدرب مؤرخ نيكوميديا.

إليكم ما كتبه أريان فى الباب السابع والأخير من «غزاة الإسكندر»

عن موت الملك.

توفى الإسكندر فى الحقبة الرياعية الأولمبية الرابعة عشرة فوق المائة فى السنة التى تولى فيها هيقسيوس زمام الحكم فى أثينا. وكان عمر الإسكندر اثنتين وثلاثين سنة و«منح - حسب قول ارسطوبولوس ثمانية أشهر فى السنة الثالثة والثلاثين من عمره. وانتصب على العرش مدة اثنتى عشرة سنة.

وكان رائع الحسن عظيم النشاط ذا ورع شديد وشجاعة نادرة. وكان ترفعه عن المتعة الجنسية بقدر تعطشه الدائم إلى اللذات الروحية. وكانت له ملكة لا يضاهيه فيها أحد وهى القدرة على تمييز العمل الصائب من بين الأعمال الممكنة حتى عندما تعجز حاشيته عن التمييز.

وفى الساعة الحاسمة التى يحل فيها الخطر كان يستطيع بفضل إقدامه أن يقوى عزائم جنوده ويرفع معنوياتهم ويزرع فى نفوسهم الأمل. وكان يخطط لأعماله فى صمت وبجسارة فائقة فيبعث الرعب فى قلوب أعدائه عندما يشن عليهم هجومات مفاجئة ولم يترك لهم مجالا لتوقع هجومه. وكان أيضا واثقا بقوته وحصافة رأيه أشد الوثوق فلم يمكن أيا كان من مغالطته. وكان مقترا على نفسه فى لهوه ومرحه. ولكن كان يعرف كيف يبرز مروءته بإسعاف من هم فى حاجة إلى النجدة.

8





1 - المؤرخ (أريان النيكوميدي)

لا أرى أنه ينبغى أن نعتبر الأخطاء التى ارتكبها الإسكندر أخطاء جسيمة. ولو أنه انساق إلى ارتكاب هفوات فى ساعات الغضب أو عندما يصاب بنوبات عصبية. ولو أنه افتتن بعادات الأعاجم وطرق عيشهم فتبناها أحيانا.

كان حديث السن لما أقبلت عليه الدنيا وبدأت جميع أعماله تكلل بالنصر. ولا غرو أن المجد المبكر يدفع صاحبه إلى القيام بمبادرات نابية. هذا بالإضافة إلى سوء تأثير مستشاريه: ذلك الرهط الذين يحيطون عادة بالملوك العظام ويسلكون معهم سلوكا يصطنعونه. فلا يأتونهم إلا بالأنباء السارة خشية إثارة غضبهم ويجتنبون إسداء النصائح النافعة لهم ويقتصرون على التملق لهم عند مخاطبتهم.

وأرى من واجبى أن أؤكد هنا أن الإسكندر هو من بين الملوك الأقدمين الرجل الوحيد الذى برهن عن مروءته بندمه على ما كان يقترفه من الأخطاء وبإعلانه عن استعداده للتكفير عنها.

ينبغى لمن يتسرع فيقذف الإسكندر أن لا يكون حكمه عليه معتمدا على إحصاء بعض زلاته وأعماله المنكرة فقط بل على نظرة شاملة لسلوكه تفحص النواحى الإيجابية والسلبية معا. وقبل إصدار حكم لا رجوع فيه ينبغى للناقد أن يقيس قدراته الشخصية بما قدر الإسكندر على تحقيقه من الأعمال الجليلة والانتصارات الباهرة. إذ إن الإسكندر

استطاع أن يستولى على قارتين اثنتين مذيعا اسمه وناشرا أنباء بطولاته فى جميع أصقاع العالم. وهذا أمر يفرضه الواقع ولا يستطيع أسلط النقاد لسانا أن ينكروه.

إذن ينبغى لمن ينقده متعجلا ومتساهلا بذلك التساهل الذى يخفى الحسد أن يتفطن إلى الحدود المفروضة على أعماله التى تجعله فى أغلب الحالات لا يقدر على إنجازها على الوجه الأتم.

ويحسن أن نشير إلى حقيقة لأمراء فيها وهى أنه لم يوجد فى عهد الإسكندر قطر أو مدينة أو حتى شخص لم تبلغه شهرة الرجل. وأنا أعتقد أن الإسكندر أنجز تلك الأعمال الجليلة التى تثير الإعجاب بفضل قوة الإله الذى شاركه نواياه وأعماله.

لا يوجد فى الحقيقة رجل يقارن بالإسكندر ووهب نفس الامتياز ونفس العظمة.

2 - المؤرخ ناسطور ماتساس

هكذا انتهت «غزاة الإسكندر» حسب رواية أريان وهكذا انتهى مخطوط بابل.

ولا أدرى هل أحسنت صنعا عندما أذعته بين الناس لأن الإسكندر كان يتمنّى أن يتلف حتّى لا يطلع أحد على شخصية «الإسكندر الآخر» التى تبرز بين سطور النص. ولكن ما استطعت مقاومة الرغبة التى كانت تدفعنى إلى إطلاع غيرى على هذا النص الذى أعجبت به كثيرا وصاحبنى طوال الرحلة التى قمت بها فى آسيا من أدناها إلى أقصاها

متجولا فى الأصقاع التى كانت مسرحا رائعا لحياة المقدونى الطموح أو - إذا شئتم - للأسطورة التى نحتها نحتا.

وعندما انتهين من قراءة هذا المخطوط بعد أن أقدمت على اقتفاء خطى ذلك الرجل كالظل التائه فى فضاء نوره الساطع أيقنت بأنه إله حقا.

أعيد فقط ذكرى إحدى لحظات الشك التى ساورت الإسكندر عندما أثخن بالجراح فى معركة من تلك المعارك العديدة التى كان يدفعه حماسه الفياض فيها إلى التعريض بحياته. فلما رأى نفسه مطروحا كأى جندى من جنوده المجندلين جس كلومه وأحس بدم ساخن يسيل بين أصابعه فالتفت إلى هفستيون وإلى الخلان الذين كانوا يحيطون به وقال لهم بصوت مرير:

- هذا دم ولا شك، وليس الذى يسيل إخورا هذا أمر عجيب عجيب حقًا لأن السائل الذى يسيل فى عروق الآلهة هو الأحور.

لم تدم خيبة الأمل هذه طويلا وذلك راجع إلى حسن طالعه بل سرعان ما نسيها لأن إيمانه بأنه إله تغلب على الدلالات المتناقضة التى توحى بعكس ذلك.

إذن - وليكن ما سأبوح به الآن سرا بيننا فى هذه الساعة التى أنهى فيها نسخ المخطوط - لا ينبغى أن يشك أحد منكم فى أنه كان إلها ولا يليق بكم أن تتساقوا إلى تأييد تفكير منطقى سخيف يحاول دون جدوى استنقاص الأحداث الجسام التى تجرى من حولنا.

كان الإسكندر إنسانا يتّصف بجميع صفات الإنسانية ولكن القوة

الخفية التى كانت تسكنه سمت به إلى مستوى الأسطورة لا فى نظر شعوب يونان فقط بل فى نظر جميع شعوب العالم.

لقد سبق أن قلت إن الأساطير تكتسب جمالها من محافظتها على نضارة شباب لا يزول. فالأساطير لا ينال منها الدهر أبدا لأنها تجدد دائما كيانها. وهكذا وصلت إلينا أسطورة الإسكندر ولم تفقد ذرة من بهائها.

إن وجه الإسكندر ولو كان منحوتا فى المرمر أو البرنز يشع بقوة تفوق القوى البشرية. فهى قوة تخلب الألباب أو تبعد الشرور وهى شبيهة بتلك القوى النابعة من الأقنعة السحرية التى صادف أن شاهدتها بآسيا أثناء حفلات دينية سرية تقام بإقليم نيبال. فهذه الأقنعة تخلب لب من حدد إليها النظر بمفعولها السحري.

حقًا إن صورة الإسكندر تحتوى على نفس القوة المخزونة فى الأقنعة السحرية. هذا ما أكده لى كثير من حكماء الهند فى بنارس مدينة الهندوس المقدسة وكثير من حكماء التبت.

عثرت فى «المنتخب الشعرى الإسكندرانى البلاطي» على قطعة شعرية قصيرة لبوسيديبوس يمدح فيها ليسيبوس الذى خلف لنا أروع تماثيل رأسية للإسكندر وأقربها لصورته الحقيقية:

تحية لك يا ليسيبوس المبدع الموهوب من الآلهة.

يا من كانت له سكيون موطنا.

وجه الإسكندر الذى نحته من البرنز.

يرسل الأشعة.

ذعر الفرس لما رأوه.

ففروا

كما يفرّ الثيران

أمام الأسد الضاري

إذا قدر هذا الوجه على اخضاع جحافل الفرس فإنه قدر أيضا على تحقيق مأثره أعجب وأبهى وهى اخضاع الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضى والحاضر والمستقبل ومحاه محوا ليعوضه بزمن حاضر ذى بعد واحد لا يحول.

إن الحكاية الشعبية الساذجة التى تقص قصة السيدة قرقونا التى تريد أن تتأكد هل أن الإسكندر مازال حيّا ومازال يحكم هى رائجة إلى الآن فى جميع الأقطار وحتى على قمم جبال الهندوكوش المنيعة.

وهكذا نشأت الأسطورة وانتشرت فى اللحظة التى انتهت فيها سلسلة الأحداث التاريخية التى منحت للإسكندر الخلود.

شاهدت بنفسى أن أسطورته مازالت حية أثناء تلك الرحلة الطويلة التى انتقلت فيها من الباكستان إلى أفغانستان ومن أعماق الهند إلى تلك القرية النائية المنعزلة فى إقليم نيبال التى تسمى كانكانى ومن إيران حيث زرت أنقاض مدينتى برسيبوليس وباسرقادس اللتين تعيدان ذكرى أمجاد الفرس إلى سوريا ومدنها الهلينستية.

وحدثنى كثير من الناس عن الإسكندر الكبير أثناء تلك الرحلة الطويلة. وادعوا أمامى بكل ثقة أنهم من سلالته وأنهم أحفاده. وأريد أن أشير إلى أنهم كانوا جميعا أناسا بسطاء وأميين يتعاطون الزراعة أو

الرعى ولم يتجاوز اطلاعهم على الدنيا حدود المنطقة المحيطة بقراهم ومنازلهم التى يعملون فيها لاكتساب قوتهم.

لم تكن لديهم أية معلومات تاريخية وقد لقنوا فى أحسن الحالات مبادئ القراءة والكتابة بلهجتهم المحلية. وإنما كانوا يتحدثون عن الإسكندر بكلام فصيح ومؤثر رغم بساطته كما لو كان البطل أقرب الأقربين إليهم. وكان فريق منهم يدعون أن أسلافهم الأولين عرفوا الإسكندر وقاتلوا فى صفوف جيشه.

وصاحبنى صديقى أزار محمود الموظف بالمركز السينمائى الوطنى بكراتشى فى هذه الرحلة. وكان لى دليلا ومترجما. فيسر لى الاتصال بأولئك الناس البسطاء الذين يتكلمون بلهجات محلية تتغير بتغير المكان.

وساعدنى بكل صبر حتى أستطيع التحادث مع «أحفاد» الإسكندر الكبير. وأقر لى جميعهم أو أغلبهم بأن آباءهم وأسلافهم هم الذين غرسوا فى أنفسهم اقتناعهم بانتسابهم إلى الإسكندر وإنهم سيغرسونه بدورهم فى نفوس أبنائهم وأحفادهم.

أكد لى شيخ نوتى باكستانى يحمل الركاب والبضائع فى زورقه على نهر الهندوس (السند) الذى يجرى قريبا من ثاتا المدينة المقدسة أن أجداده قدموا من جزيرة كريت (إقريطش). غادروا جزيرتهم مع أمير البحر نيارخوس الذى صحب الإسكندر واستوطنوا فى قرى تلك المنطقة على ضفة النهر بعد نهاية حملة الإسكندر.

وكنت أستمع إليه وأنا مبهوت. كان يحدثنى عن كل ذلك بلهجة طبيعية

كما لو كان يقص عليّ أحداثا قريبة فى الزمان شاهدها بعينيه.

وتوجه إلى القنطرة الكبيرة التى تصل بين ضفتى النهر فى مكان قريب من مصبه فى البحر. ووقف عند ضفة النهر ونظر إلى مياهه المضطربة التى يعلوها الزبد وقال بلهجة طبيعية:

- فى هذا المكان بالذات أنهى «اسكدرسيام» أى الإسكندر الكبير حملته. ونزل عدد كبير من جنوده فى هذه البقاع واستوطنوها. وكان أجدادى من بينهم.

وكانت عربات تجرها الثيران تعبر النهر سالكة القنطرة. وكانت مثقلة بحمولتها عليها نسوة وصبية وخرفان. وكان الضجيج الذى تحدثه وهى تمر على القنطرة يصم الآذان. فلم أعد أسمع ما يقوله الشيخ النوتي. ولكن هل من المفيد أن أعلم أشياء أخري؟

كفى أنى علمت منذ تلك اللحظة أن أسطورة الإسكندر بقيت حية هنا يتعامل معها الناس بصورة طبيعية كما لو كان الإسكندر معاصرا لهم. لم ينل من صورته الدهر مهما طال الزمان.

قد حافظت أصقاع آسيا المترامية الأطراف التى قطعها الإسكندر بسرعة البرق على أسطورته واضحة السمات حاضرة حضور الواقع المعاش تتحدى المنطق المألوف.

أذكر لكم من بين ما احتفظت به من عديد الصور والذكريات التى تزدحم فى ذاكرتى منذ قمت بذلك البحث الطويل فى آسيا طوال رحلة تعددت مراحلها حادثتين اثنتين تدلان بكل وضوح على أن الإسكندر الإله

حى لا فى طيات الكتب الجامدة فحسب بل أيضا فى قلوب الرجال الدافئة.

فى فضاء فسيح تحرقه الشمس فيقسو نشاهد ربوة مستديرة عريضة القاعدة دقيقة الذروة تحيط بها حقول مزروعة. وفى تلك الحقول فلاحون باكستانيون منحنون يفلحون الأرض التى هى مصدر رزقهم طوال حياتهم ونصيبهم فى هذه الدنيا. وتحرقهم شمس قاسية ويكسوهم العرق وتبدو عليهم علامات التعب الشديد. وقريبا منهم صبيان يلعبون بالتراب ويطاردون جمالا صغيرة تعدو أمامهم. فإذا التحقوا بها ركبوها وابتعدوا بها يتبعهم سحاب من التراب المثار.

كنت بقرية مانكيالا على بضع كيلو مترات من مدينة تاكسيلا. وكانت تلك مرحلتى الأولى بعد الاكتشاف المثير الذى بهرنى فى تاكسيلا المدينة اليونانية العتيقة عندما زرت متحفها: لقد احتفظت تماثيل بوذا المودعة فى المتحف على سمات وجه الإسكندر الكبير وعلى نظرته الحادة التى تعبر عن عزيمته الصماء.

أتيت إلى مانكيالا تقودنى إليها أسطورة. قيل إن الإسكندر الكبير دفن تحت هذه الربوة الواقعة وسط هذا السهل الفسيح أوفى رفقائه. ذلك الذى صاحبه فى جميع معاركه وغزواته. وهو حصانه بوكيفالوس. ويسمى أهالى المنطقة ذلك القبر العالى «ستوبا».

لا نجد فى التاريخ ما يؤكد هذا الزعم. ومعنى ذلك بكل بساطة أن للأسطورة تأثيرا يفوق تأثير التاريخ. وأن الزمن إذا طال عمق ذلك التأثير ورسخه فى النفوس.

واتجهت صحبة الدليل الباكستانى أزار محمود إلى الفلاحين الذين كانوا يعملون بجهد تحت الشمس المحرقة وحييناهم وردوا التحية بحرارة على عادتهم. يبتسمون وينحنون قليلا برؤوسهم ويصافحون ممسكين اليد بين الراحتين. وكانوا يتكلمون لغة هى من أقدم لغات الهند.

ودعونا لننزل ضيوفا عليهم بتلك البساطة واللباقة فى الاستضافة التى يتحلى بها أيضا فلاحو موطني. فالتمسنا منهم العذر نظرا لضيق الوقت. وبينت لهم سبب زيارتى لمانكيالا عن طريق الدليل.

وأشرق وجه أكبر الجماعة سنا عندما علم أنى «يافاني» أى يونانى (إغريقي) وأخذ يتحدث باسهاب محبب عن مرور «اسكدرسيام» بمانكيالا. وأشار بفخر إلى «الستوبا» التى دفن فيها بوكيفالوس.

وسألته قائلا:

- هل قرأت هذا الخبر أو هل حُدثت عنه؟

قال ببساطة:

- لا أعرف القراءة.. ولكن جميع أهالى قريتى يعلمون ذلك منذ طفولتهم.

وكان جدى ملما بكثير من التفاصيل. وكان الناس يغنون أغنية عن «إسكدرسيام» وبوكيفالوس.

والتف حولنا الأطفال تاركين ألعابهم وكافين عن مطاردة صغار الجمال وحققوا فينا النظر بفضول.

وسألهم الشيخ عن «إسكدرسيام» فأجابه كبارهم بأنهم سمعوا عنه

أخبارا غامضة وأنهم يعرفون ما تحويه الربوة ويعلمون من هو بوكيفالوس.

وعم الحقول التى داعبتها آخر أشعة الشمس المحمرة سكون يبعث الطمأنينة فى النفوس. وتعالت فجأة جلبة وضوضاء وسمعت صهيل خيل ودق حوافر على الأرض وصيحات مقاتلين. ولمحت من وراء الربوة على خط الأفق الذى امتزج فيه لون الورود بلون الذهب شبح جندى يحيط به النور من كل جانب.

وفى تلك الساعة التى تفصل بين الليل والنهار استعاد ذلك الفضاء الريفى الهادئ بعده التاريخي!

أما الصورة الأخرى التى تشير إلى أن الإسكندر الإله مازال حيا بيننا فإنى التقطتها فى مدينة هدا.

هدا مدينة عتيقة مقدسة تقع فى وسط أفغانستان قرب إتزيلاليات.

حارس الآثار بها نورستاني. وعندما علم ما هو موطنى دمعت عيناه ومد ذراعه مشيرا بتأثر إلى الجبال التى كانت تبدو باهتة فى أقصى سهول هدا وقال:

يختفى إقليم نورستان داخل تلك الجبال. نحن من أصل يونانى وكان أجدادنا جنودا مقدونيين أتوا مع «إسكدرسيام» ونزلوا هناك واستوطنوا بتلك الأرض.

فسألته قائلا:

كيف تستطيع أن تجزم بذلك؟

فأجابنى جوابا لا يحتمل المعارضة قائلا:

- هى الحقيقة بعينها .. فعليك أن تنزل بقطرنا وتعيش معنا لتقتنع بما أقول. كنا فى بداية هذا القرن نعبد الآلهة اليونانيين القدامي. ولكن أرغمنا على التنكر لديننا واعتناق دين جديد. وإنما حافظ شيوخنا - أعنى بذلك كبارنا سنا - على عقيدتهم الأصلية.

كان رجلا من عامة القوم يرتدى ثيابا رثة قد عضته الأيام مثل أغلب سكان ذلك القطر فتركته فقيرا معدما. ولكن كان أبيا كريما. فلما مددت يدى لأناوله بعض النقود جزاء مصاحبته لى ليدلنى على آثار هدا العتيقة لم يقبل الهبة قائلا:

- أنتم أول من أتانا من شعب يونان. فاستقبالكم بالحفاوة التى نقدر عليها من أوكد الحاجيات.

سأقص عليكم من جديد قصة الإسكندر. مات قائد عسكرى وحل مكانه إله.

وحضور ذلك الإله يثير دائما تأويلات متناقضة مثل حضور الآلهة الآخرين.

أصبح ذلك الإله ذريعة للاتجار والاستغلال والانحراف. شأنه شأن سائر الآلهة.

ولكن كان إلها على كل حال إلها فى نظر فلاح مانكيالا البسيط الذى يقيم قريبا من تاكسيلا وفى نظر ملايين من العباد يقطنون فى أعماق آسيا ويقدرون إلى اليوم على التعلق بالأسطورة بروح فياضة بالوجد الصوفى رغم فقرهم المدقع وجهلهم.

كان إلها أيضا فى نظر بعض العالقين بطقوس التطهر فى مياه نهر القنج المقدسة. يعومون فى النهر ويطفو من حولهم ما طرح فيه من رماد ومن قطع محروقة من لحم البشر أتى من محارق الجثث المكشوفة التى لا يقيها سقف. وينتظر أولئك أيضا «إسكدرسيام» لأنهم يعتقدون أن الإسكندر لم يمت.

إن تلك القوة البشرية العجيبة التى تعبق بعبير شذى لم تتلاشى ولم تضمحل.

لم يترك لنا أريان وهو المؤرخ الدقيق أى خبر عن مكان ضريحه ولم يقل لنا أين نقلت جثته فى حين أنه يؤكد على تفاصيل عديمة الأهمية منقولة من الكتب جمعها بعناية حتى لا يقال عنه إنه لم يطلع على جميع المراجع.

جميع من تطرقوا إلى هذه المسألة غطوها بغشاء من الغموض والخلط. ولم يعثر أحد على قبره أو على أثر لقبر دفن فيه ثم أخلى من الجثة رغم الأبحاث الكثيرة التى أجريت للعثور عليها. لو قرر القواد الذين تقاسموا مملكته أو خلفاؤهم الذين أتوا بعدهم إخراج الجثة من القبر لعثرنا على أثر لذلك أو دلالة.

نحن نعلم أن العلماء عثروا على كثير من الآثار التى ترجع إلى العهد الهلنستى فكيف لم يهتدوا إلى اكتشاف أهم أثر لذلك العهد وهو قبر الرجل الذى يمثل فاتحة ذلك العهد الجديد.

لا جواب عندى ولا أحاول ولوج ذلك الباب السرى الذى يشبه تماما الباب الذى ولجه الإسكندر فى معبد صحراء مصر. وإنما لازمنى ذلك

التساؤل طوال الرحلة إلى أعماق آسيا بحثا عن حقيقة الإسكندر.

إن المنطق لا يقبل الأمور الخفية بل يرفضها لأنها فاقدة فى منظاره لكل أساس ولكن الموت يعيد للسر دوره المجحود ويهبه حياة خفية تكسبه بعدا آخر هو بعده الحقيقي.

وإن إله بابل عندما كتب هذا المخطوط فى الأيام الأخيرة من حياته ترك لنا مفتاحا نستطيع أن نفتح به بابا آخر. أعطانى تزيلال ذلك المفتاح فى اليوم الأخير من إقامتى ببابل عندما سلم إليّ هذا المخطوط. فحملت معى لما غادرت المدينة هذا الكنز الذى لا يقدر بثمن.. وسلمت المخطوط لمختصين حتى يجمعوا أجزاءه ولمختصين آخرين ليقرأوا ويفكوا رموزه. ولكن المخطوط بقى رغم ذلك وثيقة تحتوى على فراغات وفقرات مشوشة. فأنا أقدم لكم هذه الوثيقة كما هى جوابا عن الأسئلة المطروحة ومفتاحا لما استغلق من الأمور.

إلى من ينبغى أن يسلم هذا المفتاح؟

يسلم إلى الذين يعرفون أين يوجد الباب السرى ويؤمنون بوجوده ويشتاقون إلى رؤيته ويخشونها فى نفس الوقت.

أنقل الآن شذرات من الجزء الأخير من المخطوط وأهديها بنفس الحمية التى جعلتنى أنبذ المألوف من العقائد إلى كل من أنصت إلى صوت الإسكندر وهو يبوح بمكنون نفسه.

الإسكندر عن نفسه

قال لى حكماء الهند الذين قابلتهم فى مدينة تاكسيلا:

- أتيت إلى هنا. وحاربت. وجُرحت وانتصرت. ولكن لم يتغير أى شيء. ولن يتغير أى شيء فى هذه الدنيا.

فأجبتهم قائلا:

- نعم. أنا أعلم ذلك. ولكن الكفاح له وجود. وذلك الوجود يتجاوزنا ويفوقنا. كم اشتقت إلى استكشاف المحيطات المترامية الأطراف. وكم تاقت نفسى إلى بلوغ أقصى الأرض والانتهاء إلى أبعد نقطة يقدر الإنسان على بلوغها. فإذا لم أبلغ النقطة فعزائى أنى كافحت.

فقال لى الحكماء:

- وما فائدة ذلك الكفاح؟ إن الذين أنقذتهم من البلايا سيبددون إرثك يوم وفاتك ويبذلون كل ما فى وسعهم لإزالة ذكرك ومحو اسمك من أذهان الناس. إذن لماذا تكافح؟

- أكافح فى سبيل الإله الواحد حيثما يوجد. وأكافح أيضا محبة للكفاح.

إن أمى أولمبياس هى التى كشفت لى عن ذلك المجهول البعيد الغور الذى نحتضنه فى أنفسنا. فغصت فيه فوجدته أقسى وأخوف من صحراء قدروسيا ومن لهيبها. ولن يقدر أحد على فك لغز ذلك المجهول ولذلك لن يستطيع أحد إدراك حقيقتي. لماذا أطلق على رسل اليونان

لقب «الإسكندر الكبير» عندما قدمت وفودهم إلى بابل محملين بآيات الولاء وتيجان الذهب. لن يستطيع خلفائى ولا الأجيال القادمة فهم الوازع الذى دفع مجموع الشعوب اليونانية إلى إحلالى تلك المنزلة السامية. سيبقى ذلك الاعتراف العارم بمنزلة تفوق منزلة البشر لغزا سيحاول فكه الباحثون والمؤرخون وكذلك الكتاب الذين يخدعهم خيالهم وذلك باقتراح مختلف التأويلات.. وسينتهى كل ذلك إلى تزييف شخصيتي.

فالمجهول الذى لا تدرك أغواره ساكن فينا ومسيطر على ما يحيط بنا ولا عجب أن يغير ملامح الشخصية فى نظر من لا يستطيع إدراك كنهه ومعناه.

سوف أعود. وسوف أعبر عتبة باب إشتار ولكن فى الاتجاه المعاكس. وأقوم من جديد بنفس المغامرة من بدايتها إلى النهاية. سوف يؤمنون بى ويمجدوننى ثم يخونونني.

لقد جرحت مرات كثيرة فى حياتى وإن أنكى جرح هو جرح الخيانة ولكن الخيانة أمر لا مفر منه. شأنها شأن الموت. فهى ملازمة للبشر الفانى وللآلهة الخالدين أيضا تتبعهم كالظل طيلة سيرهم.

سوف أعود. وسوف يستقبلنى الناس فى موكب بهيج حاملين جريد النخل. وأطوى من جديد نفس المسيرة المحددة منذ الأزل والتى تنتهى فى الموعد الموعود أى عندما أبلغ السنة الثالثة والثلاثين من عمري.

سوف أنشئ عالما جديدا لجميع البشر مهما كانوا وحينما كانوا. ويلهج الناس بذكرى ثم يهدمون ما أنشأت مشنعين باسمي. ويفنى كل ما أنجزته إلى الأبد. ذلك ما كتب للناس جميعا: المجد والمحنة والموت والنشور.

ببابل فى شهر دايسيوس

كتب بيد الإسكندر بن فيليبوس أو أمون.

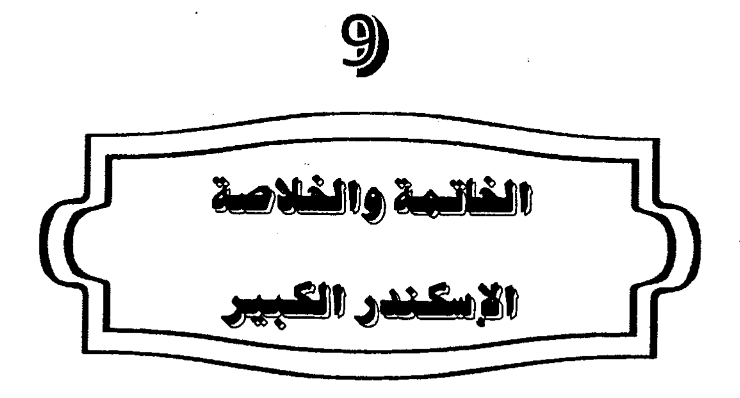
(يقول مالك المخطوط إن شهر دايسيوس سنة 323 قبل ميلاد المسيح. ولا ريب أن الإسكندر كتب هذا المخطوط قبل موته بأيام قليلة أى قبل بداية شهر دايسيوس. وقد يكون الجانب الأكبر من المخطوط قد وضعه الإسكندر فى صائفة سنة 322.

ويحق لمن يشك فيما أدعيه أن يتمسك برأيه. فالإسكندر والمسيح وسقراط لم يتركوا لنا آثارًا مكتوبة. هذا ما تعملناه عنهم. وهذا ما نعتقده ونردده طبق تقاليد راسخة ولدت عددا من الأساطير وكثيرا من التعاليم الموثوق بها أيضا. أنا لا أحاول تفنيد ذلك المأثور ولكن أرفضه. ذلك أن عدم عثورنا على أى أثر مكتوب لهؤلاء ليس بحجة قاطعة على أنهم لم يكتبوا شيئا. ونحن نعلم أن أهم مؤلفات القدماء سواء أكانوا يونانيين أم من شعوب أخرى ضاعت وأتلفت عمدا. وإذا نجت بعضها من الضياع أو التلف مثل مخطوطات البحر الميت البالغة الأهمية وعثرنا عليها أو تعثر عليها الأجيال القادمة فلمجموعة ظروف مواتية شذت عن القاعدة العامة.

وأنا أودع هذا التأليف بين يدى كل من يبغى الاطلاع على «الإسكندر الآخر» من وراء الإسكندر المحنط الذى نطلع عليه فى الكتب المدرسية وفى كتب التاريخ المزيف.

الإسكندر هو من بين آلهة العالم القديم الإله الوحيد الذى بقى حيا بيننا إلى يومنا هذا. وقد حافظ على نضارة الشباب ورونق الجمال بعد دخوله دار الخلود من بابها السري.

9





الإسكندر الكبير (356 - 323ق.م) اسمه باليونانية الكسدروس وعرفه العرب باسم الإسكندر أو الإسكندر المقدونى أو الإسكندر ذى القرنين. هو ملك إقليم مقدونيا الواقع على الحدود الشمالية لبلاد اليونان. ولذلك لقب بالإسكندر المقدوني.

استطاع أبوه فيليبوس الثانى فى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أن يبسط نفوذه على كامل البلاد اليونانية بفضل حزمه ودهائه وشجاعة جنوده المقدونيين وانضباطهم وأن يحصل بعد حروب عديدة ومطفرة ومناورات سياسية ناجحة على تجمع اليونانيين حوله الراضى منهم والمكره لقيادتهم فى الزحف المزمع شنه على المملكة الفارسية العظيمة التى كثيرا ما هزمت اليونانيين وحلفاءهم من الشعوب عبر اليونانية مثل شعب مقدونيا ودمرت مدنهم وأحرقت حقولهم خاصة أثناء الحروب الميدية التى اندلعت بين الفرس واليونانيين فى الثلث الأول من القرن الخامس قبل الميلاد.

واستفاد الإسكندر المقدونى من هذا الرصيد الذى كونه أبوه. ونفذ المشروع الذى أعدّ له فيليبوس العدة وحشد له الجيوش ولم يستطع تنفيذه الذى عاجلته المنية.

اعتلى الإسكندر عرش مقدونيا خلفا لأبيه سنة 336 ق.م. وكان عمره آنذاك عشرين سنة بعد أن صاحب أباه فى غزواته ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمره.

وبعد أن قضى سنتين فى إخماد الثورات التى اندلعت فى بلاد اليونان وخارجها بعد موت أبيه قاد ابتداء من سنة 334 ق.م الحملة العسكرية الكبرى التى أطاحت بمملكة فارس وبأقطار أخرى خارج نفوذها وأسس إمبراطورية واسعة تشتمل إضافة إلى مقدونيا وبلاد اليونان على آسيا الصغرى (الأناضول) وبلاد الشام وفلسطين ومصر وبلاد ما بين الرافدين وإيران الحالية وأفغانستان والتركستان وإقليم السند من شبه القارة الهندية. وذلك فى مدة وجيزة لا تتجاوز إحدى عشرة سنة (334 - 323م.ق). وكان سنه عندما زحف على مملكة فارس العظيمة اثنتين وعشرين سنة. فاستحق بذلك لقب الإسكندر الكبير الذى أطلق عليه.

ولد الإسكندر سنة 356 بيلا العاصمة الجديدة لمقدونيا التى انتقل إليها أبوه فيليوس فخلفت العاصمة القديمة أيتاي.

كان اليونانيون يعدون أباه وقومه من «أعاجم» أوروبا لأنهم لا يتكلمون باللغة اليونانية ولكن بلغة قريبة منها ولكن موقع قطرهم المجاور لبلاد اليونان جعلهم متأثرين بالحضارة اليونانية معجبين بها يحاولون أن ينتسبوا إليها. وكان الملك فيليوس من بين القلائل الذين يتكلمون باللغة اليونانية وقد عاش خمس سنوات بمدينة ثيباى (طيبة) ويعلن انتماءه وقومه للحضارة اليونانية التى كان معجبا بها. وقد أدى به ذلك الإيمان إلى تبنى قضايا الشعب اليونانى وإلى حرصه على جمع شملهم بعد قرن ونصف قرن من الحروب الأهلية وتواطؤ بعضهم مع العدو الفارسى الذى كان يتدخل دائما

فى نزاعاتهم لإضعافهم وكسر شوكتهم ويغرى بعض قادتهم بالمال.

وكانت أولمياس أم الإسكندرية أميرة من إقليم إنيروس وهو إقليم «أعجمي» أيضا مجاور لمقدونيا. عرفها أبوه أثناء زيارة لمعبد «الكبير» بجزيرة ساموثراكيا حيث تقام طقوس سرية عمادها البغاء المقدس الذى كان منتشرا فى الأديان القديمة. وكانت الأميرة الإيبرية تقضى فترة تعبد وخشوع فى ذلك المعبد. فتزوجها فيليبوس رغم معارضة صحبته لأنهم كانوا يعتبرونها بغيا. وكانت تلك الأميرة التى أصبحت ملكة مقدونيا ذات طبع مندفع وهائج إلى حد الهذيان والهوس تؤمن بالخرافات والأساطير إلى حد أنها كانت تعتقد أن ابنها الإسكندر هو ابن الإله المصرى أمون الذى له مركز نبوءات فى واحة سيوة فى الصحراء الغربية لمصر. وكانت فخورة أيضا بانتماء أسرتها المالكة الإيبرية إلى البطل اليونانى أخيلوس الذى أبلى البلاء الحسن فى حرب طروادة ومجده هوميروس فى إلياذته. فى حين أن زوجها فيليبوس كان يفخر بانتماء أسرته المقدونية المالكة إلى البطل اليونانى الأسطورى هيراكليس.

كان يتسارع الإسكندر تأثير أبيه الذى لقنه طرق مواجهة الأمور بحزم لتذليل جميع العقبات كجده البطل المغوار هيراكليس وعلمه كيف يعالج الأمور بوضوح رؤية وواقعية ومكر ودهاء وتأثير أمه التى زرعت فيه ميله الذى صاحبه طول حياته إلى الغيبيات والماورائية وعقيدته الراسخة بأنه إله على الأرض لا يغلب ولا يقهر لأنه حمل رسالة كونية.

برزت مواهبه فى عهد مبكر حيث كان يجيد ركوب الخيل ولا يرهب فى ساحة القتال بل له صولات يمزج فيها بين اندفاعه الجبلى وإحكام خطط الهجوم الذى تعلمه عن أبيه. وكان يشارك أباه فى الغزوات على رأس سلاح الخيالة. كان بجانب أبيه فى معركة خيرونى الشهيرة التى هزم فيها فيليبوس اليونانيين المتحالفين وأخضعهم لسلطانه (338 ق.م).

وحرص أبوه على أن يحصل ابنه على تربية عالية. فدعا الفيلسوف أرسطوطاليس إلى مقدونيا وأنزله قصر ميارا الملكى وكلفه بتعليم ابنه ومجموعة من أقرانه بينهم صديقه الوفى ورفيق الدرب هفستيون.

قضى مع معلمه الكبير أرسطوطاليس ثلاث سنوات فقط. حاول الفيلسوف أثناءها كبح جماح ذلك الشاب المندفع المتحمس الذى تعروه أحيانا حالات من الهوس «الصوفي» لقنته إياه أمه أولمبياس الأميرة «الأعجمية». علمه الفيلسوف اليونانى التغلب على نزوات النفس والاعتدال فى السلوك وتغليب العقل على العاطفة وحب الاطلاع على أسرار الطبيعة والتحليل العلمى الموضوعي. وجميعها قيم يونانية متحضرة متنت له نفس البطل الشاب شعوره بالانتماء إلى الحضارة اليونانية. وساعدته على تبنى قضايا الشعب اليونانى عن قناعة. وذلك ما يعلل تفضيل الإسكندر للثقافة اليونانية على سائر الثقافات والجهد الذى بذله لنشر اللغة اليونانية فى جميع الأصقاع التى فتحها حتى تكون لغة الخطاب لجميع الشعوب التى انصهرت فى الإمبراطورية العالمية التى طمح إلى إرساء قواعدها.

وذلك ما يعلل أيضا اصطحابه فى حملته الكبرى لعلماء يونانيين من جميع الاختصاصات فى ذلك العصر مهمتهم تجميع المعلومات النافعة عن جغرافيا الأقطار التى يقع احتلالها وعن المسالك ومجارى الأنهار وشواطئ البحار وعن النباتات والحيوانات. وكان يراسل أرسطوطاليس بانتظام ويرسل إليه عينات من النباتات وبعض الحيوانات النادرة.

وإلى جانب تلك التربية الأخلاقية والعلمية التى اجتهد أرسطوطاليس فى تلقينها لتلميذه نمى الأستاذ ثقافة تلميذه الأدبية وذوقه الجمالى وذلك بتدريسه ملحمة الإلياذة التى كان يجد فيها الأمير الشاب أبطالا يونانيين قد يقتدى بهم. وقد حافظ الإسكندر على نسخة للألياذة مصححة من طرف أرسطوطاليس طيلة حياته. كان يرجع إليها باستمرار ويضعها كل ليلة تحت رأسه بجانب سيفه عندما ينام.

لما اغتيل فيليبوس سنة 336 ق.م جلس الإسكندر خلفا له على عرش مقدونيا. وكان عمره آنذاك عشرين سنة.

وشقت شعوب يونان عصا الطاعة فى وجه الملك الشاب للتخلص من التبعية التى فرضها عليهم أبوه. فاندلعت الثورات فى كل قطر فقاومها الإسكندر بكل حزم متنقلا على رأس جيشه من مكان إلى آخر طاويا مسافات شاسعة بسرعة هائلة حتى هزمهم جميعا.

واجتمع ممثلو الشعوب اليونانية فى مدينة كورثة وعينوه قائدا أعلى لهم وحاميا لأوطانهم فدعاهم إلى غزو فارس مثلما دعاهم أبوه. فوافقوه

جميعا على ذلك.

ولكن مدينة ثيباى (طيبة) عاصمة إقليم يويوتيا نقضت العهد بإيعاز من مدينة أثينة فحاصر الإسكندر طيبة واحتلها وسواها بالأرض وقتل أهلها وسبى نساءها وأطفالها وباعهم فى أسواق العبيد حتى ينزل الرعب فى قلوب مواطنى أثينة وجميع شعوب يونان. ولم يمس أثينة بسوء.

وفى ربيع سنة 334 ق.م اجتاز البحر عبر مضيق الهلسبون (الدردانيل) إلى آسيا الصغرى (الأناضول) التابعة لمملكة فارس على رأس جيش من المقدونيين واليونانيين من مختلف الأقاليم يُعد خمسة وثلاثين ألف مقاتل. وزار موقع إليون عاصمة طروادة وتخيل أنه يعيد ملحمة الألياذة.

وأرسل إليه ولاة الفرس فى المنطقة جيشا فهزمه فى معركة جرت على ضفة نهر قرانيكوس من إقليم طروادة (334 ق.م).

ثم اتجه إلى سرديس عاصمة إقليم ليديا ومقر والى الأناضول الفارسى وفتحها ثم فتح المدن اليونانية الواقعة على ساحل الأناضول الخاضعة لملك فارس.

ثم توغل فى الجبال فى اتجاه الشمال الشرقى إلى أن وصل إلى مدينة أنكورة (أنقرة الحالية) ثم انحدر جنوبا وعبر مضيق كيليكيا ودخل إقليم سوريا.

وفى سوريا اعترضه داريوس الثالث كودومان ملك الفرس بمكان يسمى إسوس على رأس جيش عظيم قوى العدة وافر العدد. وكان أول لقاء له مع ملك الفرس. فألحق الإسكندر بجيش الفرس هزيمة نكراء.

وفر داريوس فى ثلة قليلة من جيشه تاركا أمه وزوجته وبناته فى قبضة الإسكندر. واستولى هذا بعد معركة إسوس على كنوز الملك التى كانت تتبع الجيش فى تنقلاته والتى كانت مودعة آنذاك فى دمشق قاعدة الجيش قبل معركة إسوس. جرت تلك الأحداث فى سنة 333ق.م.

وواصل الإسكندر سيره نحو الجنوب على ساحل سوريا. وحاصر مدينة صور مدة ستة شهور حتى احتلها (332 ق.م).

لماذا واصل الإسكندر احتلاله للموانئ الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ابتداء من ساحل الأناضول بدل أن يلاحق ملك الفرس المنهزم ويتوغل فى تراب المملكة الفارسية؟

يبدو أن الإسكندر كان حريصا على الاستيلاء على الموانئ الآسيوية ليمنع الأسطول الفارسى بقيادة ممنون الرودسى من استعمالها ولئلا يطمع اليونانيون المناهضون له فى حشد أساطيلهم وتنظيم حملة ضده بالتعاون مع الفرس تتعقبه وهو متوغل فى أرض فارس وتجعله واقعا بين خطرين أحدهما أمامه والآخر وراءه. كان يعلم أن أعداءه فى بلاد يونان كثيرون وأن مشاركة اليونانيين فى الحملة مشاركة رمزية لأن أكثرية الجند كانت من المقدونيين. قهر الإسكندر اليونانيين فخمدوا وقلوبهم متأججة حقدا وهم له بالمرصاد ناهيكم أن جيش الإسكندر لما دخل دمشق للاستيلاء على كنوز ملك الفرس وجد بها رسلا من إسبارتا وأثينة أتوا للتفاهم مع الفرس للكيد بالإسكندر.

ثم اجتاز الإسكندر إلى مصر بعد أن احتل فى طريقه غزة واستولى على مصر كلها ونزل بعاصمتها ممفس وأطلق عليه الكهنة لقب فرعون ودان له الشعب المصرى وزار معبد الإله أمون ومركز نبوءته بواحة سيوة فى الصحراء الغربية.

وبنى على ساحل مصر مدينة جديدة سماها باسمه وهى الإسكندرية، وكان الغرض من بناء هذه المدينة تعويض مدينة صور التى كسر شوكتها بمدينة جديدة تستولى على الطرق التجارية التى كانت تسيطر عليها صور ويخشاها الفينيقيون.

ثم غادر مصر واتجه مشرقا إلى سوريا ثم العراق. وعبر الفرات ثم دجلة قرب نينوى عاصمة الأشوريين القديمة التى تقع غير بعيد من مدينة الموصل الحديثة.

واعترضه داريوس ثانية شرقى دجلة فى أرض فارس. وجرت بين الجيشين معركة طاحنة فى سهول أربيل فى مكان يسمى قوقملا (مرعى الجمال). فانهزم داريوس هزيمته الثانية (331 ق.م).

وانحدر الإسكندر جنوبا فاحتل مدينة بابل ثم اتجه جنوبا شرقا نحو مدينة السوس من إقليم خوزستان وهى إحدى عواصم ملوك الفرس الأحميين الثلاث (العاصمتان الآخريان هما برسيوليس أو اصطخر فى إقليم فارس واكتان أو همدان فى إقليم ماداي) فاحتلها. وغنم فى تلك العاصمة غنائم عظيم من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ثم اتجه

جنوبا واحتل مدينة برسيبلويس وأحرقها أخذا بالثأر لأن الفرس سبق لهم أن أحرقوا أثينة سنة 580 ق.م أثناء الحرب الميدية.

ووردت على الإسكندر أثناء تعلمه أن الملك داريوس يحاول جمع جيش جديد فى إقليم ماداي. فأسرع للالتحاق بذلك الإقليم الواقع فى الشمال قاصدا عاصمة أكبتان مرورا بأصبهان. ولما وصل المدينة علم أن داريوس غادرها وتوجه شرقا قاصدا إقليم خراسان صحبة ابن عمه لسوس مرزبان إقليم باكتريانى (خرسان).

فانطلق مقتفيا آثار داريوس عبر هضاب ماداى وانقض فى دمغان على معسكر بسوس. وقد غادره أهله، فوجد فيه داريوس طريحا قد قتله بسوس ليخلفه على عرش فارس (330 ق.م).

فأرسل الإسكندر جثمان الملك المغتال إلى مدينة إكبتان حتى تسهر أم داريوس على مراسم دفن ابنها.

وواصل الإسكندر مطاردته لبسوس الذى كان فارا أمامه وذلك مدة سنة كاملة (329 ق.م).

توجه بسوس أولا نحو الجنوب الشرقى لبلوغ مناطق أفغانستان الجبلية ظنا منه أن الإسكندر سيجتنب التوغل فى منطقة جبلية منيعة ولكن الإسكندر اقتفى أثره وغامر بجيشه وأسس فى طريقه مدينتين جديدتين بغرض تكوين قاعدتين للجيش فيهما تتجمع المؤن والعتاد وهما إسكندرية أريا (هراة الحالية) وإسكندرية أراجوسيا (كاندهار الحالية).

وعندما غادر الإسكندر أفغانستان مقتفيا دائما آثار بسوس الذى حل بولايته أى ولاية باكتريانى (خراسان) وأحرق المزارع والبساتين حتى يعجز جيش الإسكندر عن مواصلة الزحف حث السير حتى وصل إلى مدينة باكتريا (بلخ).

فعلم أن بسوس غادرها وعبر نهر إكسوس (سيحون أو حاليا أموداريا) فعبر الإسكندر النهر بدوره وقبض على بسوس حيا وقطع له أنفه وأذنيه كما يفعل الفرس جزاء خيانته لمليكه وأرسله إلى إكبتان (همذان) حتى يقتله أخو داريوس انتقاما لأخيه.

وتوغل الإسكندر شمالا فى إقليم السغد (التركستان) ليعرف حدود إمبراطورية فارس التى عادت له. فاحتل ميراكندا (سمرقند) ووصل إلى نهر أراكس (جيحون أو سيرداريا الحالية) وأسس مدينة إسكندرية أقصى الأرض (خاجند).

وقفل راجعا واشتغل بإخماد ثورات السغد وأهالى باكتريانى (خراسان) وأسس أثناء إخماده للثورات إسكندرية مرقيانى (مرو).

ودانت له مملكة فارس كلها. فلم يحرق المزارع ولم يدمر المدن بل أبقى ولاة الفرس فى مناصبهم وأضاف لهم حامية مقدونية وأدخل شباب الفرس فى الجيش وساواهم بالمقدونيين وكون منهم فيالق صحبته فى غزواته داخل فارس وخارجها.

وذلك هو المنعطف البالغ الخطورة فى سيرة الإسكندر.

زحف على فارس أولا أخذا بثارات اليونانيين الذين طالما حاربهم الفرس واكتسحوا أرضهم وأهانوهم. وكانت الغاية إخضاع جميع الشعوب المنضوية قهرا إلى مملكة فارس وتحويل جميع أفراد تلك الشعوب إلى رعايا خاضعين لمملكة لا تعترف بذاتية الشعوب ولا بقيمها ولا بتقاليدها بل تدين بالقيم اليونانية وحدها وبتفوق الثقافة اليونانية على سواها من الثقافات. ذاك ما علمه أرسطوطاليس الإسكندر. علمه أن مصير الشعب اليونانى هو السيطرة على جميع الشعوب لأنه شعب مختار بلغ ذروة من الحضارة لم يبلغها أى شعب آخر. وذلك ما يخول لذلك الشعب قيادة الشعوب الأخري.

ولكن عندما سقط داريوس آخر ملوك الفرس صريعا وقع تحول فى نفس الإسكندر. أصبح يعتقد أنه وارث مملكة الفرس وراعى شعوبها جميعا. فلا يجوز له أن يفرق بين شعب وآخر ويرفض أن يكون فى مملكته رعايا من الدرجة الثانية لأنهم ليسوا يونانيين وأيقن من ناحية أخرى أن حضارة الفرس حضارة راقية تفوق فى بعض جوانبها الحضارة اليونانية. ولذلك قرر أن يكون ملك جميع الشعوب الخاضعة لسلطانه وأن يعامل جميع رعايا المملكة نفس المعاملة وأن يكونوا جميعا متساوين فى الحقوق والواجبات. وهذا التحول من الوطنية الضيقة إلى النظرة العالمية الشاملة التى تسوى بين البشر وتقرب بينهم أحدثت القطيعة بينه وبين أرسطوطاليس فانقطعت المراسلة بينهما. وضاق جنوده

المقدونيون ذرعا بذلك السلوك الذى كان يؤلمهم لأنه سوى بين صحبه القدامى وأبناء وطنه الذين شاركوه المحن وبين أعدائهم بالأمس. فثاروا فى وجهه ولكنه أخمد جميع الانتفاضات وحافظ على موقفه بكل حزم حتى أصبح جيشه يحتوى على أكثرية من الفرس أغلبهم من الشباب.

وقرر الإسكندر وقد نجح فى المزج بين الشعب اليونانى والشعوب المختلفة التى كانت تخضع لملك الملوك أى ملك الفرس أن يمد فتوحاته خارج الإمبراطورية الفارسية وذلك حتى يصل إلى أقصى الأرض إلى تلك الشواطئ الشرقية التى يحدها البحر المحيط بالأرض المعمورة كلها حسب افتراضات علماء ذلك العصر. ولذلك نظم زحفه على شبه القارة الهندية.

دامت التحضيرات لغزو الهند سنتين (329 - 328 ق.م) أسس الإسكندر فى شتاء سنة 329 ق.م مدينة إسكندرية القوقاز التى بقيت أطلالها بارزة قرب مدينة كابل عاصمة أفغانستان الحالية وذلك لتجميع الميرة والعتاد وتنظيم المواصلات لتزويد الجيش أثناء زحفه لوقوع المدينة الجديدة فى مفترق الطرق المؤدية إلى الهند. وحشد جيشا يعد مائة وعشرين ألف مقاتل وهو أعظم جيش عرفه العالم القديم.

وانطلق الجيش سنة 327 ق.م من أراسبيا على بعد ثلاثمائة كيلو متر جنوبى سمرقند وقطع جبال الهندوكوش المنيعة وهضابه ووصل بعد سنة إلى نهر السند الذى عبره على جسر من المراكب. وخضع له ملك تاكسيلا دون قتال وأهداه قناطير من الفضة وثلاثين فيلا آملا

أن يهزم ذلك الغازى الذى طبقت شهرته الآفاق وعدوه الملك بوروس.
وتقدم الإسكندر إلى نهر هيداسبوس أحد روافد نهر السند وعبره ليلاقى الملك الهندى العظيم بوروس الذى قدم بجيش يعد مائة ألف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان وأربعمائة عربة حربية وثلاثمائة فيل واستطاع الإسكندر بفضل خبرته ودهائه أن يهزم ذلك الجيش العظيم وابتكر طريقة لإبعاد خطر الفيلة بأن درب فدائيين ووزعهم فى جميع فيالق الجيش مهمة هؤلاء الهجوم بالشواقير والمناجل الكبار على الفيلة ومحاولة إصابتها فى أعينها أو فى أماكن قاتلة من بطنها حتى تولى القهقرى فتشتت جموع المقاتلين الهنود من ورائها. ونجحت الخطة وكبد الإسكندر بوروس هزيمة نكراء.

وكانت معاملة الإسكندر للملك بوروس معاملة كريمة حيث أنه أعاد له ملكه بعد أن هزمه فأتاه ملوك السند معلنين له الطاعة والولاء.

وكان ينوى مواصلة زحفه إلى أن يبلغ نهر القح ولكن جيشه أبى أن يواصل السير فأرغم على العودة ولكن عن طريق غير التى سلكها فحمل جزء من جيشه فى السفن وأمرهم بأن ينحدروا على نهر السند إلى أن يبلغوا البحر الأريترى (المحيط الهندى حاليا) وقاد بقية الجيش برا وانحدر فى نفس الاتجاه إلى الجنوب وكان يحارب طول الطريق شعوبا كانت تحاول صد عدوانه. ووصل الجيش إلى المحيط الهندى عند مصب نهر السند.

وأمر عند ذلك الإسكندر نيارجوس الكريتى بقيادة أسطول يعود إلى العراق

عن طريق البحر مستكشفا الطريق البحرية المؤدية إلى مصب الفرات.

أما الإسكندر فقد قاد جزءًا كبيرا من جيشه عبر صحراء قدروسيا (بلوشستان الحالية) حسب مسيرة موارية لمسيرة الأسطول. ففقد عددا كبيرا من الجنود لم يفقد مثله فى أى غزوة من غزواته بسبب شدة الحر والعطش. وعاد إلى مدينة السوس فى صائفة سنة 325ق.م.

وفقد فى نفس السنة أعز أصدقائه وأحد قواد جيشه هفستيون وذلك بمدينة إكبتان من إقليم ماداى قضى الستين الأخيرتين من حياته فى تهيئة مخططات ضخمة لغزو قرطاج فى الغرب وللزحف على جزيرة العرب.

وهو بذلك يرمى إلى هدفين: الهدف الأول الاستيلاء على جزيرة العرب للسيطرة على الطرق التجارية التى تسلكها القوافل المحملة ببخور عدن وظفار وحضرموت والهدف الثانى بلوغ أقصى الأرض من ناحية الغرب فى تلك النقطة الواقعة على المحيط الأطلسى والمشرفة على رقاق جبل طارق حيث عرس فيها جده الأسطورى هيراكليس عموديه: جبل طارق وجبل سبتة. ولابد له لبلوغ هدفه الثانى أن يستولى على قرطاج التى كانت تسود على جانب كبير من مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط العربية.

وعاجلت الإسكندر المنية فمات فى مدينة بابل سنة 323 ق.م. وقد بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة. ملأ الإسكندر الكبير الدنيا وشغل الناس. واستولى فى بضعة أعوام على أصقاع شاسعة.

ولذلك سرعان ما تحولت سيرة الإسكندر التى سجلها التاريخ إلى أسطورة رواها خيال الشعوب خاصة منها الشعوب الشرقية التى شاهدت بطولاته عن كثب فأعجبت به.

وقد يكون من المفيد أن نطلع على صورة الإسكندر كما كان يتخيلها العرب فى العصور الزاهرة للحضارة العربية اعتمادا على مقتطفات مما كتبه عنه المسعودى وهو من كبار المؤرخين فى «مروج الذهب».

«لما قتل الإسكندر بن فيلبس دارا بن دارا تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته. وقد نصبت كل طائفة لها ملكا لعدم ملك يجمع كلمتهم. وذلك أن الإسكندر أشار عليه معلمه وهو وزيره أرسطاطليس فى بعض رسائله إليه بذلك وكاتب الإسكندر ملك كل ناحية وملكه على ناحيته وتوجه وحياه فصار ملكه من بعده فى عقبة ممانعا عما فى يده وطالبا بالازدياد من غيره (المسعودي: مروج الذهب - المكتبة التجارية الكبرى - الجزء الأول ص 234 و235).

«وسار الإسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله ثم سار إلى أرض السند والهند ووطئ ملوكها وحملت إليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها فور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الإسكندر مبارزة.

ثم سار الإسكندر نحو بلاد الصين والتبت فدانت له الملوك وحملت إليه الهدايا والصرائب وسار فى مغاور الترك يريد خراسان من بعد أن

ذلل ملوكها ورتب الرحال والقواد فيما افتتح من الممالك ورتب ببلاد التبت خلقا من رحاله وكذلك ببلاد الصين وكور بخراسان كورا وبنى مدنا فى سائر أسفاره.

وكان معلمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط. وصرف هؤلاء هممهم إلى تقييد علوم الأشياء الطبيعية والنفسية وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالإلاهيات وأبانوا عن الأشياء وأقاموا البرهان على صحتها وأوضوحها لمن استعجم عليه تناولها.

وسار الإسكندر راجعا من سفره يؤم المغرب فلما صار إلى مدينة شهرزور اشتدت علته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقبل بالعراق حيث كانت وفاته ونهاية رحلته وقيل إن الوفاة كانت فى (بابل) بالتحديد.

وهكذا اسدل الستار عن شخصية خالدة غيرت مجرى التاريخ.

فهرس المحتويات